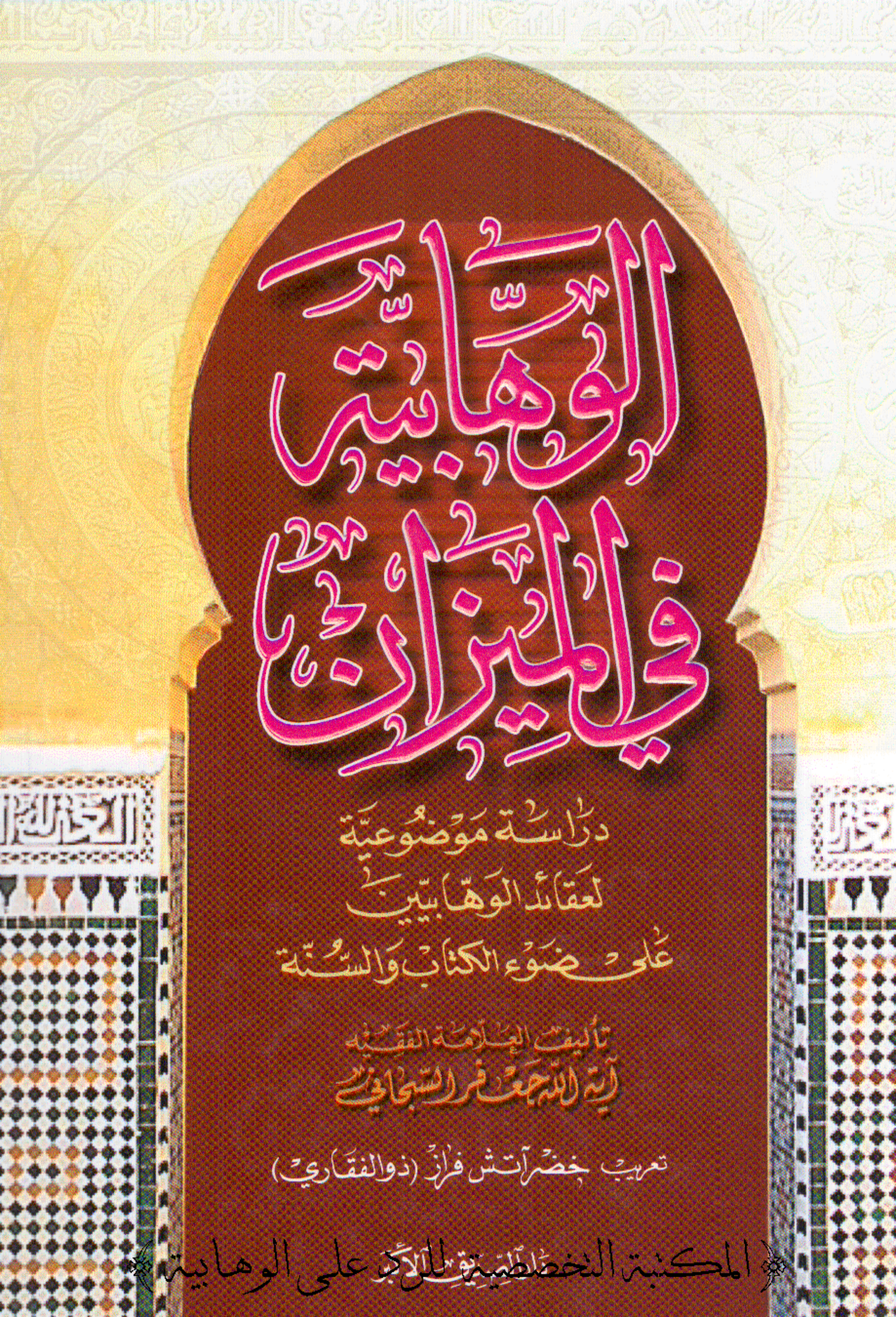
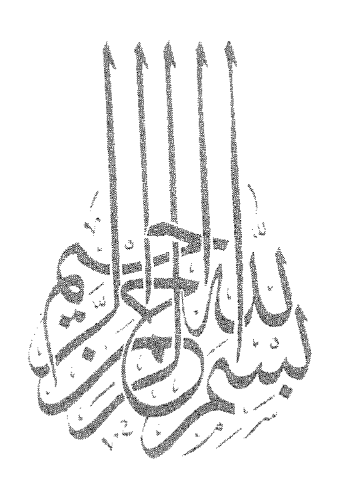

الوهابية في الميزان
دراسة موضوعية
لعقائد الوهابيين
على ضوء الكتاب والسنة
تأليف العلامة الفقيه
آية الله جعفر السبحاني
تعريب خضر آتش فراز (ذو الفقاري)
المكتبة التخصصية للرد على الوهابية


الوهابية في الميزان
دراسة موضوعية لعقائد الوهابيين
على ضوء الكتاب والسنة





الوهابية في الميزان

دراسة موضوعية لعقائد الوهابيين
على ضوء الكتاب والسنة

تأليف
العلامة الفقيه
آية الله جعفر السبحاني

تعريب
خضر آتش فراز (ذو الفقاري)

دار الصديق الأكبر

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

دار الصديق الأكبر
بيروت - لبنان



كلمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

بني الإسلام على كلمتين

كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة

بُني الإسلام على كلمتين هما دعـامتاه الأساسيتان: كلمة التوحيـد، وتوحيد الكلمة.

أمّا الأُولى، فقد كـانت دعامة أسـاسيّة لجميع الشرائع السماوية وبخـاصّة الإسلام، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ﴾.[1]

وأمّا الثانية، فهي الدعامة القوية التي يقوم عليها صرح الإسلام خاصّة، بل هي الركن الوثيق لنشر تعاليمه، والعامل القوي لبقاء كيانه.

وقد قام رسول الإسلام العظيم محمد ﷺ بإرساء تينك الدعامتين، فاهتمّ في الفترة المكّيـة بمكافحـة الكفر والإلحاد والشرك والـوثنية، وزرع بـذور التوحيـد في العقول، وغرس روح الوحدانية في النفوس.

وافتتح الفترة المدنيّة بتطبيـق الثانية (وهي توحيد الكلمـة) حيث آخىٰ بين

١. النحل:٣٦.

المسلمين مهاجرين وأنصاراً، جُدُداً وقدامى، وظلّ طوال حياته الشريفة يدعم بكلّ الوسائل هاتين الدعامتين حتّى كوّنَ من المؤمنين برسالته والسائرين تحت رايته، أُمّةً واحدةً قوية جسَّدت ما قاله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد(الواحد) إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّىٰ».[1]

وبفضل هاتين الدعامتين اللّتين كانتا منشأً للوحدة الفكرية والوحدة الاجتماعية استطاع المسلمون أن يتغلّبوا على خصوم الرسالة الإسلامية وأعدائها، ويزيحوا جميع الموانع والعراقيل من طريقها، ويضمنوا انتشارها، بل وبقاءها، رغم كيد الكائدين، ومؤامرات المعارضين.

وبقيت الأُمّة على وحدتها وتماسكها قروناً عديدة حتّى أطلّ القرن السادس وتلاه السابع، كانت البلاد الإسلامية تعاني من هجومين شرسين مدمّرين عليها، على أيدي عبّاد الصنم (التتر) من ناحية الشرق، وأتباع الصليب (المسيحيين) من ناحية الغرب، ذينك الهجومين اللّذين دمّرا الكثير من أُسس الحضارة الإسلامية ومظاهرها ومعالمها من جانب آخر.

فيما كانت هذه هي حالة الأُمّة الإسلامية وحال بلادها طلع من «حرّان» دمشق، رجل على الأُمّة الإسلامية بعقائد منحرفة وآراء شاذة بلبلت أذهان المسلمين، ومزّقت وحدتهم، وفرّقت جماعتهم وأوقدت نيران الفتنة في مجتمعهم، ذلك في الوقت الّذي كانت الأُمّة الإسلامية أحوج ما تكون فيه إلى توحيد الكلمة، ورصّ الصفوف لمواجهة الخطرين اللّذين كانا يهدّدان كيانهم من الأساس.

---

١. مسند الإمام أحمد: ٤/ ٢٧٠.

غير أنّ الغيارى والواعين من العلماء من مختلف المذاهب والطوائف الإسلامية، تصدّوا بحزم للرجل (وهو ابن تيمية الحراني الدمشقي) وشجبوا عقائده الشاذة وآراءه التي خالف بها جميع المذاهب، فهدأت الضجّة، وخمدت نيران الفتنة، ووقى الله المسلمين ما كان أعظم.

ولكن لم تمَرّ أربعة قرون إلاّ وظهر رجلٌ آخر (هو محمد بن عبد الوهاب النجدي) من أرض الحجاز أحيا تلك العقائد والآراء الميّتة ونادى بها من جديد، مع إضافات أشدّ شذوذاً وغرابة عمّا كان عليه المسلمون عقيدةً وعملاً طيلة قرون منذ وفاة الرسول الكريمﷺ مستغلاً جهل طائفة من أعراب البادية الجفاة، ومستعيناً بزمرة من ذوي الأطماع في الملك والسلطان، فأوقد مرة أُخرى نيران الفتنة الخامدة من جديد، ومضت هذه الجماعة تُكفّر المسلمين وتفسّقهم، وترميهم بالشرك، وعبادة غير الله تعالى وهم أهل الصلاة والقبلة.

وزاد الطين بلة أن أخذت حكومة آل سعود على عاتقها، وبما أُوتيت من ثروة عظيمة نفطية وغير نفطية، ترويج هذه العقائد التي خالف بها مؤسّسها ومروّجها إجماع المسلمين ولم يقل بها أحد قبلهما إلى القرن السابع، وبذلك أشغلت بال أبناء الأُمّة الإسلامية بأُمور تافهة، وصرفتهم عن التفكير في جوهر الدين، والعمل في مجال القضايا المصيرية.

فانّ الّذي يلاحظ ما يسمّى اليوم بالمذهب الوهابي، والمتقمّص رداء السلفية لا يرى سوى فقاعات وقشور، وكأنّ الإسلام العظيم ليس إلاّ إطالة اللحى وتقصير الثياب، وحرمة تقبيل أضرحة الأنبياء والصالحين، وحرمة التوسل بعباد الله المقرّبين!!

إنّ هؤلاء لا يهمّهم ـ وللأسف ـ وحدة المسلمين وتماسك كيانهم، واجتماع

كلمتهم، ولهذا نجدهم ينفقون أموالاً طـائلة على دعوة لم تجر على المسلمين سوى الفرقة، والتشتت، والتعادي والتخاصم.

ابن تيميّة من منظار علماء عصره وغيرهم

ولكي يعرف القارئ مـدى ما تركه ابن تيمية من أثـر سيّء على وحدة الأُمّة الإسلاميـة، والاختلاف الّـذي أوجدتـه أفكاره يـومها في صفـوف المسلمين ولكي يعرف القـراء الكرام دعاة الفـرقة وعوامـل الفتنة ندرج هنـا ـ في هذه المقـدّمة ـ بعض مـا قالـه علماء المذاهب الأربعـة في حقّه، تـاركين التعـريف بمجدّد هـذه العقائد الشاذّة ومحييها محمد بن عبد الوهاب إلى الفصل الأوّل من هذا الكتاب.

١. الشيخ صفّـي الديـن الهِندي الأرمـوي (المتوفّى ٧١٠هـ) وهـو متكلّم أشعريٌّ مـدحه السبكي؛ باحَث ابـن تيمية، ولمّا ناظـره ووجده يخرج من شيء إلى شيء قال له: مـا أراك يابن تيميّة إلاّ كالعُصفور حيـث أردتُ أن أقبضه من مكانٍ فرَّ إلى مكان آخر.[١]

٢. الحافظ شمس الديـن الذهبيّ(المتوفّى٧٤٨هـ) كتب له رسالـة ينصحه فيها بقسوة، جاء فيها: إلى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك؟ إلى كم تمدح نفسك وشقاشِقك وعباراتك، وتذم العلماء وتتّبع عورات الناس؟!

فهل معظم أتباعك إلاّ قعيدٌ مربوط خفيف العقل، أو عامـي كذّاب بليد الذهن... أما آن لك أن ترعوي، أما حان لك أن تتوب وتنيب؟![٢]

٣. الحافظ عليّ بن عبد الكافي السبكي (المتـوفّى ٧٥٦هـ) ردّ على ابن تيمية

---

١. طبقات الشافعية الكبرى للسبكي:٩/ ١٦٢.

٢. تكملة السيف الصقيـل تأليف الشيخ محمد الكـوثري وكيل الأزهر، ص ١٩٠، نقلـه من خط ابن قاضي شهبة.

فيمن ردّ عليـه، وألّف فيه كتـاباً أسماه: «شفاء السقـام في زيارة خير الأنـام». وقد كتب في مقـدّمة كتاب لـه اسمه: «الـدرة المضيئة في الـردّ على ابن تيمية» مـا هذا لفظه: أمّا بعـد، لمّا أحدث ابن تيمية ما أحدث في أُصـول العقائد، ونقض دعائم الإسلام بعد أن كان مستتراً بتبعيّة الكتـاب والسنّة مُظهراً أنّه داعٍ إلى الحقّ هاد إلى الجنة، فخرج عن الاتّباع إلى الابتداع، وشذّ عن جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع، وقال بما يقتضي الجسمية والتركيب في الذات المقدّسة....[1]

٤. شهـاب الـدين ابـن حجـر العسقـلاني (المتـوفّى ٨٥٢هـ) قـال في كتابه:«الدُّرر الكـامنة في أعيان المائة الثامنة»: قام عليـه جماعة من الفقهاء بسبب الفتوى الحمويّة وبحثوا معه، ومنع من الكلام

ثمّ ذكر سجونه، وما أصدره العلماء عليه من أحكام.[2]

٥. شهـاب الدين ابـن حجر الهيتمي(المتـوفّى ٩٧٣هـ) قال في تـرجمة ابن تيمية: ابن تيمية عبدٌ خذله الله، وأضلّه وأعماه وأصمّه وأذلّه. وبذلك صرّح الأئمّة الذين بيّنوا فساد أحواله وكذب أقواله... والحاصل أنّه لا يُقام لكلامه بل يرمي في كل وعر وحَزن، ويُعتقد فيه أنّه مبتدع ضالٌّ مضـلٌّ غالٌ عامله الله بعدله، وأجارنا من مثل طريقته، وعقيدته، وفعله.[3]

وله كتاب حول زيارةالقبر النبوي، ردّ فيه على ابن تيمية.

٦. النبهاني (المتوفّى ١٣٥٠هـ) قال في كتابه «شواهد الحقّ»: قد ثبت وتحقّق وظهر ظهور الشمـس في رائعة النهار أنّ علماء المذاهب الأربعة قـد اتّفقوا على ردّ بدع ابن تيمية، ومنهم من طعنوا بصحّة نقله، كما طعنوا بكمال عقله.[4]

---

١. الدرّة المضيئة:٦.
٢. الدرر الكامنة:١/ ١٥٤.
٣. الفتاوى الحديثية:٨٦.
٤. شواهد الحق: ٧٩١. ألّفه عام ١٣٢٣هـ وقد أدّى حقّ الكلام فيه في الردّ على بدع ابن تيمية.

هذه طائفة من كلمات العلماء في ابن تيمية وأحواله وأقواله تكفي على قلّتها لإلقاء الضوء على شخصيّته وطبيعة أفكاره.

والمشكلة هي أنّ ابن تيمية بما كان له من طلاقةٍ في لسانه، وسيولة في قلمه، وأُسلوبه في نسبة ما يقول إلى الكتاب والسنّة والسَّلف بقاطعيّة وجزم، كذباً وافتراء كان يستحوذ على عقول العوام والبسطاء ممّا كان سبباً في نصرته من قِبَلِهم دون العلماء الواعين.

إنّ المسلمين اليوم بأمسّ الحاجة ـ و هم يتعرّضون للغزو الصليبي والصهيوني والعلماني الغربي ـ إلى الوحدة الفكرية والاجتماعية والسياسية و إلى رصّ الصفوف، ونبذ الخلافات وحلّ الفوارق الاجتهادية من خلال البحث العلمي والمناقشة الموضوعية بعيداً عن التراشق بسهام الاتّهام والعدوان.

وما هذا الكتاب ـ كما قلنا ـ إلاّ لفضح مفرّقي الصفوف ودعاة الفتنة قديماً وحديثاً ومواقفهم المفرّقة وأفكارهم الشاذة بغية أن يتجنّبها المسلمون ويتصدّى لهم ولها المفكّرون الذين يهمّهم أمر هذه الأُمّة المرحومة، وتؤلمهم محنتها القاسية، والله من وراء القصد.

استعرضنا في هذا الكتاب عقائد الوهابيين الموروثة عن ابن تيمية علىٰ ضوء الكتاب والسنّة، وإذا ما قرأه القارئ مجرّداً عن أيّ تحيّز، لعرف أنّ هذا المذهب لايُبتنىٰ على أُسس رصينة، وأنّ ما يتبنّاه المذهب، ليس سوى مغالطات أو انعكاسات سوء فهم للكتاب والسنّة ويتبين كلّ ذلك في ضمن فصول:

جعفر السبحاني

قم المشرفة ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

شعبان المعظم ١٤١٥هـ



الفصل الأوّل

لمحات عن حياة مؤسّس الوهابيّة

تنسب الطريقة الوهّابيّة إلى الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب النجدي، وتُسمّى طريقته باسم أبيه «عبد الوهّاب» . أمّا السبب في عدم تسميتها بـ«المحمّدية» نسبة إلى مؤسّسها محمّد، فهو ـ كما يقول البعض ـ للحذر من وقوع التشابه بينها و بين المسلمين أتباع رسول الله ﷺ والحيلولة دون استغلاله.[1]

وُلد الشيخ محمّد عام ١١١٥هـ في قرية «عُيينة» إحدى القرى التابعة لـ«نجد» وكان والده قاضياً فيها.

كان محمّد بن عبد الوهّاب ـ منذ طفولته ـ ذا علاقة شديدة بمطالعة كتب التفسير والحديث والعقائد، وقد درس الفقه الحنبلي عند أبيه الّذي كان من علماء الحنابلة. وكان ـ منذ شبابه ـ يستقبح كثيراً من الشعائر الدينية التي كان يمارسها أهالي نجد. ولم يقتصر ذلك على «نجد» بل تعدّى إلى المدينة المنوّرة بعد ما انصرف من مناسك الحجّ، فقد كان يستنكر على الذين يتوسّلون برسول الله ﷺ عند مرقده المقدّس.

ثمّ عاد إلى نجد وبعدها ارتحل إلى البصرة ـ وهو في طريقه إلى الشام ـ وهناك في البصرة طفق يستنكر على الناس شعائرهم الدينية وينهاهم عنها، فثار

١. دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي: ١٠/ ٨٧١، نقلاً عن مجلة المقتطف: ٢٧/ ٨٩٣.

عليه أبناء البصرة الغيارى وأخرجوه مدحوراً من ديارهم، فتوجّه إلى مدينة الزبير.

وفي الطريق ـ بين البصرة و الزبير ـ تعب من المشي ونال منه الحرُّ والعطش نيلاً شديداً بحيث كاد أن يهلك، فأدركه رجل من الزبير فعطف عليه عندما رآه مرتدياً زيَّ رجال الدين، وسقاه الماء وأركبه وأوصله إلى المدينة.

كان محمّد بن عبد الوهّاب عازماً على السفر إلى الشام، لكنّه لم يكن يملك ما يكفيه من المال والزاد، فسافر إلى الأحساء ومنها إلى حريملة التابعة لـ«نجد».

في تلك السنة ـ وكانت سنة ١١٣٩هـ ـ انتقل والده عبد الوهّاب من عُيينة إلى حريملة فلازم الولد والده وتتلمذ على يده، وواصل حملاته المسعورة ضدّ الشعائر الدينية في نجد، ممّا أدّى إلى نشوب النزاع والخلاف بينه و بين أبيه من جهة، وبينه و بين أهالي نجد من جهة أُخرى، واستمرّت الحالة على هذه حتّى عام ١١٥٣هـ حيث توفّي والده.(١)

عند ذلك خلا الجوّ لمحمّد بن عبد الوهّاب، فراح يُعلن عن عقائده الشاذّة، ويستنكر على الناس ما يمارسونه من الشعائر الدينية، ويدعوهم إلى الانخراط في حزبه وتحت لوائه، فانخدع بعضٌ ورفض آخرون، واشتهر أمره في المدينة.

عندها قفل راجعاً إلى «عُيينة» وكان يحكم عليها عثمان بن حمد، فاستقبله وأكرمه، ووقع القرار بينهما على أن يُدافع كلٌّ عن صاحبه، باعتبار أنّ لأحدهما السلطة التشريعية وللآخر السلطة التنفيذية، فحاكم عيينة يمدّه بالقوّة ومحمّد بن عبد الوهّاب يدعو الناس إلى طاعة الحاكم واتّباعه.

ووصل الخبر إلى حاكم الأحساء بأنّ محمّد بن عبد الوهّاب يدعو إلى آرائه

١. اقتطفناه من تاريخ نجد للآلوسي: ١١١ ـ ١١٣.

ومبتدعاته، ويعضده حاكم عُيينة فأرسل حاكم الأحساء رسالة تحذيرية إلى حاكم عيينة، فاستدعى الحاكم محمّد بن عبد الوهّاب واعتذر من تأييده، فقال له ابن عبد الوهّاب: لو ساعدتني في هذه الدعوة لملكت نجد كلّها، فرفضه الحاكم وأمره بمغادرة عيينة مذموماً مدحوراً.

كان ذلك في عام ١١٦٠ هـ عند ما خرج ابن عبد الوهّاب من عيينة وتوجّه إلى الدرعية التي كانت من أشهر المدن التابعة لنجد، وكان حاكمها ـ يومذاك ـ محمّد بن سعود ـ الجدّ الأعلى لآل سعود ـ فزاره الحاكم وأكرمه ووعده بالخير.

وبالمقابل بشّره ابن عبد الوهاب بالهيمنة على بلاد نجد كلّها، وهكذا وقع الاتّفاق المشؤوم.[1]

والجدير بالذكر: أنّ أهالي الدرعية كانوا يعانون من فقر مُدقع وحرمان فظيع، حتّى وصول ابن عبد الوهّاب وعقد الاتّفاقية بينه و بين محمّد بن سعود.

يقول ابن بشر النجدي ـ فيما يرويه عنه الآلوسي ـ :

... وكان أهل الدرعيّة ـ يومئذٍ ـ في غاية الضيق والحاجة، وكانوا يحترفون لأجل معاشهم....

ولقد شاهدتُ ضيقهم في أوّل الأمر، ثمّ رأيت الدرعيّة بعد ذلك ـ في زمن سعود ـ و ما عند أهلها من الأموال الكثيرة والأسلحة المحلاّة بالذهب والفضّة والخيل الجياد والنجائب العُمانيات والملابس الفاخرة، وغير ذلك من أسباب الثروة التامّة، بحيث يعجز عن عدّه اللسان ويكلُّ عن تفصيله البيان.

ونظرتُ إلى موسمها يوماً ـ في الموضع المعروف بالباطن ـ فرأيت موسم

١. لقد ذكر أحد المؤلّفين العثمانيين في كتابه تاريخ بغداد، ص ١٥٢؛ بداية العلاقة بين محمّد بن عبد الوهّاب وآل سعود بصورة أُخرى، ولكن الظاهر صحّة القول الّذي ذكرناه في المتن.

الرجال في جانب، وموسم النساء في جانب آخر، فرأيت من الذهب والفضّة والأسلحة والإبل والغنم والخيل والألبسة الفاخرة وسائر المآكل ما لا يمكن وصفه، والموسم ممتدٌّ مدّ البصر، وكنت أسمع أصوات البائعين والمشترين وقولهم: بعت واشتريت كدويّ النحل....[1]

ولكن من أين كلّ هذه الثروات الهائلة؟!

إنّ «ابن بشر النجدي» لم يتعرّض لذكر مصدر هذه الثروات الهائلة، لكن المستفاد من التاريخ هو أنّ ابن عبد الوهّاب كان يحصل عليها من خلال الهجمات التي كان يشنّها ـ مع أتباعه ـ على القبائل والمدن التي ترفض الانجراف إليه، وكان يسلب أموالها وينهب ثرواتها ويوزّعها على أهل الدرعيّة.

وكان محمّد بن عبد الوهّاب ينتهج أُسلوباً خاصّاً في تقسيم الغنائم ـ المسلوبة من المسلمين الرافضين للانحراف ـ فقد كان يتصرّف فيها حسب رغبته الشخصيّة، فمرّة كان يُقسّمها ـ رغم كثرتها ـ بين اثنين أو ثلاثة من أتباعه، وكان أمير نجد يأخذ نصيبه من الغنائم، بموافقة ابن عبد الوهّاب نفسه.

ومن أهمّ نقاط الانحراف في ابن عبد الوهّاب هو هذه المعاملة السيّئة مع المسلمين الذين ما كانوا يخضعون لأهوائه وآرائه، فقد كان يُعاملهم معاملة الكافر المحارب، يُبيح أموالهم وأعراضهم.

وخلاصة القول: إنّ محمّد بن عبد الوهّاب كان يدعو إلى التوحيد، ولكن لتوحيد خاطئ من صُنع نفسه، لا التوحيد الّذي يُنادي به القرآن الكريم، فمن خضع له ولـ«توحيده» سلمت نفسه وأمواله، ومن أبى فهو كافر حربي، ودمه وماله هدر!!

١. تاريخ نجد: ١١٧ـ ١١٨.

وعلى هذا الأساس كان الوهّابيّون يشنّون المعارك في نجد وخارجها ـ كاليمن والحجاز ونواحي سوريا والعراق ـ وكانوا يبيحون التصرّف با لمدن ـ التي يسيطرون عليها ـ كيفما يشاءُون، فإن أمكنهم ضمّ تلك الأراضي إلى ممتلكاتهم وعقاراتهم فعلوا ذلك، و إلاّ اكتفوا بنهب الغنائم منها.(١)

وكان قد أمر كلّ من ينخدع بدعوته أن يتقدّم إليه بالبيعة، ومن رفض البيعة وجب قتله وتوزيع أمواله!!

ولهذا عندما رفض أهالي قرية الفصول ـ من ضواحي الأحساء ـ بيعة هذا الرجل الشاذ هجم عليهم وقتل ثلاثمائة رجل ونهب أموالهم وثرواتهم.(٢)

وأخيراً... مات محمّد بن عبد الوهّاب عام ١٢٠٦ هـ(٣)، ولكنّ أتباعه واصلوا طريقه وأحيوا بدعه وضلاله.

ففي عام ١٢١٦ هـ أعدَّ الأمير سعود ـ الوهّابي ـ جيشاً ضخماً يتألّف من عشرين ألفاً وشنّوا هجوماً عنيفاً على مدينة كربلاء المقدّسة بالعراق. وكانت كربلاء ـ ولا زالت ـ مدينة مقدسة، تتمتّع بشهرة بالغة ومحبّة في قلوب المؤمنين ويقصدها الزوّار ـ بمختلف جنسيّاتهم من إيرانيين وأتراك وعرب وغيرهم ـ فحاصر الجيش الوهّابي هذه المدينة المقدّسة ثمّ اقتحمها ودخلها وأكثر فيها القتل والنهب والخراب والفساد.

وقد ارتكب الوهّابيّون ـ في مدينة كربلاء المقدّسة ـ جرائم وفجائع لا يمكن وصفها ، فقد قتلوا خمسة آلاف مسلم أو أكثر.

---

١. جزيرة العرب في القرن العشرين: ٣٤١.

٢. تاريخ المملكة العربية السعودية: ١/ ٥١.

٣. الأقوال متعدّدة في سنة ولادة محمّد بن عبد الوهّاب ومماته.

وعندما انتهى الأمير سعود من العمليات الحربية هناك، عمد إلى خزانة حرم الإمام الحسين بن علي عليه السلام والتي كانت مليئة بالذخائر النفيسة والهدايا القيّمة التي أهداها الملوك والأُمراء وغيرهم إلى الروضة المقدّسة فابتزّها نهباً.

وبعد هذه الفاجعة الأليمة اتّخذت مدينة كربلاء لنفسها طابع الحزن والكآبة، حتى نظم الشعراء قصائد في رثائها.(١)

وكان الوهّابيّون يشنّون بين فترة وأُخرى ـ و خلال مدّة تتراوح بين اثني عشر عاماً ـ هجماتهم وغاراتهم الحاقدة على كربلاء المقدّسة وضواحيها، وعلى مدينة النجف الأشرف، ويعودون ناهبين سارقين، وكانت البداية هي الهجوم على مدينة كربلاء عام ١٢١٦هـ، كما سبقت الإشارة إليه.

وقد اتفقت كلمات المؤلّفين من الشيعة على أنّ ذلك الهجوم كان في يوم عيد الغدير المجيد، ذكرى تعيين النبي صلى الله عليه وآله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة له من بعده.(٢)

يقول العلّامة المرحوم السيد محمّد جواد العاملي(٣):

«وقد منّ الله سبحانه بفضله وإحسانه وببركة محمّد وآله ـ صلّى الله عليهم أجمعين ـ لإتمام هذا الجزء من كتاب «مفتاح الكرامة»، بعد انتصاف الليل من الليل التاسعة من شهر رمضان المبارك سنة ١٢٢٥هـ على يد مصنّفه... وكان مع تشويش البال واختلال الحال وقد أحاطت الأعراب ـ من عُنيزة القائلين بمقالة الوهّابيّ الخارجي ـ بالنجف الأشرف ومشهد الإمام الحسين عليه السلام وقد قطعوا

---

١. تاريخ كربلاء للدكتور عبد الجواد الكليدار.
٢. لمزيد من المعلومات عن عيد الغدير المجيد راجع الجزء الأوّل من الغدير للشيخ الأميني.
٣. في كتابه الفقهي القيّم مفتاح الكرامة: ٧/ ٦٥٣.

الطّرق ونهبوا زوّار الحسين عليه السلام بعد منصرفهم من زيارة نصف شعبان، وقتلوا منهم جماعة غفيرة، وأكثر القتلى من العجم، وربّما قيل بأنّهم مائة وخمسون وقيل أقل...».

نعم، إنّ التوحيد الّذي كان يدعو إليه محمّد بن عبد الوهّاب وجماعته ـ وكانوا يبيحون دماء وأموال من يرفض دعوتهم ـ هو القول بأنّ الله على العرش، يقول في الرسالة الحموية: إنّ الله سبحانه و تعالى فوق كلّ شيء، وعلى كلّ شيء، وإنّه فوق السماء.

ثمّ يستدلّ على أنّه فوق السماء بقصة معراج الرسول إلى ربّه ونزول الملائكة من عند الله وصعودهم إليه، إلى غير ذلك من الروايات.

ويستشهد بشعر عبد الله بن رواحة الّذي أنشده للنبي ـ حسب زعمه ـ :

شهدت بأنّ وعد الله حق ... وانّ النار مثوى الكافرينا
وانّ العرش فوق الماء طافٍ ... وفوق العرش رب العالمينا

إلى أمثال هذه الروايات التي استنتج منها أنّه سبحانه على العرش وله جهة.[1]

ونحن نقتصر على ذلك فمن حاول أن يقف على التوحيد الّذي دعا إليه فليرجع إلى كتاب «بحوث في الملل والنحل» الجزء الرابع، ولكن نقتصر في المقام بما ذكره ابن بطوطة في رحلته، يقول: حضرت يوم الجمعة بدمشق المسجد الّذي يخطب فيه على منبر الجامع أحمد بن تيمية، فكان من جملة كلامه: انّ الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكي يعرف

١. الرسالة الحموية الكبرى: الرسالة ١١ من مجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية: ٤٢٩ـ ٤٣٢.

بابن الزهراء، وأنكر ما تكلّم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه، وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً.(١)

ويظهر من كتاب «الردّ على الأخنائي» لابن تيمية أنّه كان يعتبر الأحاديث المرويّة في فضل زيارة رسول الله ﷺ أحاديث موضوعة، ويصرّح بأنّ من يعتقد بحياة رسول الله بعد وفاته، كحياته زمن حياته فقد ارتكب خطأً كبيراً.

وهذا ما يعتقده محمّد بن عبد الوهّاب وأتباعه، وقد زادوا على ابن تيمية في الانحراف والباطل.

لقد أدّت معتقدات الوهّابيّين الباطلة إلى أن يعتبر بعض الباحثين حول الإسلام ــ ممّن نظروا في كُتبهم وتعرّفوا على الإسلام من مطبوعاتهم ـ أن يعتبروا الإسلام ديناً جامداً محدوداً لا يُنتفع به في كلّ العصور والأزمان.

يقول«لو تروب ستو دارد» الأمريكي:

«...وقام على أثرذلك عدد من النقدة، اتّخذوا الوهّابية دليلاً لكلامهم وقالوا: إنّ الإسلام ــ بجوهره وطبائعه ـ غير قابل للتكيّف على حسب مقتضيات العصور ومُماشاة أحوال الترقّي والتبدّل، وليس إلفاً لتطوّرات الأزمنة وتغيّرات الأيام...».(٢)

ومن الجدير بالذكر أنّ علماء المذهب الحنبلي ثاروا ضدّ محمّد بن عبد الوهّاب وحكموا بانحرافه وبطلان عقائده منذ البداية.

وأوّل من تصدّى له وأعلن الحرب عليه هو أبوه الشيخ عبد الوهّاب، ثمّ أخوه الشيخ سليمان وكلاهما من علماء الحنابلة.

---

١. ابن بطوطة، الرحلة: ٩٥ـ٩٦، طبع دار صادر.
٢. حاضر العالَم الإسلامي: ١/ ٢٦٤.

وقد كتب الشيخ سليمان كتاباً بعنوان:«الصواعق الإلهية في الردّ على الوهّابيّة» ردّ فيه على أباطيل أخيه وخزعبلاته.

يقول زيني دحلان ـ ما معناه ـ:

«... وكان عبد الوهّاب ـ والد الشيخ محمّد ـ رجلاً صالحاً من أهل العلم، وكان الشيخ سليمان ـ أخو محمّد ــ من أهل العلم أيضاً، وبما أنّ الشيخ عبد الوهّاب والشيخ سليمان كانا من بداية الأمر ــ أي من يوم كان محمّد يواصل دراسته في المدينة المنورة ــ على علم بأفكار محمّد الشاذّة، لذلك كانا يلومانه على أقواله ويُحذّران الناس منه...».[١]

ويقول عبّاس محمود العقّاد المصري:«... وأكبر من خالف الشيخ في ذلك أخوه الشيخ سليمان ـ صاحب كتاب الصواعق الإلهية ـ وهو لا يُسلّم لأخيه بمنزلة الاجتهاد والاستقلال بفهم الكتاب والسنّة...».[٢]

ويرى الشيخ سليمان أنّ البدع التي يمرّ بها الأئمّة ـ جيلاً بعد جيل ـ و لا يُكفّرون أصحابها، لا يكون الكفر فيها من اللزوم الّذي يوجب القطع به ويُستباح من أجله القتال، ويقول الشيخ سليمان في ذلك: إنّ هذه الأُمور حدثت من قبل زمن الإمام أحمد بن حنبل في زمان أئمّة الإسلام وأنكرها من أنكرها منهم، ولا زالت حتى ملأت بلاد الإسلام كلّها، وفُعلت هذه الأفاعيل كلّها الّتي تُكفِّرون بها،

١. الفتوحات الإسلامية: ٢/ ٣٥٧.

٢. هذه الجملة تستدعي التوقّف والتأمّل، فمحمّد بن عبد الوهّاب كان يدّعي بلوغه درجة الاجتهاد والاستقلال بفهم الكتاب والسنّة، ولكن أخاه الشيخ سليمان كان يردّ عليه هذا الادّعاء ويعتبره دون منزلة الاجتهاد والاستقلال بالرأي ـ وأهل البيت أدرى بما فيه ـ إذن: آراء محمّد بن عبد الوهّاب وأفكاره كلها باطلة وخاطئة ـ بشهادة أخيه الشيخ ـ لأنّها نابعة من علم ناقص وفكر هابط.

ولم يُروَ عن أحد من أئمّة المسلمين أنهّم كفّروا بذلك، ولا قالوا هؤلاء مرتدّون، ولا أمروا بجهادهم، ولا سمّوا بلاد المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم، بل كفّرتم من لم يُكفّر بهذه الأفاعيل وإن لم يفعلها...».(١)

هذا... وقد سبق أنّ محمّد بن عبد الوهّاب ليس أوّل مبتدع في آرائه وأفكاره، بل سبقه إلى ذلك ــ بقرون عديدة ـ ابن تيميّة الحرّاني وتلميذه ابن القيّم الجوزيّة وأمثالهما، إلاّ أنّ أفكارهم لم تتّخذ لنفسها طابع المذهب كما أحدث ذلك ابن عبد الوهّاب.

الردود على قائد الوهابيين

ونظراً لمّا كان لابن تيميّة ـ باذر بذور النفاق ـ من آراء سقيمة وأفكار باطلة فقد تصدى علماء عصره لنقد آرائه والحكم بانحرافه وخاصّة بعدما كتب عقائده الباطلة ونشرها بين الناس.

وقد تلخّصت الحرب الدينية ضدّ ابن تيميّة في نقطتين:

الأُولى: تأليف الكتب وكتابة الردود على أفكاره الباطلة، وتزييفها على ضوء القرآن والسنّة الشريفة.

وكنموذج من ذلك نُشير إلى بعض ما صدر ضدّه من الكتب:

١. شفاء السقام في زيارة قبر الإمام: بقلم تقيّ الدين السبكي.

٢. الدرّة المضيئة في الردّ على ابن تيميّة: بقلم المؤلّف السابق.

٣. المقالة المرضيّة: تأليف قاضي قضاة المالكيّة تقيّ الدين أبي عبد الله الأخنائي.

---

١. الإسلام في القرن العشرين حاضره و مستقبله:١٠٨ـ١٠٩، طبعة نهضة مصر.

٤. نجم المهتدي ورجم المقتدي: بقلم فخر بن محمّد القرشي.

٥. دفع الشبهة: بقلم تقيّ الدين الحصني.

٦. التحفة المختارة في الردّ على منكر الزيارة: بقلم تاج الدين.

هذه بعض الردود التي كُتبت ضدّ عقائد ابن تيميّة وآرائه السقيمة، وكشفتْ عن سفاهتها وقشريَّتها.

الثانية: هجوم العلماء والفقهاء عليه، وإصدار الحكم والفتوى بفسقه تارةً وبكفره تارةً أُخرى، والتحذير من البدع التي أحدثها في الدين الحنيف.

ومنهم قاضي القضاة في مصر «البدر بن جماعة» فقد كتبوا إليه رأي ابن تيميّة في زيارة النبي ﷺ فكتب قاضي القضاة:

«إنّ زيارة النبي ﷺ سنّة مستحبّة، وقد اتّفق العلماء على ذلك، وكلّ من يرى حرمة زيارته فيجب على العلماء زجره ونهيه عن مثل هذه الآراء، فإن لم يردعه ذلك لزم حبسه وفضحه بين الناس حتى لا يقتدوا به».

وليس هذا القاضي الشافعي في مصر وحيداً في فتواه هذه، بل أصدر قضاة المالكية والحنبلية فتاوى مماثلة في تفسيق ابن تيميّة والحكم بضلاله وانحرافه.[1]

وبالإضافة إلى ذلك كلّه، فقد كتب الذهبي الّذي يُعتبر من علماء القرن الثامن الهجري، وله تأليفات قيّمة في الحديث والرجال ـ وكان معاصراً لابن تيميّة ـ كتب رسالة ودّية إليه ينهاه فيها عن منكراته، وشبّهه فيها بالحجّاج الثقفي في ضلاله وفساده.[2]

---

١. للتفصيل راجع كتاب «دفع الشبهة» تأليف تقي الدين الحصني.

٢. وقد نُشرت هذه الرسالة في كتاب تكملة السيف الصقيل ص ١٩٠، كما نشر نصّها الشيخ الأميني في كتاب الغدير: ٥/ ٨٧ـ ٨٩، فراجع.

إلى أن أهلك الله ابن تيمية في عام ٧٢٨هـ في سجن الشام، فحاول تلميذه ابن القيّم أن يواصل نهج أُستاذه، لكنّه لم يفلح في ذلك، فماتت أفكار ابن تيميّة بموته، وفنيت بفنائه، وزالت بزواله، واستراح المؤمنون من بدعه وضلالاته.

إلى أن ألقى الشيطان حبائله من جديد، فجاء محمّد بن عبد الوهّاب حاملاً أفكار ابن تيميّة البائدة واتّفق مع آل سعود ليقوم كلّ منهما بتأييد الآخر، هذا في الحكم وذاك في التشريع، فعاد الضلال ينشر خيوطه في «نجد» وانتشرت الوهابيّة في بلاد نجد انتشار السرطان الأثيم في الجسم، فانخدع جمعٌ من الناس، وتحزَّبوا ـ و مع كلّ أسف ـ باسم التوحيد للقضاء على أهل التوحيد، وأراقوا دماء المسلمين باسم الجهاد مع المشركين، وراح الأُلوف من الناس ـ رجالاً ونساءً وصغاراً وكباراً ـ ضحيّة لهذه البِدع والأباطيل، وتوسّعت شُقّة الخلاف بين المسلمين، وأُضيف على مذاهبهم المتعدّدة، مذهب جديد.

وقد بلغت المصيبة ذروتها عندما سقط الحَرَمان الشريفان ـ مكّة والمدينة ـ في قبضة هذه الزمرة المنحرفة، وعمد النجديّون الوهّابيّون ـ و بالتعاون مع بريطانيا الحاقدة التي كانت تهدف تقسيم الدولة الإسلامية إلى دويلات صغيرة تحدُّها الحدود الجغرافية ـ عمدوا إلى محو الآثار الإسلامية في مكّة والمدينة، وهدم قبور أولياء الله وهتك حرمة آل رسول الله، وغير ذلك من الجرائم والمنكرات التي يهتزّ لها ضمير المسلم.

يقول بعض المؤرّخين:

«بادر الوهّابيّون ـ لمّا استولوا على مكّة ـ بالمساحي فهدموا ـ أوّلاً ـ ما في «المعلّى» مقابر قريش ـ من القباب، وهي كثيرة، منها قُبّة سيّدنا عبد المطّلب جدّ النبيّ ﷺ وقُبّة سيّدنا أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ وقبّة السيدة خديجة ـ رضوان

الله عليها ـ كما هدموا قبّة مولد النبي ﷺ ومولد أبي بكر، ومولد الإمام علي ﷺ، وهدموا قبة زمزم والقباب التي حول الكعبة، وتتبّعوا جميع المواضع التي فيها آثار الصالحين فهدموها، وكانوا ـ عند الهدم ـ يرتجزون ويضربون بالطبول ويُغنّون ويبالغون في شتم القبور.. حتى قيل إنّ بعضهم بال على قبر السيّد المحجوب!!...»(١)

قال العلاّمة السيد صدر الدين الصدر ـ المغفور له ـ:

لعمري إنّ فاجعة البقيع يُشيبُ لهولها فؤود الرضيع
وسوف تكون فاتحة الرزايا إذا لم يُصح من هذا الهجوع
أما من مسلم لله يرعى حقوق نبيّه الهادي الشفيع

وقال آخر:

تبّاً لأحفاد اليهود بما جَنَوا لم يكسبوا من ذاك إلاّ العارا
هتكوا حريم محمّدٍ في آله يا ويلهم قد خالفوا الجبّارا
هدموا قبور الصالحين بحقدهم بُعداً لهم قد أغضبوا المختارا

وانطلاقاً من قول النبي ﷺ:

«إذا ظهرت البِدَع فعلى العالم أن يُظهر علمه، وإلاّ فعليه لعنة الله».

فقد تصدّىٰ علماء الشيعة ـ وعلماء السنّة أيضاً كما ذكرنا ـ لهذا الغزو الوهّابي الحاقد، وكتبوا الكتب ونشروا المنشورات، في فضح هذا الرجل ـ الّذي جاء يُحقق أهداف بريطانيا في ثوب جديد ـ وكشف القناع عن حقيقته والردّ على آرائه الشاذّة.

١. كشف الارتياب: ٢٢ نقلاً عن تاريخ الجبرتي.

وأوّل كتاب صدر في الردّ على ابن عبد الوهّاب هو كتاب «الصواعق الإلهية في الردّ على الوهّابيّة» بقلم أخيه الشيخ سليمان.

كما أنّ أوّل كتاب صدر ضدّه من علماء الشيعة هو كتاب «منهج الرشاد» للشيخ الكبير المرحوم الشيخ جعفر كاشف الغطاء (المتوفّى سنة ١٢٢٨هـ) وقد كتب كتابه هذا جواباً على رسالة بعثها إليه الأمير عبد العزيز بن سعود ـ أحد الأُمراء السعوديّين في وقته ـ وقد زيّف في كتابه أفكار محمّد بن عبد الوهّاب وأثبت بطلانها على ضوء القرآن والسنّة. وقد طبع الكتاب في عام ١٣٤٣هـ في النجف الأشرف في العراق.

ثمّ تتابع الردّ والنقد في ظروف مختلفة، وصدرت الكتب تترى واحدة تلو الأُخرى، حتّى زماننا هذا.

وفي عصرنا الحاضر صعّد الوهّابيّون حملاتهم المسعورة ضدّ مخالفيهم من المسلمين، بفضل الثروة الطائلة التي يجنيها آل سعود من أرباح البترول العائدة إليهم فقط.

لقد خصّصت السلطة السعودية جزءاً كبيراً من أرباح البترول لترويج هذا المذهب المفرِّق ونشره بين المسلمين، ولولا هذه الأموال الطائلة لما عاش هذا المذهب الواهي إلى هذا الوقت. لقد وجد الاستعمار ضالّته في هذا المذهب، واتّخذه خير وسيلة لإلقاء التفرقة بين المسلمين وتشتيت صفوفهم، وضرب بعضهم البعض.

وقد حقّق هذا المذهب أهداف الاستعمار الغاشم الأثيم، فتراه قد أوجد الفتنة بين المسلمين، هذا يُفسّق ذاك وذاك يُكفّر هذا... ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

أيّها القارئ الكريم: لقد قرّرنا ـ في هذا الكتاب ـ أن نطرح عقائد الوهّابيّين على بساط البحث والتحقيق، ونرفع الستار عن حقيقتها، حتّى يثبت لك أنّ عقائد المسلمين مستندة إلى القرآن والسّنّة المطهّرة، وأنّ عقائد الوهّابيّين مخالفة للقرآن وسنّة رسول الله ﷺ، وقد انتهجنا أُسلوب الإيجاز والاختصار.


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الفصل الثاني

الوهّابيّون وبناء قبور الأولياء

تُعتبر مسألة بناء القبور وتشييد مراقد الأنبياء وأولياء الله الصالحين من المسائل الحسّاسة عند الوهّابيّين، وقد كان ابن تيميّة ـ وتلميذه ابن القيّم ـ أوّل من أفتى بحرمة بنائها ووجوب هدمها.

يقول ابن القيّم:

يجب هدم المشاهد الّتي بُنيتْ على القبور، ولا يجوز إبقاؤها ـ بعد القدرة على هدمها و إبطالها ـ يوماً واحداً.[1]

وفي عام (١٣٤٤هـ) بعدما استولىٰ آل سعود على مكّة المكرمة والمدينة المنوّرة وضواحيها، بدأوا يبحثون عن دليل يبرّر لهم هدم المراقد المقدّسة في البقيع ومحو آثار أهل البيت عليهم السلام والصحابة، فلجأوا إلى الاستفتاء من علماء المدينة المنوّرة حول حرمة البناء على القبور، محاولة منهم لتبرير موقفهم أمام الرأي العامّ الإسلامي ـ و خاصّة في الحجاز ـ لأنّهم كانوا يُدركون جيّداً أنّ المسلمين في الحجاز هم كالمسلمين في كلّ مكان، يعتقدون بكرامة أولياء الله وقدسيّتهم وجواز البناء على قبورهم، فحاول الوهّابيّون أن يُلبسوا جريمتهم هذه بلباس الإسلام، دفعاً لنقمة المسلمين! سبحان الله!!

---

١. زاد المعاد في هدي خير العباد: ٦٦١.

أرسلت السلطات السعودية قاضي القضاة في نجد ـ واسمه: سليمان بن بليهد ـ إلى المدينة المنوّرة للاستفتاء من علمائها حول بناء مراقد أولياء الله، ولكن الجدير بالذكر هو أنّ الأسئلة التي طرحها ابن بليهد كانت تحمل في ثناياها الأجوبة المطابقة لآراء الوهّابيّين أنفسهم، وما كان من العلماء إلاّ الإجابة بمثل ما هو مذكور في الاستفتاء نفسه، وكانوا يعرفون ـ مسبقاً ـ أنّ الإفتاء على خلاف آرائهم يُعرِّضهم للتهمة بالكفر والشرك، ومن ثم يحكمون عليهم بالقتل إن رفضوا التوبة!!

وقد نشرت جريدة «أُمّ القرىٰ» الصادرة في مكّة ـ في شوال ١٣٤٤هـ ـ تلك الأسئلة والأجوبة، وقد أثارت ضجّة كبرى بين المسلمين ـ الشيعة والسنّة معاً ـ لأنّهم كانوا يعلمون أنّ وراء هذا الاستفتاء ـ الّذي قد صدر تحت وطأة التهديد والترهيب ـ هو البدء بهدم القباب والبناء المشيَّد على قبور قادة الإسلام وعظماء المسلمين.

وهذا ما حصل بالفعل، فبعد ما صدرت تلك الفتوى من خمسة عشر عالماً من علماء المدينة، وانتشرت في الحجاز، بدأت السُّلطة الوهابية الحاقدة بهدم قبور آل رسول الله ﷺ في الثامن من شوال ذلك العام، وقضت على آثار أهل البيت عليهم السلام والصحابة، ونهبت كلّ ما كان في ذلك الحرم المقدّس من فُرش وهدايا ثمينة وغيرها، وحوّلت تلك الزمرة الوحشيّة البقيع المقدّس إلى أرض قفراء موحشة.(١)

١. يقول المؤرّخ الجليل الشيخ آغا بزرگ الطهراني في كتاب الذريعة:٨/ ٢٦١: لقد سيطر الوهّابيّون على الحجاز في سنة ١٣٤٣هـ وفي الثامن من شهر شوال من نفس العام هدموا قبور الأئمّة الطاهرين عليهم السلام والصحابة في البقيع. انتهى كلامه.
أقول: إنّ جريدة «أُمّ القرى» نشرت نصّ الاستفتاء وجوابه في تاريخ ١٧ شوال سنة ١٣٤٤هـ ⇐

وفيما يلي نذكر جانباً من الاستفتاء، لتعرف كيف ضمّن السائل الجواب في سؤاله، وأنّ الهدف لم يكن السؤال والاستفتاء، بل كان للحصول على مستمسك لتضليل الرأي العام وتدمير آثار النبوّة والرسالة. ولو كان الهدف هو الاستفتاء الحقيقي ومعرفة رأي الإسلام في ذلك، فما معنى إدخال الجواب في مضمون الاستفتاء؟! بل إنّنا نظن أنّ الاستفتاء والجواب كانا قد أُعدّا مسبقاً في ورقة خاصّة، ثمّ أُرسلت تلك الورقة إلى علماء المدينة للتوقيع عليها فقط، وإلاّ فليس من المعقول أن يُغيّر علماء المدينة وجهة نظرهم فجأة، ويُصدروا الفتوى بتحريم البناء على القبور ووجوب هدمها، مع العلم أنّهم كانوا وآباؤهم ــ طوال سنوات عديدة ــ من الدّاعين إلى حفظ الآثار النبويّة، وكانوا يزورون تلك المشاهد المقدّسة.

يقول ابن بليهد في سؤاله:

«ما قول علماء المدينة المنوَّرة ــ زادهم الله فهماً وعلماً ـ في البناء على القبور واتّخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟

وإذا كان غير جائز بل ممنوع منهيٌّ عنه نهياً شديداً، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا؟

وإذا كان البناء في مَسبلة[1] كالبقيع وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليه، فهل هو غصب يجب رفعه، لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا؟

⇐ وحدّدتْ تاريخ صدور الفتوى من علماء المدينة بـ ٢٥ رمضان، لهذا ينبغي القول انّ احتلال المدينة وهدم قبور أولياء الله حدثا معاً في سنة ١٣٤٤هـ ويعتقد المرحوم السيد محسن الأمين أنّ الاحتلال الكامل والهدم قد وقعا في عام ١٣٤٤هـ. راجع كتاب كشف الارتياب: ٥٦ ـ ٦٠.

١. مَسْبلة: موقوفة في سبيل الله تعالى.

وتحت التهديد والتخويف، يجيب علماء المدينة على سؤال «الشيخ» بما يلي:

«أمّا البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً، لصحّة الأحاديث الواردة في منعه، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه، مستندين بحديث علي ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال لأبي الهيّاج: ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله، أن لا تدع تمثالاً إلاّ طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلاّ سوّيته».

ويقول الشيخ النجدي في مقال نشرته جريدة «أُمّ القرىٰ» في عددها الصادر في شهر جمادى الثانية سنة ١٣٤٥ هـ:

«إنّ بناء القباب على مراقد الأولياء صار متداولاً منذ القرن الخامس الهجري».

نعم، هذه نماذج من أقوال الوهّابيّين حول بناء القبور، وترى أنّ عمدة استدلالهم ـ في كتبهم ومؤلّفاتهم ـ على الحرمة تعتمد على أمرين:

١. إجماع علماء الإسلام على التحريم.

٢. حديث أبي الهيّاج عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وما شابه ذلك.

نحن الآن نتحدّث فقط عن مسألة البناء على القبور وإقامة الظلال والسُّقف والأبنية عليها.

أمّا مسألة زيارة القبور فهو موضوع مستقلّ سوف نتحدّث عنه في فصل خاصّ إن شاء الله تعالى.

بالنسبة إلى المسألة الأُولى فالحديث عنها في ثلاث نقاط:

١. ما رأي القرآن الكريم تجاه البناء على القبور، وهل نجد في القرآن بياناً لهذه المسألة؟

٢. هل صحيح أنّ الأُمّة الإسلامية متّفقة على حرمة البناء على القبور؟ أم



أنّ البناء كان متداولاً في كلّ العهود الإسلامية، بدءاً بزمن النبي ﷺ والصحابة؟

٣. ماذا يعني حديث أبي الهيّاج وحديث جابر وأُمّ سلمة وناعم ممّا يستغلّه الوهّابيّون للاستدلال على باطلهم؟

أ. رأي القرآن الكريم في البناء على القبور

لم يتطرّق القرآن الكريم إلى حكم البناء على القبور بصورة خاصّة، إلاّ أنّه يمكن استنباط حكمه من خلال بعض الآيات الكريمة العامّة، وإليك التفصيل:

١. البناء على قبور الأولياء تعظيمٌ للشعائر الإلهية

إنّ القرآن الحكيم يعتبر تعظيم شعائر الله سبحانه دليلاً على تقوى القلوب، فيقول عزّ وجلّ:

﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعٰائِرَ الله فَإِنَّهٰا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.[1]

ونتساءل: ما معنى تعظيم شعائر الله؟

الجواب: إنّ «شعائر» كلمة جمع، ومفردها«شعيرة» وهي بمعنى الدليل والعلامة.

وليس المقصود من «شعائر» ـ في هذه الآية ـ العلائم الّتي تُثبت وجود الله تعالى، ذلك لأنّ الكون كلّه دليل على وجوده سبحانه. يقول الشاعر:

وفي كلّ شيء له آيةٌ تدلُّ على أنّه واحدٌ

كما أنّه ليس هناك من يقول: إنّ تعظيم كلّ ما هو موجود في الكون دليل

١. الحج:٣٢.

على التقوى، وإنّما المقصود هو تعظيم شعائر دين الله، ولهذا يقول المفسّرون ـ في هذه الآية ـ : إنّ كلمة «شعائر الله» معناها معالم دين الله.[١]

وإذا كان «الصفا والمروة» وكذلك البعير الّذي يُساق إلى منى للنحر من شعائر الله[٢] فإنّما هو بسبب كونها من معالم الدين الحنيف وإذا كانت «المزدلفة» تُسمّى بـ«المشعر» فإنّما هو بسبب كونها من علامات دين الله تعالى، وأنّ الوقوف في المشعر دليل على طاعة الله سبحانه.

وإذا كانت «مناسك الحجّ» تسمّى بالشعائر فإنّما هي لكونها علامات للتوحيد والدين الحنيف.

وخلاصة القول: إنّ كلّ ما هو شعيرة لدين الله فإنّ تعظيمه ممّا يُقرّب إلى الله تعالى.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الأنبياء وأولياء الله تعالى هم من أكبر وأبرز علامات دين الله، إذ أنّهم كانوا خير وسيلة لإبلاغ رسالة الله ونشره بين الناس.

إنّ من الثابت لدى كلّ منصف أنّ وجود النبي والأئمّة الطاهرين عليهم السلام هو من علامات الإسلام وشعائر هذا الدين المقدّس، فتعظيمهم تعظيم لله وعلامة على تقوى القلوب.

ولا شكّ أنّ صيانة آثارهم والمحافظة على قبورهم من المحو والزوال إنّما هي نوع من تعظيم شعائر دين الله سبحانه.

وبعبارة أُخرى: نستطيع أن نُدرك ضرورة تعظيم قبور أولياء الله من خلال هاتين النقطتين:

---

١. تفسير مجمع البيان: ٤/ ٨٣، طبعة صيدا، وغيره.

٢. ألف: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾ (البقرة:١٥٨).

ب: قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾ (الحج:٣٦).

الف: إنّ أولياء الله ـ وخاصّة أُولئك الذين ضحّوا من أجل الدين ونشره ـ هم من شعائر الله وعلائم دينه.

ب: إنّ بناء قبورهم ـ بالإضافة إلى تخليد ذكرياتهم والسير على نهجهم السديد ـ هو نوع من تعظيمهم واحترامهم.

وعلى هذا الأساس فإنّنا نرى كافّة الشعوب والأُمم في العالَم تُخصّص مناطق خاصّة لمثوى شخصيّاتهم السياسية والدينية، كي تبقى رمزاً خالداً لأتباعهم إلى الأبد، فكأنّ حفظ مراقدهم من المحو والاندراس يؤدّي إلى خلود ذكراهم وإحياء أفكارهم ومناهجهم.

ولكي نعرف هذه الحقيقة جيّداً، لابدّ من أن نتأمّل الآية السادسة والثلاثين من سورة الحج:

﴿**وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ**﴾.

إنّ بعض حجّاج بيت الله الحرام كانوا يسوقون معهم بعيراً من بلادهم ﴿**هَدْياً بالِغَ الْكَعبَة**﴾ كي يُنحر بجوار بيت الله، وكانوا يتركون على عنقه قلادة ـ أو غيرها ـ كناية عن أنّه يُساق للنحر في مكّة، فهو لله تعالى لا يُباع ولا يُشترىٰ، فكان يتميّز بهذه القلادة عن بقية الإبل.

لهذا السبب اعتبره الله تعالى «من شعائر الله» ولهذا حكم الإسلام باحترام هذا الهَدي، فلا يجوز ركوبه ـ مثلاً ـ ويجب توفير المأكل والمشرب له حتّى ساعة الذبح بجوار الكعبة.

فإذا كان هذا البعير يكتسب هذا الاحترام والإكرام، فقط لكونه صار من شعائر الله تعالى، فما تقول في الأنبياء والأئمّة الطاهرين؟!

ألا يُعتبر الأنبياء والأئمّة الطاهرون عليهم السلام والعلماء والشهداء ـ الذين ألبسوا

أنفسهم قلادة العبودية لله منذ البداية ونذروا أنفسهم لخدمة دين الله وقاموا بدَور الوسيط بين الله وخلقه في هدايتهم وإرشادهم ـ ألا يُعتبرون من شعائر الله؟!

ألا يجب تعظيمهم واحترامهم، في حياتهم وبعد مماتهم، التعظيم اللائق بهم؟!

إذا كانت الكعبة والصفا والمروة ومنىٰ وعرفات ـ و ما هي إلّا جمادات مركّبة من التراب والحجر ـ تُعتبر من شعائر الله وتستحقّ الاحترام والتعظيم المناسب لها بسبب ارتباطها بالله سبحانه، فلماذا لا يكون أولياء الله ـ الذين هم حُماة دين الله وناشروا أحكامه ـ وما يرتبط بهم، لماذا لا يكونوا جميعاً من شعائرالله؟!

إنّنا ندعو الوهّابيّين إلى تحكيم وجدانهم ـ في هذا المجال ـ و نطرح عليهم هذا السؤال : هل تشكّون وتتردّدون في أنّ الأنبياء والرسل هم من شعائر الله؟!

ألا يحكم الوجدان بضرورة تعظيمهم وتخليدهم والتمسُّك بمناهجهم؟!

هل أنّ البناء على قبورهم وتنظيف الساحة الّتي تضمّ مراقدهم تعظيمٌ واحترامٌ لهم، أم هدم قبورهم و إهمال الساحة المحتضنة لمراقدهم وتحويلها إلى خربة مهجورة موحشة يُعتبر تعظيماً لهم؟!

٢. حبّ النبيّ و المودّة في القربىٰ

إنّ صيانة القبور والآثار الباقية من بيت الوحي والعصمة عليهم السلام من مظاهر حب النبي صلى الله عليه وآله وتكريمه، وقد أمر المسلمون في الكتاب والسنّة بحبه وتكريمه وتبجيله، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَونَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَونَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي

﴿الْقَوْمَ الْفاسِقينَ﴾ .[١]

وقال سبحانه في وصف المؤمنين: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .[٢]

فالآية الكريمة تأمر بأُمور أربعة:

١. الإيمان به.

٢. تعزيره.

٣. نصرته.

٤. اتّباع كتابه وهو النور الذي أُنزل معه.

وليس المراد من تعزيره هو نصرته، لأنّه قد ذكره بقوله: «نصروه» وإنّما المراد توقيره، وتكريمه وتعظيمه بما انّه نبيُّ الرحمة والعظمة، ولا يختص تعزيره وتوقيره بحال حياته، كما أنّ الإيمان به والتبعية لكتابه لا يختصان بحال حياته الشريفة.

وعلى هذا فحب النبي ﷺ ومن يمت إليه بصلة أصل إسلامي يجب أن يهتم به المسلمون ويطبقونه في حياتهم.

ولأجل كرامة رسول الله ﷺ ومنزلته يدعو الذكر الحكيم إلى تعظيمه في المجالس وحفظ كرامته ويقول:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَولِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُون﴾ .[٣]

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ﴾ .[٤]

١. التوبة:٢٤.
٢. الأعراف:١٥٧.
٣. الحجرات:٢.
٤. الحجرات:٣.

وقال: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾.(١)

فأي إجلال أبلغ من هذا، وأي تقدير أروع من هذا التقدير.

وليس الذكر الحكيم وحده هو الداعي والآمر بحب الرسول ﷺ بل السنّة النبوية تضافرت على لزوم حبه.

قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين».(٢)

وقد تواتر مضمون هذه الرواية عن النبي ﷺ، فمن أراد فليرجع إلى الكتب المعدّة لهذا الغرض.(٣)

مظاهر الحب

إنّ لهذا الحب مظاهر ومجالي، إذ ليس الحب شيئاً يستقر في صقع النفس من دون أن يكون له انعكاس خارجي على أعمال الإنسان وتصرفاته، بل من خصائصه أن يظهر أثره على سلوك الإنسان وملامحه.

١. حب الله ورسوله لا ينفك عن اتّباع دينه والاستنان بسنّته والانتهاء عن نواهيه، ولا يعقل أبداً أن يكون المرء محباً لرسول الله ﷺ، ومع ذلك يخالفه فيما يبغضه ولا يرضيه. والاتّباع أحد مظاهر الحبّ قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(٤). فمن ادّعى الحب في النفس وخالف في العمل، فقد جمع بين شيئين متخالفين متضادين.

١. النور:٦٣.

٢. صحيح البخاري:١/ ٨، باب حبّ الرسول من الإيمان من كتاب الإيمان.

٣. كنز العمال:٢/ ١٢٦.

٤. آل عمران:٣١.

وقد نسب إلى الإمام الصادق عليه السلام انّه أنشد البيتين التاليين:

تعصي الإلــه وأنــت تظهــر حبّــه   هــذا لعمــري في الفعــال بــديع
لــو كــان حبك صــادقــاً لأطعتــه   انّ المحــب لمن يحب مطيــع(١)

٢. ومن مظاهر هذا الحب، صيانة آثارهم وحفظ معالمهم والعناية بكلّ ما يتصل بهم حتى الاحتفـاظ بما صلوا فيه مـن ألبسة أو شربوا منـه الماء من أوان أو استخدمـوه من أشياء، وتشييد مـراقدهـم، وتعمير قبورهم... كـلّ ذلك انعكاس طبيعي لهذا الحب الكامن في النفوس والود المتمكن في القلوب.

وليس هـذا أمراً مختصـاً بـالمسلمين، بل الأُمم المتحضّـرة المعتزّة بماضيهـا وتـاريخها، تسعـى إلى صيـانة كـلّ أثر تـاريخي بـاق من الماضي وصيـانـة مراقـد شخصياتهم العلمية.

إنّ القرآن الكريم يأمرنا ـ بكلّ صراحة ـ بالحبّ والمعاملة الحسنة مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأقربائه فيقول:

﴿قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ﴾ .(٢)

ومن الواضح لـدى كلّ من يُخاطبه الله بهذه الآية أنّ البناء على مـراقد أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم نوع من أنواع إظهار الحبّ والمودّة لهم.

وهذه العـادة مُتَّبعة عند كـافّة الشعوب والأُمم في العـالم، والجميع يعتبرون ذلك نوعاً من المودَّة لصاحب ذلك القبر، ولذلك تراهم يدفنون كبار الشخصيات السياسية والعلمية في كنائس ومقابر مشهـورة، ويزرعون أنواع الأزهار والأشجار حولها.

---

١. سفينة البحار، مادة حب.
٢. الشورى:٢٣.

٣. البناء على القبور في الأُمم السابقة

يستفاد من بعض الآيات الكريمة ـ في القرآن ـ أنّ تعظيم قبور المؤمنين كان أمراً شائعاً بين الأُمم الّتي سبقت ظهور الإسلام، فبالنسبة إلى أصحاب الكهف ـ بعد ما انتشر خبرهم بين الناس وهرعوا إلى الكهف لمشاهدتهم ـ وقع الخلاف والنزاع حول مدفنهم وانقسموا قسمين، فقال أحدهما:

﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً﴾ .

وقال الآخر:

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ .

هنا نلاحظ أنّ القرآن الكريم يذكر لنا هذين الرأيين، من دون أن ينتقدهما، وعلى هذا يمكن القول بأنّه لو كان الرأيان باطلين لانتقدهما، أو قصّ، قصّتهما بأُسلوب رافضٍ مستنكر.

ويقول المفسّرون: إنّ النزاع ـ حول مدفن أصحاب الكهف ـ إنّما وقع بين المؤمنين والكافرين، أمّا الكافرون فقالوا:

﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً﴾ .

والمؤمنون قالوا:

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ .[1]

وكانت الغلبة مع المؤمنين حيث قال سبحانه:

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ .

وبني المسجد وصارت قبور أصحاب الكهف مركزاً للتعظيم والاحترام.

---

١. الكهف: ٢١.

وهكذا يظهر لنا أنّ الهدف من البناء على قبور أصحاب الكهف إنّما كان نوعاً من التعظيم لأولياء الله الصالحين.

أيّها القارئ الكريم: بعد ما مرّ عليك من الآيات الكريمة الثلاث، لا يمكن القول بحرمة البناء على قبور أولياء الله ولا بكراهته بأيّ وجه، بل يمكن اعتباره نوعاً من تعظيم شعائر الله ومظهراً من مظاهر المودّة للقربىٰ.

٤. الإذن في ترفيع بيوتٍ خاصّة

لقد أذن الله تعالى في ترفيع البيوت الّتي يُذكَر فيها اسمه عزّ وجلّ، فقال عزّ من قائل: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالآصال* رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ...**﴾.[1]

والاستدلال بهذه الآية ـ على جواز البناء على القبور ـ يتمّ ببيان أمرين:

الأوّل: ما هو المقصود من البيوت؟

الثاني: ما هو المقصود من الرفع؟

بالنسبة إلى الأمر الأوّل: ليس المراد من البيوت هو المساجد فقط، بل المراد منها ما هو الأعمّ من المساجد والأماكن الّتي يُذكر فيها اسم الله تعالى، سواء كانت مساجد أو غير مساجد، كبيوت الأنبياء والأئمّة عليهم السلام والصالحين الذين لاتُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فهذه البيوت تُعتبر من المصاديق البارزة للآية الكريمة.

بل يمكن أن يقال: إنّ المراد من البيوت هو غير المساجد، لأنّ البيت هو البناء الّذي يتشكّل من جدران أربعة وعليها سقف قائم، وإذا كانت الكعبة يُقال

---

١. النور:٣٦ـ ٣٧.

لها: بيت الله فإنّما هو بسبب كونها مسقّفـة، والقرآن الحكيم يعتبر البيت هو المكان المسقَّف فيقول سبحانه:

﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُـونَ النّاسُ أُمَّةً واحِـدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُـرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُـوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ ... ﴾.[1]

إنّ المستفاد من هذه الآية الكريمة هو أنّ البيت لا ينفكّ عن السقف، مع العلم أنّه يستحبّ شرعـاً أن تكون المساجد غير مسقّفة. هـذا هو المسجد الحرام تراه مكشوفاً تحت السماء من دون سقف يُظلّله.

وعلى كلّ تقدير... فالمقصود من البيوت إمّا هو الأعمّ من المساجد، أو غير المساجد...

هذا بالنسبة إلى الأمر الأوّل.

وأمّا الأمر الثاني ـ وهو معنى الرفع ـ فيحتمل أمرين:

أن يكون المراد منه هو الرفع المادّي الظاهري، الّذي يتحقّق بإرساء القواعد وإقامة الجدار والبناء، كما قال سبحانه:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ ... ﴾.[2]

أو يكون المراد منه هو الرفع المعنوي، كما قال عزّ وجلّ:

﴿وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيّاً﴾.[3]

أي: منحناه مكانةً عالية.

فإن كان المراد هو المعنى الأوّل، فهو يدلّ ــ بكلّ وضوح ـ على جواز تشييد بيوت الأنبياء والأولياء وتعميرها، في حياتهم وبعـد وفاتهم، ومن المعلوم أنّ مدفن

---

١. الزخرف:٣٣.

٢. البقرة:١٢٧.

٣. مريم:٥٧.

النبي ﷺ ومدفن عدّة من الأئمّة الطاهرين والأولياء الصالحين إنّما هو في بيوتهم، فتشييد هذه البيوت وصيانتها من الخراب والاندثار عملٌ جائز بنصّ الآية الكريمة، بل هو محبوب ومرغوب فيه.

وإن كان المراد منه هو الرفع المعنوي والعظمة المعنوية، كانت النتيجة من الإذن برفعها هو الإذن بتكريمها وتبجيلها وصيانتها وتطهيرها ممّا لا يليق بشأنها.

وعلى كلّ حال، فالإذن في الرفع ــ سواء أكان ماديّاً أم معنوياً ــ إنّما جاء بسبب وجود الرجال الصالحين الذين يذكرون الله سبحانه فيه بالغدوّ والآصال.

بعد هذه الآية وآيات أُخرى مماثلة كيف يجوز للوهّابيّين أن يهدموا بيوت آل رسول الله ﷺ الّتي كانت مهبطاً لملائكة الله ومركزاً لذكر الله ونشر دينه وأحكامه؟!!

كيف يجوز لهم أن يهدموا هذه المراقد المقدّسة الّتي هي مهوى أفئدة ملايين المؤمنين، وكانوا يزورونها ـ رجالاً ونساءً، صباحاً ومساءً ـ ويذكرون الله فيها بالصلاة والدعاء والتسبيح؟!

لماذا أقدم الوهّابيّون على تحقير هذه البيوت المقدّسة وإذلالها وإهمالها، وحوّلوها إلى قفار موحشة مهجورة، يُرثى لها ويحنّ قلب كلّ مؤمن لوضعها المأساوي؟!

لماذا؟ولماذا؟

وقد روى الحافظ السيوطي عن أنس بن مالك وبريدة: أنّ رسول الله ﷺ قرأ قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرفَعَ ... ﴾ فقام إليه رجل وقال: أيّ بيوت هذه يا رسول الله؟

فقال ﷺ: بيوت الأنبياء.



فقام إليه أبو بكر وقال: يا رسول الله وهذا البيت منها؟ ـ و أشار إلى بيت عليّ وفاطمة عليها السلام ـ فقال النبي صلى الله عليه وآله: نعم، من أفاضلها.(١)

إلى هنا تمّ بيان ما هو رأي القرآن الحكيم في البناء على القبور، و إليك دراسة رأي الأُمّة الإسلامية حوله.

ب: الأُمّة الإسلامية والبناء على القبور

عندما انتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وعمّ نوره منطقة واسعة من الشرق الأوسط، كانت لقبور الأنبياء ـ الّتي كانت معروفة يومذاك ـ بناء وسقف وظلال، وكانت لبعضها قباب مشيَّدة وضرائح منضّدة، لا زال البعض منها موجوداً حتّى الآن.

وفي مكّة نفسها ترى قبر النبيّ إسماعيل وأُمّه هاجر عليهما السلام يستقرّان في الحِجر المعروف بحجر إسماعيل، كما أنّ قبر النبيّ دانيال يقع في مدينة شوش في إيران، وقبور الأنبياء هود وصالح ويونس وذي الكفل عليهم السلام في العراق، وكذلك قبر النبيّ إبراهيم وأولاده إسحاق ويعقوب ويوسف تقع في القدس المحتلّة، بعد أن كانت في مصر، فنقل النبيّ موسى ـ بأمر الله تعالى ـ أجسادهم الطاهرة إلى القدس، ولا زالت موجودة حتّى الآن ولكلٍّ منها معالم وأبنية مشيَّدة. كما أنّ قبور لفيف من الأنبياء في الأُردن وعليها بناء مشيّد.

وقبر أُمّ البشر السيدة حوّاء يقع في مدينة «جدّة» بالحجاز ـ على ما هو المشهور ـ وقد سُمّيت المدينة بـ«جدّة» نظراً إلى مثوى السيّدة حواء فيها، وقد كان

---

١. تفسير الدرّ المنثور: ٥/ ٥٠. وفي سؤال أبي بكر عن بيت عليّ وفاطمة عليهما السلام و جواب النبي صلى الله عليه وآله مجال للتأمّل و التعليق، لما كان يعلمه النبيّ بما سيتعرض له هذا البيت المقدّس بعد وفاته صلى الله عليه وآله.

لقبرها آثار مشهودة، ولمّا احتلّ الوهّابيّون الحجاز عمدوا إلى محو آثاره وطمس معالمه!

كلّ هذه المراقد والقبور كانت بمرأى من المسلمين يوم فتحوا تلك البلاد، ومع ذلك لم يصدر منهم أيّ ردّ فعل سلبي تجاهها، ولم يأمروا بهدمها وتخريبها، فلو كان البناء على القبور ودفن الموتى في مقابر مسقّفة عملاً محرّماً في الإسلام، لكان المفروض على أُولئك المسلمين أن يقوموا ـ قبل كلّ شيء ـ بهدم تلك القبور الّتي لا زالت متواجدة، في مناطق متعدّدة من القدس والأُردن والعراق، ولكانوا يمنعون من تجديد بنائها أو إعادته على مرّ العصور والأزمان، ولكنّنا نرى أنّهم لم يأمروا بهدمها فحسب، بل دأبوا على تعميرها وصيانتها طوال أربعة عشر قرناً.

لقد كانوا يدركون ـ بوحي من العقل ـ أنّ حماية آثار الأنبياء وصيانتها إنّما هي نوع من الاحترام لهم، وأنّ ذلك (تكريمهم ـ لا عبادتهم ـ) يقرّبهم إلى الله عزّوجلّ ويُنيلهم الأجر والثواب.

يقول ابن تيميّة ـ في كتابه الصراط المستقيم ـ:

«عندما تمّ فتح القدس كانت لقبور الأنبياء هناك أبنية ولكن أبوابها كانت مغلقة حتى القرن الرابع الهجري».[1]

فلو كان البناء على القبور حراماً لكان هدمه واجباً، ولم يكن هناك مبرّر لتركها على حالها مغلّقة الأبواب، بل كان الإسراع إلى هدمها واجباً، على فرض صحّة قول ابن تيميّة من إغلاق أبوابها إلى القرن الرابع.

وخلاصة القول: إنّ بقاء تلك الأبنية والقباب على القبور طوال هذه الفترة، وبمرأى علماء الإسلام وفقهائه دليل واضح على جوازها في الدين الإسلامي المقدّس.

١. كشف الارتياب: ٣٨٤.

الآثار الإسلامية دليل على أصالة الدين

ممّا لا شكّ فيه أنّ المحافظة على آثار الأنبياء ـ وخاصّة آثار النبيّ محمّد ﷺ من قبره وقبور زوجاته وأولاده وأصحابه، وكذلك بيوتهم الّتي كانوا يسكنون فيها، والمساجد الّتي كانوا يقيمون الصلاة فيها ـ لا شكّ انّ فيها نتائج محمودة وفوائد كثيرة نذكر منها ما يلي:

اليوم وبعد مضي عشرين قرناً على ميلاد السيّد المسيح عليه السلام تحوّل المسيح وأُمّه العذراء وكتابه الإنجيل وكذلك الحواريّون، تحوّلوا ـ في عالم الغرب ـ إلى أُسطورة تاريخية، وصار بعض المستشرقين يُشكّكون ـ مبدئياً ـ في وجود رجل اسمه المسيح وأُمّه مريم وكتابه الإنجيل، ويعتبرونه أُسطورة خيالية تشبه أُسطورة «مجنون ليلىٰ».

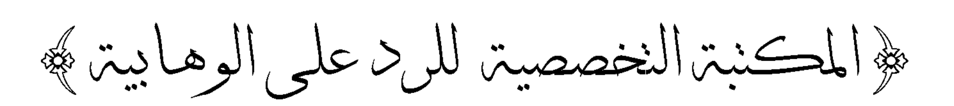
لماذا؟!

لأنّه لا يوجد أيّ أثر حقيقي وملموس للمسيح، فمثلاً لا يُدرىٰ ـ بالضبط ـ أين وُلد؟ وأين داره الّتي كان يسكنها؟ وأين دفنوه بعد وفاته ـ على زعم النصارى أنّه قُتل ـ؟

أمّا كتابه السماوي فقد امتدّت إليه يد التحريف والتغيير والتزوير، وهذه الأناجيل الأربعة لا ترتبط إليه بصلة وليست له، بل هي لـ«متّى» و «يوحنا» و«مرقس» و «لوقا» ولهذا ترى في خاتمتها قصّة قتله المزعوم ودفنه، ومن الواضح ـ كالشمس في رائعة النهار ـ أنها قد كُتبت بعد غيابه.

وعلى هذا الأساس يعتقد الكثير من الباحثين والمحقّقين أنّ هذه الأناجيل الأربعة إنّما هي من الكتب الأدبية الّتي يعود تاريخها إلى القرن الثاني من الميلاد.

فلو كانت الميزات الخاصّة بعيسى محفوظة، لكان ذلك دليلاً على حقيقة



وجوده وأصالة حياته وزعامته، وما كان هناك مجال لإثارة الشكوك والاستفهامات من قبل المستشرقين ذوي الخيالات الواهية.

أمّا المسلمون فهم يواجهون العالم مرفوعي الرأس، ويقولون: يا أيّها الناس لقد بُعث رجل من أرض الحجاز، قبل ألف وأربعمائة سنة لقيادة المجتمع البشري، وقد حقّق نجاحاً باهراً في مهمّته وهذه آثار حياته محفوظة تماماً في مكّة والمدينة، فهذه الدار التّي وُلد فيها، وهذا غار حراء مهبط الوحي والنازل عليه، وهذا هو مسجده كان يُقيم الصلاة فيه، وهذا هو البيت الّذي دُفن فيه، وهذه بيوت أولاده وزوجاته وأقربائه، وهذه قبور ذرّيته وأوصيائه عليهم السلام.

والآن، إذا قضينا على هذه الآثار فقد قضينا على معالم وجوده صلى الله عليه وآله وسلم ودلائل أصالته وحقيقته، ومهّدنا السبيل لأعداء الإسلام ليقولوا ما يريدون.

إنّ هدم آثار النبوّة وآثار أهل بيت العصمة والطهارة ليس فقط إساءة إليهم عليهم السلام وهتكاً لحرمتهم، بل هو عداء سافر مع أصالة نبوّة خاتم الأنبياء ومعالم دينه القويم.

إنّ رسالة الإسلام رسالة خالدة أبديّة، وسوف يبقى الإسلام ديناً للبشرية جمعاء حتّى يوم القيامة، ولابدّ للأجيال القادمة ـ على طول الزمن ـ أن تعترف بأصالته وتؤمن بقداسته، ولأجل تحقيق هذا الهدف يجب أن نحافظ ـ أبداً ـ على آثار صاحب الرسالة المحمّدية صلى الله عليه وآله وسلم لكي نكون قد خطونا خطوة في سبيل استمرارية هذا الدين وبقائه على مدى العصور القادمة، حتّى لا يُشكّك أحد في وجود نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم كما شكّكوا في وجود النبيّ عيسى عليه السلام.

لقد اهتمّ المسلمون اهتماماً كبيراً بشأن آثار النبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وسيره وسلوكه حتّى أنّهم سجّلوا دقائق أُموره وخصائص حياته ومميّزات شخصيته، حتّى أنّهم

سجّلوا ما يرتبط بخاتمه وحذائه وسواكه وسيفه ودرعه ورمحه وجواده وإبله وغلامه، وحتّى الآبار الّتي شرب منها الماء، والأراضي الّتي أوقفها لوجه الله سبحانه، والطعام المفضّل لديه، بل وكيفيّة مشيته وأكله وشربه، وما يرتبط بلحيته المقدّسة وخضابه لها، وغير ذلك، ولا زالت آثار البعض منها باقية إلى يومنا هذا.(١)

ومن خلال مراجعة تاريخ المسلمين وتفقّد البلاد الإسلامية الواسعة واستطلاع معالمها وآثارها يظهر لنا ـ بوضوح ـ أنّ البناء على القبور وصيانتها من الزوال والفناء كان شيئاً متداولاً عند كافّة المسلمين في أنحاء الوطن الإسلامي الكبير، ولا زالت هناك الضرائح المشيّدة على قبور الأنبياء والأولياء والرجال الصالحين، ويقصدها المسلمون بالزيارة والدعاء، وتُعتبر تلك الضرائح من الآثار التاريخية الإسلامية، وهناك الموقوفات الكثيرة الّتي تُصرف عائداتها لحفظ هذه الآثار وصيانتها ونظافة الساحات المحيطة بها، وغير ذلك.

ولقد كانت قبور أولياء الله عامرة ومشيّدة حتّى في الحجاز نفسها ـ كانت حتّى قبل فتنة الوهّابيّة واحتلالها للحرمين الشريفين وضواحيهما ـ كانت قبور أولياء الله في كافّة أرجاء الحجاز عامرة ومشيّدة، تحظى باهتمام المسلمين كافّة، ولم يكن هناك أيّ عالم ديني يستنكر بقاءها أو يعترض على بنائها وتعميرها.

وليست إيران هي البلد الوحيد الّذي تتواجد فيها الضرائح المشيّدة على قبور أولياء الله تعالى، بل إنّ ذلك موجود في البلدان الإسلامية، وخاصّة في مصر وسوريا والعراق والمغرب وتونس والأُردن، فهناك المقابر المعمورة للعلماء وكبار المسلمين، ويقوم المسلمون بزيارتها أفواجاً أفواجاً، ويبتهلون إلى الله تعالى بتلاوة

١. راجع الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٣٦٠ـ ٥٠٣ حول هذا الموضوع.

القرآن ـ وخاصّة سورة الفاتحة ـ وإهداء ثوابها إلى روح صاحب القبر الّذي جاءوا لزيارته.

كما أنّ لكلّ من هذه المراقد المشيّدة موظّفين يقومون بالخدمة والحراسة والنظافة والصيانة وغيرها.

مع كلّ ما سبق... كيف يمكن اعتبار تعمير القبور حراماً، مع أنّ العادة المتّبعة عند المسلمين منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا كانت ولا زالت جارية على ذلك، وهذا ما يُسمّيه الفقهاء والعلماء بـ«سيرة المسلمين» وهي الّتي تمتدّ جذورها إلى زمن رسول الله ﷺ أو زمن أحدٍ من الأئمّة الطاهرين من أهل البيت عليهم السلام.

إنّ هذه السيرة الحسنة تمنح المسلمين الجواز للبناء على قبور أولياء الله، وبالأحرى ترغّبهم وتشجّعهم على ذلك ولم تتعرّض هذه السيرة ـ طوال وجودها ـ لأيّ نقد أو اعتراض، وهذا يكشف عن أصالتها وصحتها عند المسلمين طوال التاريخ ـ وأنّها كانت من السُّنن المتّبعة عندهم.

وقد اعترف بهذه الأصالة أحد الكتّاب الوهّابيّين فكتب يقول:

هذا أمرٌ عمّ البلاد وطبق الأرض شرقاً وغرباً، بحيث لا بلدة من بلاد الإسلام إلاّ وفيها قبور ومشاهد، بل هذه مساجد المسلمين غالبها لا يخلو عن قبر أو مشهد، ولا يسع عقلُ عاقلٍ أنّ هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة ويسكت عليه علماء الإسلام.[1]

وبالرغم من اعتراف هذا الوهابيّ بأنّ سيرة المسلمين قائمة على إعمار قبور أولياء الله وتكريمها، فإنّه لا يكفّ عن عناده وسوء سريرته، فتراه يعتبر ذلك منكراً ويستنكر سكوت العلماء عليه، وأنّ سكوت أُولئك ـ في تلك الفترة الطويلة ـ لا

١. تطهير الاعتقاد: ٣٥ـ٣٦ بتلخيص، طبعة دار الحكمة، دمشق ـ ١٤١٥هـ.

يمنع من نهي العلماء عنه في هذه الفترة.

ولكن الردّ عليه واضح: فكيف سكت العلماء سبعة قرون ولم ينطقوا ببنت شفة؟!

فهل كان هؤلاء جميعاً ـ طوال هذه القرون ـ يسكتون على المنكر ويتحفّظون عن النهي عنه ـ على ما زعم ـ ؟!

وعندما فتح المسلمون بيت المقدس ـ في عهد عمر بن الخطاب ـ لماذا لم يأمر عمر بهدم قبور الأنبياء هناك؟! فهل تعتبرونه مسالماً للمشركين؟!

عود إلى جواب علماء المدينة

وأغرب ما في المقام هو الجواب المنسوب إلى علماء المدينة... حيث قالوا:

«أمّا البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً، لصحّة الأحاديث الواردة في منعه، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه».

كيف يصحّ دعوى الإجماع على تحريم البناء على القبور في حين أنّ المسلمين قد دفنوا رسول الله ﷺ في البيت الّذي كانت تسكنه عائشة؟ ثمّ دفنوا ـ من بعده ـ أبا بكر وعمر إلى جواره للتبرّك، وبعدها أقاموا جداراً في وسط البيت، ليصبح نصفها منزلاً للسيّدة عائشة والنصف الآخر مقبرة لرسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، وبما أنّ ارتفاع الجدار كان قليلاً فقد زيد في ارتفاعه في زمن عبد الله بن الزبير، ثمّ كان هذا البيت ـ المقبرة ـ يتجدّد أو يُعاد بناؤه بين حين وآخر على مرّ العصور والأزمان، وفقاً للفنّ المعماريّ الخاصّ بكلّ عصر، وفي عهد الأمويّين والعبّاسيّين كان البناء على القبر يحظىٰ باهتمام بالغ، وكان يتجدّد كما يقتضيه الفنّ المعماريّ الخاصّ بكلّ عصر.

وآخر بناء أُقيم على القبر الشريف ـ والّذي لا زال حتّى الآن ـ كان في عهد السلطان عبد الحميد في عام ١٢٧٠هـ واستغرق أربع سنوات، وبإمكانك ـ أيّها القارئ ـ مراجعة كتاب «وفاء الوفاء» للسمهودي ـ من صفحة ٣٨٣ إلى صفحة ٣٩٠ ـ للحصول على تفاصيل أُخرى حول ما مرّ على مرقد رسول الله ﷺ من بناء وتجديد وتعمير، طوال التاريخ الإسلامي، وحتّى عصر السمهودي، ومن بعده في الكتب الخاصة بتاريخ المدينة المنوّرة.

ج: حديث أبي الهيّاج

والآن قد حان الوقت في أن نبحث في الحديث الّذي يتمسّك به الوهّابيّون في حرمة البناء على القبور.

قبل كلّ شيء نذكر نصّ الحديث بالسّند الّذي رواه مسلم في صحيحه:

«حدّثنا يحيى بن يحيى وأبوبكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب، قال يحيى: أخبرنا ـ و قال الآخران: حدّثنا ـ وكيعٌ عن سفيان عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي وائل، عن أبي الهيّاج الأسدي قال: قال لي عليُّ بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله أن لا تدع تمثالاً إلاّ طَمسته ولا قبراً مشرفاً إلاّ سوّيته».[1]

لقد اتّخذ الوهّابيّون هذا الحديث دليلاً على حرمة البناء على القبور، من دون أيّ تحقيق في رجاله وسنده ولا في متنه ودلالته.

---

١. صحيح مسلم:٣/ ٦١، كتاب الجنائز؛ السُّنن للترمذي:٢/ ٢٥٦، باب ما جاء في تسوية القبر؛ السنن للنسائي:٤/ ٨٨، باب تسوية القبر.

مناقشة الحديث

بصورة عامّة إذا أردنا الاستدلال بحديث من الأحاديث على حكم من أحكام الله تعالى، فلابدّ أن يتوفّر في ذلك الحديث هذان الشرطان:

١. صحّة السند: بأن يكون رواة الحديث ورجاله ــ في جميع المراحل والطبقات ـ رجالاً ثقاتاً يمكن الاعتماد عليهم وعلى أقوالهم.

٢. دلالة الحديث: بأن تكون في ألفاظ الحديث وعباراته دلالة كاملة على مقصودنا منه، بحيث يفهمه غيرنا ـ ممّن يحسن لغة ذلك الحديث ويعرف قواعدها ـ بمثل ما نفهمه نحن ويستنتج ما نستنتجه.

ومن حسن الحظ أنّ حديث أبي الهيّاج فاقد لهذين الشرطين، وخاصّة للشرط الثاني، فلا علاقة له بالبناء على القبور إطلاقاً.

توضيح ذلك:

أمّا بالنسبة إلى السند، ففيه رواة لم تتّفق كلمة علماء الرجال على وثاقتهم، وفيما يلي نذكر أسماء الرواة ـ في هذا الحديث ــ الذين رفض علماء الرجال أحاديثهم:

١. وكيع.

٢. سفيان الثوري.

٣. حبيب بن أبي ثابت.

٤. أبو وائل الأسدي.

هؤلاء الرواة الأربعة انتقدهم الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ في كتابه تهذيب التهذيب ـ وذكرهم بما يسلب الثقة من حديثهم هذا وأحاديثهم الأُخرى.

١. فبالنسبة إلى «وكيع»، يروي الحافظ العسقلاني عن أحمد بن حنبل ـ إمام الحنابلة ـ أنّه قال فيه:

«إنّه أخطأ في خمسمائة حديث».(١)

ويقول أيضاً نقلاً عن محمد بن نصر المروزي:

«كان وكيع [يحدّث] بالمعنى ولم يكن من أهل اللسان».(٢)

٢. وبالنسبة إلى «سفيان الثوري» يقول العسقلاني عن ابن مبارك:

«حدّث سفيان بحديث، فجئته وهو يُدلّسه، فلمّا رآني استحيا».(٣)

إنّ التدليس ـ بأيّ معنى كان ـ في الحديث يدلّ على أنّ الراوي المدلّس كان فاقداً لملكة العدالة والصدق، ولذلك كان يُصوِّر غير الواقع واقعاً، كما هو معنى التدليس في اللغة.

وعند ترجمة حياة يحيى القطّان، يقول الحافظ العسقلاني: إنّ يحيى القطّان قال:

«جهد سفيان الثوري أن يُدلّس عليّ رجلاً ضعيفاً فما أمكنه».(٤)

٣. وبالنسبة إلى «حبيب بن أبي ثابت»، كتب العسقلاني نقلاً عن أبي حبان أنّه:

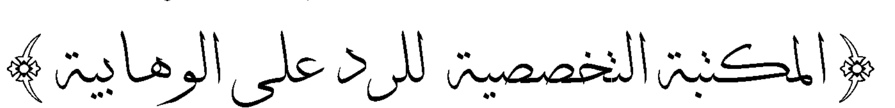
«كان مدلّساً».(٥)

وكتب نقلاً عن قطّان: إنّ حبيباً:

«لا يتابع عليه، وليست بمحفوظة».(٦)

---

١. تهذيب التهذيب للعسقلاني:١١/ ١٢٥.
٢. المصدر السابق:١١/ ١٣٠.
٣. المصدر السابق:٤/ ١١٥.
٤. المصدر السابق:١١/ ٢١٨.
٥. تهذيب التهذيب:٣/ ١٧٩.
٦. نفس المصدر السابق.



٤. وأمّا بالنسبة إلى «أبي وائل» فقد كان من المنحرفين عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وممّن نصب العداء والبغضاء له عليه السلام(١) فكيف يعتمد عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«يا عليُّ لا يُحِبكَ إلاّ مُؤْمِنٌ، ولاَ يُبْغِضُكَ إلاّ مُنافِقٌ».(٢)

والجدير بالذكر: أنّ راوي الحديث (أبو الهيّاج) ليس له حديث في كلّ الصحاح الستة ـ من أوّلها إلى آخرها ـ إلاّ هذا الحديث فقط، فماذا تقول في رجل ليست له إلاّ رواية واحدة؟!

إنّ هذا يدلّ على أنّ الرجل ليس من رجال حلبة الحديث، وعلى هذا الأساس فالاعتماد على حديثه لا يخلو من إشكال.

أيّها القارئ الكريم: هذا سند حديث أبي الهيّاج، وقد عرفت ضعف رواته وعدم اتفاق علماء الرجال عليهم، فإذا كان الحديث محفوفاً بهذه الإشكالات المتعدّدة، فلا يمكن لأيّ فقيه أن يستند عليه في استنباط الحكم وإصدار الفتوى.

وأمّا دلالة الحديث فلا تقلّ إشكالاً عن السند ذاته، إذ أنّ النقطة المهمّة الّتي يستشهدون بها ـ في هذا الحديث ـ هو قوله:

«ولا قَبْراً مُشْرِفاً إلاّ سَوَّيْتَهُ».

وهنا لابدّ من وقفة تأمّل وتحقيق عند كلمتي:

١. مشرفاً.

٢. سوّيته.

١. إنّ لفظة «المشرف» معناه: العالي والمرتفع. قال في المنجد:

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:٩/ ٩٩.

٢. مجمع الزوائد للهيثمي:٩/ ١٣٣، روى قريباً منه الترمذي في صحيحه:٢/ ٣٠١، مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان وغيرهم.

«المشرف من الأماكن: العالي والمطلّ على غيره».

وقال صاحب القاموس ـ وهو أكثر أصالة في ترتيب معاني الألفاظ ـ :

«الشَّرَف ـ محرّكة ـ : العلو، ومن البعير: سنامه».

إذن: معنى «مشرف» هو الارتفاع المطلق، وخاصّة الارتفاع الّذي على شكل سنام البعير.

فيجب هنا ـ مع الانتباه والالتفات إلى القرائن ـ أن نبحث عن المعنى المراد من «المشرف» في الحديث.

٢. لفظة «سوّيته» معناها: جعل الشيء متساوياً، وتقويم المعوج.

سوّى الشيء: جعله سويّاً، يقال: سوّيت المعوج فاستوى: صنعتُه مستوياً.

وجاء في القرآن الكريم:

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾.(١)

بعد الاطّلاع على معاني المفردات، يجب أن نعلم، ما هو المقصود من هذا الحديث؟

الواقع: لهذا الحديث في بدء النظر احتمالان، ولابدّ من تعيين أحدهما على ضوء معاني المفردات والدلائل الأُخرى.

الأوّل: هدم القبر

المقصود من الأمر بتسوية القبر هو هدم القبور المرتفعة، وتسويتها مع الأرض تماماً.

ولكن هذا الاحتمال ـ الذي يتمسّك به الوهّابيّون ـ مردود ومرفوض لعدّة أسباب ـ :

---

١. الأعلى:٢.

أوّلاً: لأنّ لفظة «التسوية» لم تأت ـ في اللغة ـ بمعنى الهدم والتدمير، ولو كان المقصود بـه هنا هو ذلك لكـان المفروض أن يقال: «ولا قبراً إلاّ سوّيتـه بالأرض» وليس في الحديث إلاّ لفظة «سويته» أي سويت القبر.

ثانياً: لو كان المقصود منه هو الهدم، فلماذا لم يُصدر أحدٌ من علماء الإسلام الفتوى بذلك؟!

كيف وتسـوية القبر بـالأرض هي خلاف للسنّـة الإسلاميـة والاستحباب الشرعي، إذ أنّه يستحـب شرعاً أن يكون القبر مرتفعاً عن الأرض، وقـد أفتى جميع فقهاء الإسلام باستحباب ارتفاع القبر عن الأرض شبراً واحداً.

جـاء في كتاب الفقـه على المذاهـب الأربعة ـ الذي يُطـابـق فتاوى أئمّـة المذاهب الأربعة ـ ما يلي:

«ويندب ارتفاع التراب فوق القبر بقدر شبر».[1]

فإذا كـان هذا الاحتمال الأوّل مـردوداً، وجب أن نفسّر الحديـث بالاحتمال الآتي.

الاحتمال الثاني: تسطيح القبر مقابل تسنيمه

المراد من تسويـة القبر هو جعل سطحه مستوياً ومسطّحـاً، بعكس القبور التي تبنى على شكل ظهر السَّمك وسنـام البعير، وعلى هذا الأساس فإنّ الحديث يعني أن يكون سقف القبر مسطّحاً ومستوياً، ولا يجوز أن يكون كظهر السَّمك أو مسنَّماً، كما هي العـادة عند بعض أهل السنّـة، وقد أفتى أئمّة المذاهـب الأربعة ـ

١. الفقه على المذاهب الأربعة: ١/ ٤٢٠.

باستثناء الشافعي ـ باستحباب تسنيم القبر.[1]

والذي يؤيد هذا الاحتمال أُمور:

١. أنّ مسلماً أورد في صحيحه حديث أبي الهيّاج وحديثاً آخر ـ سنذكره ـ تحت عنوان: باب الأمر بتسوية القبر، وكذلك ذكره الترمذي والنسائي في سننهما تحت نفس العنوان، والمقصود من هذا العنوان هو أن يكون القبر مسطّحاً ومستوياً، ولو كان المقصود منه تسوية القبر بالأرض لكان المفروض تسمية الباب المذكور بـ«باب الأمر بتخريب القبور وهدمها».

وأمّا الحديث الآخر الّذي ذكره مسلم في صحيحه ـ والّذي يحتوي نفس المضمون الّذي اخترناه ـ فهو:

«كُنّا مع فضالة بن عبيد بأرض الرُّوم بـ «رَوْدَس» فتُوفّي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسُوِّي ثمّ قال: سمعتُ رسول الله يَأمُرُ بتسويَتها».[2]

٢. ما ذكره العلاّمة النووي ـ شارح صحيح مسلم ـ تفسير حديث أبي الهياج لنرىٰ كيف يشرح الحديث ويقول:

«إنّ السنّة أنّ القبر لا يُرفع عن الأرض رفعاً كثيراً، ولا يُسنَّم، بل يُرفع نحو شبر ويسطّح».[3]

يظهر من هذه العبارة أنّ شارح صحيح مسلم قد استنبط نفس المعنى

---

١. نفس المصدر السابق. وفيه: ويُجعل كسنام البعير، وقال الشافعي: جعل التراب مستوياً مسطّحاً أفضل من تسنيمه.

أقول: فعلى هذا فإنّ حديث أبي الهيّاج لا يُعمل به إلاّ في المذهب الشافعي والمذهب الشيعي.

٢. صحيح مسلم: ٣/ ٦١، كتاب الجنائز.

٣. شرح صحيح مسلم للنووي: ٧/ ٣٦.

الّذي استنبطناه من هذا الحديث، وأنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أوصى أبا الهيّاج بتبديل القبور المسنّمة ـ أو التي على شكل ظهر السمك ـ إلى قبور مسطّحة، ولم يأمر بتسوية القبور بالأرض.

٣. لم ينفرد النوويّ في استنباط هذا المعنى من هذا الحديث، بل قال به الحافظ القسطلاني في كتاب «إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري»، فبعدما يذكر أنّ السنّة في القبر تسطيحه وأنّه لا يجوز ترك هذه السنّة، لمجرّد أنّها صارت شعاراً «للروافض» وأنّه لا منافاة بين التسطيح وحديث أبي الهيّاج... يقول:

«...لأنّه لم يُرد تسويته بالأرض وإنّما أراد تسطيحه، جمعاً بين الأخبار».[1]

٤. تطلق التسوية تارة ويكون وصفاً لنفس الشيء بما هوهو لا بمقايسته إلى شيء آخر فعندئذٍ يتعدى إلى معقول واحد قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾.[2] أي فسوّاه.

وقال سبحانه: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾.[3]

وتطلق مرّة أُخرى ويكون وصفاً للشيء باعتبار اضافته لشيء أُخرى الذي يعبّر عنه بمساواة شيء لشيء وعندئذٍ يتعدى إلى المفعولين إلى الأوّل بنفسه و إلى الآخر بحرف الجرّ قال سبحانه: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4] أي كنّا نحكم بمساواة الأصنام بربّ العالمين.

وعلى ضوء ذلك، فالتسوية في الحديث ـ بحكم انّه لم يأخذ إلاّ مفعولاً واحداً ـ وصف لنفس القبر، وليس وصفاً له بالقياس إلى شيء آخر أي الأرض

١. إرشاد الساري:٢/ ٤٦٨.
٢. الأعلى:٢.
٣. القيامة:٤.
٤. الشعراء:٩٨.

فيتعين كـون المقصـود هو التسطيـح مقـابـل التسنيـم، لا الهدم وجعله مسـاويـاً بالأرض وإلاّ لوجب أن يقول«إلاّ سويته بالأرض».

٥.لو فرضنا أنّ الإمام عليه السلام أمر أبا الهيّاج بهدم القبور المرتفعة وتسويتها مع الأرض تماماً، فليس في الحديث ما يدلّ على وجوب هدم البناء المشيَّد على القبور، ذلك لأنّ الإمام عليه السلام قال لأبي الهيّاج ـ على فرض صحّة الحديث ـ:

«ولا قبراً إلاّ سوّيته».

ولم يقل: «ولا بناءً ولا قبّة إلاّ سوّيتها» مع العلم أنّ البحث ليس عن القبر نفسه وإنّما عن الأبنية المقامة عليه.

احتمالان آخران في النهاية

هناك احتمالان آخران، لا مناصّ من ذكرهما إتماماً للموضوع.

الأوّل: أن يكون هذا الحديث ـ وما يشابهه ـ إشارة إلى ما كان متعارفاً عند بعض الأُمم السابقة، من اتّخاذ قبور الصـالحين قبلة لعباداتهم يتوجّهون إليها عند العبادة، وكانوا ينصبـون صورةً إلى جانب القبر، وبذلك يتركـون التوجّه إلى القبلة الّتي أمرهـم الله تعالى بالتوجّه إليها حال العبادة.

وعلى هـذا الاحتمال فـلا يمكـن أن تكـون لهذا الحديـث أيّـة صلـة بقبـور المسلمين، ولم يُعهد من أيّ مسلـم أن يتوجّه إليها في الصلاة أو يسجـد عليها، بل جرت سيرة المسلمين على الصـلاة بجوار القبور، مـن دون أن تكون قبلـة لهم، بل وجوههم نحو الكعبة، يقيمون الصلاة ويتلون كتاب الله وهم بجوار القبور.

وإذا كان المسلمون يتسارعون إلى زيارة قبور أولياء الله الصالحين، ويقضون هناك ساعات في عبـادة الله تعالى بجوار تلك المراقد المقدّسة، فـإنّما هو بسبب ما



اكتسبته تلك الأرض من الشرف والقدسيّة بسبب احتضانها لذلك الجسد الطاهر.

ولهذا البحث تفصيل قادم.

الاحتمال الثاني: أن يكون المقصود من قولهﷺ لأبي الهيّاج: «أن لا تدَع تمثالاً إلاّ طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلاّ سوّيته» أن يكون المقصود من«التمثال» تصاوير الأصنام، ومن «القبر» قبور المشركين الّتي كانت مشمولة بالعطف والعناية من ذويهم.

والخلاصة: أنّ حديث أبي الهيّاج لا علاقة له بالبناء على قبور الأولياء أصلاً، بل هو بشأن القبور المسنَّمة، أو بشأن قبور المشركين وتماثيل الأصنام.

وفيما يلي نذكر فتوى أئمّة المذاهب الأربعة حول البناء على القبور:

«يكره أن يُبنى القبر ببيتٍ أو قبّة أو مدرسة أو مسجد».[1]

فمادام أئمّة المذاهب الأربعة متّفقين على كراهية البناء على القبور... فكيف يتجرّأ قاضي نجد على الفتوى بحرمة البناء؟!!

﴿إنْ هٰذا إلاّ اخْتلاق﴾.[2]

مع العلم أنّ الحكم بالكراهة لا دليل صحيح عليه مع قيام السيرة بين المسلمين على خلافها، وخاصّة إذا كان البناء مساعداً للزائر لإقامة الفرائض الدينية وتلاوة القرآن الحكيم عند القبر الّذي يُقام عليه البناء.

١. الفقه على المذاهب الأربعة: ١/ ٤٢١.

٢. ص: ٧.

حديث جابر

أو

مستمسك آخر للوهابيين

يُعتبر حديث جابر من جملة الأدلّة الّتي يتمسّك بها الوهّابيّون على حرمة البناء على القبور، وقد روي هذا الحديث في الصحاح والسنن بألفاظ مختلفة، ويوجد في جميع أسنادها ورواتها رجلان:

١. ابن جُريج.

٢. أبو الزبير.

والتحقيق في صحّة هذا الحديث يتوقّف على معرفة أحوال رواته ورجال سنده، وفيما يلي نذكر الحديث بألفاظه المتعدّدة المختلفة:

جاء في صحيح مسلم ـ باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه ـ حديث جابر مرويّاً بثلاثة طُرق وفي صورتين:

١. حدّثنا أبو بكر بن أبي شَيبة، حدّثنا حفص بن غياث، عن ابن جُريج، عن أبي الزبير، عن جابر قال: نهى رسول الله أن يُجصَّصَ القَبرُ وأن يُقعد عليه وأن يُبنىٰ عليه.

٢. حدّثني هارون بن عبد الله، حدّثنا حَجّاج بن محمّد، وحدّثني محمّد بن



رافع، حدّثنا عبد الرّزاق، جميعاً عن ابن جريج قال: أخبرني أبو الزبير أنّه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت النبيّ بمثله.

٣. حدّثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا إسماعيل بن عُلَيَّة، عن أيّوب، عن أبي الزّبير، عن جابر قال: نُهي عن تقصيص القُبُور».[١]

وجاء في صحيح الترمذي ـ باب كراهة تجصيص القبور والكتابة عليها ـ حديث واحد عن طريق واحد، هو:

٤ . حدّثنا عبد الرحمن بن الأسود، أخبرنا محمّد بن ربيعة، عن ابن جريج، عن أبي الزّبير، عن جابر قال: نهى النبي ﷺ أن تجصّص القُبور وأن يكتب عليها وأن يُبنى عليها وأن تُوطأ.

ثمّ يذكر الترمذي عن الحسن البصري والشافعي أنّهما أفتيا بجواز تجصيص القبور.[٢]

وجاء في صحيح ابن ماجة ـ باب ما جاء في النهي عن البناء على القبور وتجصيصها والكتابة عليها ـ هذا الحديث بطريقين وصورتين هما:

٥ . حدّثنا أزهر بن مروان، ومحمّد بن زياد قال: حدّثنا عبد الوارث، عن أيّوب، عن أبي الزّبير، عن جابر قال: نهى رسول الله عن تجصيص القُبور.

٦ . حدّثنا عبد الله بن سعيد، حدّثنا حفص، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن جابر قال: نهى رسول الله أن يُكْتَبَ على القَبر شَيء.[٣]

وبعد ذكر هذا الحديث يقول السندي ـ شارح الحديث ـ نقلاً عن الحاكم

١. صحيح مسلم:٣/ ٦٢، كتاب الجنائز.

٢. السنن للترمذي:٢/ ٢٠٨، تحقيق عبد الرحمن محمّد عثمان، طبعة المكتبة السلفية.

٣. صحيح ابن ماجة:١/ ٤٧٣، كتاب الجنائز.

النيسابوري: إنّ الحديث صحيح ولكنّه غير معمول به، لأنّ قادة الإسلام ـ في شرق الأرض وغربها ـ جرت سيرتهم على الكتابة على القبر، خَلَفاً عن سَلَف.

وجاء في صحيح النسائي ـ باب البناء على القبر ـ هذا الحديث بطريقين وصورتين هما:

٧. أخبرنا يوسف بن سعيد قال: حدّثنا حجّاج عن ابن جريج قال: أخبرني أبو الزّبير أنّه سمع جابراً يقول: نهى رسول الله عن تجصيص القبور أو يُبنى عليها أو يَجلِس عليها أحد.

٨. أخبرنا عمران بن موسى قال: حدّثنا عبد الوارث قال: حدّثنا أيّوب، عن أبي الزّبير، عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن تقصيص القبور.[1]

وجاء في سنن أبي داود ج٣، ص ٢١٦ ــ باب البناء على القبر ــ حديث جابر بطريقين وصورتين هما:

٩. حدّثنا أحمد بن حنبل، حدّثنا عبد الرزّاق، حدّثنا ابن جُريج، أخبرني أبو الزُّبير، أنّه سمع جابراً يقول: سمعتُ النبيّ نهى أن يُقعد على القبر وأن يُجصَّص ويُبنى عليه.

١٠. حدّثنا مُسدّد، وعثمان بن أبي شيبة قالا: حدّثنا حفص بن غياث، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، وعن أبي الزبير، عن جابر بهذا الحديث.

قال أبو داود: قال عثمان: «أو يُزاد عليه» وزاد سليمان بن موسى: «أو أن يُكتَب عليه».

أمّا أحمد بن حنبل ــ إمام الحنابلة ــ فقد روى الحديث في مسنده على الشكل التالي:

---

١. صحيح النسائي: ٤/ ٨٧ ـ ٨٨، المطبوع مع شرح الحافظ السيوطي.

١١. عن عبد الرّزّاق عن ابن جريج: أخبرني أبو الزّبير أنّه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعتُ النبيّ يَنهى أن يقعد الرجل على القبر وأن يُجَصَّص وأن يُبنى عليه.(١)

هذا ما روي عن جابر في هذا الموضوع، ذكرناه بألفاظه المختلفة وأسناده المتعدّدة والآن يأتي دور البحث والتحقيق فيها، لنرى هل يصلح للاستدلال أم لا؟

نقاط الضعف في الحديث

حديث جابر هذا، فيه مجموعة كبيرة من نقاط الضعف، بحيث تسقطه عن الحجّية والاعتبار، ولا يمكن الاستدلال به بأيّ وجه. ونذكر فيما يلي نقاط الضعف فيه:

أوّلاً: لقد جاء في جميع أسناده اسم ابن جُريج(٢) وأبو الزبير(٣) كلاهما معاً، أو بصورة منفردة، فإذا عرفنا هويّة هذين الراويين وأحوالهما، فلا حاجة إلى معرفة حال الرواة الآخرين فيه، بالرغم من وجود مجهولين أو ضعاف الحديث فيه.

في كتاب «تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني تقرأ رأي علماء الرجال في ابن جُريج فيما يلي:

سئل يحيى بن سعيد عن حديث ابن جُريج فقال: ضعيف. فقيل له: إنّه يقول: أخبرني، قال: لا شيء... كلّه ضعيف.(٤)

---

١. مسند أحمد:٣/ ٢٩٥، ٣٣٢، رواه أيضاً مُرسلاً عن جابر في ص ٣٩٩.
٢. هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جُريج الأُموي.
٣. هو محمّد بن مسلم الأسدي.
٤. تهذيب التهذيب:٦/ ٤٠٦.

وقال أحمد بن حنبل: إذا قال ابن جُريج: قال فلان وقال فلان، وأُخبرتُ، جاء بمناكير.(١)

أي: أحاديثه منكرة ومجهولة، أو أنّهامنكرات.

وقال مالك بن أنس: كان ابن جُريج حاطب ليل.(٢)

وقال الدار قطني: تجنَّب تدليس ابن جُريج، فإنّه قبيح التدليس، لا يُدلِّس إلاّ فيما سمعه من مجروح.

وقال ابن حبان: كان ابن جُريج يُدلّس في الحديث.(٣)

بالله عليك ـ أيّها القارئ ـ هل يجوز الأخذ برواية هذا الرجل مع ما ورد فيه من الذمّ والقدح والتضعيف من علماء الرجال؟!!

وهل يجوز أن نُعرض عن سيرة المسلمين ـ القائمة على البناء على قبور أولياء الله واحترامها ـ استناداً إلى حديث هذا الراوي المدلِّس؟!!

وهل يجوز أن نرمي المسلمين بالشرك والكفر والزندقة، لأنّهم يُحيون السنّة الإسلامية وينتهجون سيرة السلف الصالح في البناء على القبور وزيارتها واحترامها؟!

هذا بعض ما يتعلّق بابن جُريج.

وأمّا أبو الزبير، فهذا ابن حجر يذكر أقوال علماء الرجال فيه فيما يلي:

عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه إمام الحنابلة، عن أيّوب أنّه كان يعتبر أبا الزبير ضعيف الرواية.

---

١. المصدر السابق.

٢. تهذيب التهذيب:٦/ ٤٠٤.(حاطب ليل)، ـ في أصل معناه ـ: جامع الحطب في الليل، حيث لا يرى ما يجمع، ويُضرب به المَثل أن يجمع كلّ شيء لا يُميِّز الجيّد من الرديء.

٣. تهذيب التهذيب:٦/ ٤٠٢، ٥٠٦ طبعة دار المعارف النظامية.

وعن شُعبة: أنّ أبا الزبير ما كان يُحسن الصلاة.

وعن شعبة أيضاً أنّه قال:

لم يكن في الدنيا أحب إليّ من رجل يقدم فأسأله عن أبي الزبير، فقدمت مكّة فسمعتُ منه، فبينا أنا جالس عنده إذ جاءه رجل فسأله عن مسألة، فردّ عليه فافترى عليه.

فقلت: يا أبا الزبير تفتري على رجل مسلم؟!

قال: إنّه أغضبني.

قلت: ومن يُغضبك تفتري عليه؟! لا رويتُ عنك شيئاً.

وعن ورقاء قال:

قلت لشعبة: مالك تركت حديث أبي الزبير؟

قال: رأيته يَزِنْ ويسترجع في الميزان.

وقال ابن أبي حاتم:

سألتُ أبي عن أبي الزبير؟

فقال: يُكتب حديثه ولا يُحتج به.

قال: وسألت أبا زرعة عن أبي الزبير؟

فقال: يروي عنه الناس.

قلت: يُحتجّ بحديثه؟

قال: إنّما يُحتجُّ بحديث الثقات.[1] «كناية عن أنّه ليس بثقة».

نعم يا أخي... هذا حال ابن جريج وأبي الزبير، وهما من رواه حديث جابر في جميع أسناده، فهل يمكن الاستدلال بحديث فيه هذان الراويان؟!

---

١. تهذيب التهذيب:٩/ ٤٤٠ برقم ٧٢٧، في ترجمة أبي الزبير محمد بن مسلم الأسدي.

وقـد سبقت الإشـارة إلى أنّ في سنـد هـذا الحديث رواة ضعـافـاً غير ابن جريج وأبي الزبير، كعبد الرحمن ابن أسود المتّهم بالكذب والوضع.

فهل يجوز هـدم آثار أهل بيت النبـوّة والرسالـة ـ عليهم الصّـلاة والسّلام ـ وهدم آثار الصحابة، ونسبة الخطأ والانحراف إلى المسلمين طوال أربعة عشر قرناً، كلّ ذلك اعتماداً على هذا الحديث الضعيف المردود المرفوض الساقط؟!

ثانياً: إنّ حديـث جابـر مضطرب جداً مـن حيث النصّ والألفـاظ، وهذا الاضطـراب يدلّ على أنّ رواة هـذا الحديث كـانوا فـاقديـن للضبط والتـدقيق في الروايـة، مع العلم أنّ الضبط شرطٌ في الـراوي، وهذا الاضطراب يمنـع الاطمئنان بهذا الحديث ويسلب الثقة والاعتماد عليه.

وإليك تفصيل البحث:

لقد روي حديث جابر بخمس صور، مع العلم أنّ النبي ﷺ نطق به بصورة واحدة، وإليك توضيح الصّور الخمس:

١. النهي عن التجصيص والكتابة والبناء والمشي عليه، رقم٤.

٢. النهي عن القعود على القبر والتجصيص والبناء عليه والكتابة، ذيل رقم ١٠ والفرق هو انّ الحرام على الأوّل هو المشي، وعلى الثاني هو القعود.

٣. النهي عن تجصيـص القبر والقعود والبناءعليـه. رقم١، ٢، ٧، ٩، ١٠، ١١.

٤. النهي عن خصوص التجصيص، رقم ٣، ٥، ٨.

٥. النهي عن خصوص الكتابة رقم٦.

وبعد هذا كلّه انظر إلى الاختلاف والتباين في متون الحديث وعباراته.

فمع هذا الاضطراب والاختلاف ـ في الحديث ـ لا يمكن ـ لأيّ فقيه ـ أن يثق به و يعتمد عليه.

ثالثاً: إنّ هذا الحديث ــ على فرض صحّته والغضّ عن اضطرابه ـ لا يدلّ على أكثر من نهي النبي ﷺ عن البناء على القبور، ولكن النهي لا يدلّ على الحرمة، لأنّه قسمان: نهي تحريم ونهي كراهة، والقسم الثاني كثير جداً في أحاديث النبي والأئمّة الطاهرين عليهم السلام.

صحيح أنّ الأصل في النهي التحريم، وأنّه حقيقة فيه حتّى يثبت دليل يصرفه عن التحريم إلى الكراهة، ولكن العلماء والفقهاء لم يستنبطوا من ذلك إلاّ الكراهة فقط، فترى ـ مثلاً ـ الترمذي يذكر هذا الحديث في صحيحه تحت عنوان: كراهية تجصيص القبور و... وأوضح شاهد على الكراهة هو أنّ السندي ـ شارح صحيح ابن ماجة ـ يذكر عن الحاكم النيسابوري أنّه قال: لم يعمل بهذا النهي أحد من المسلمين، فهو لم يعتبر النهي تحريمياً، بدليل أنّ سيرة المسلمين قائمة على الكتابة على القبور.

وممّا يشهد أيضاً على أنّ النهي نهي كراهة هو اتّفاق المذاهب الإسلامية على جواز البناء على القبر إلاّ إذا كانت الأرض موقوفة شرعاً.

يقول شارح صحيح مسلم ـ في شرح هذا الحديث ـ:

«أمّا البناء فإن كان في ملك الباني فمكروه، و إن كان في مقبرة مُسبَلة[1] فحرام، نصّ عليه الشافعي والأصحاب».[2]

وممّا لا يحتاج إلى بيان هو أنّ الشيء المكروه قد ترتفع كراهيّته بالنظر إلى

---

١. مُسْبَلة: موقوفة في سبيل الله.

٢. هامش صحيح مسلم:٣/ ٦٢، طبعة مصر.

بعض الأُمور الأُخرى، فمثلاً: إذا صار البناء على القبر سبباً لحفظ أصالة الإسلام وإظهار المودّة لصاحب ذلك القبر الّذي فرض الله تعالى محبّته ومودّته أو يكون سبباً لصيانة الشعائر الإسلامية أو يؤدّي إلى تجمّع الزوّار ـ تحت البناء ـ لتلاوة القرآن والدعاء، فبالقطع واليقين أنّ الكراهة لا ترتفع فحسب، بل يكون ذلك أمراً مستحبّاً محبوباً مطلوباً مرغوباً فيه.

إنّ ممّا لا شكّ فيه: أنّ الحكم المكروه أو المستحبّ قد يتغيّر بسبب عناوين وعوامل أُخرى، فكم من المكروهات الّتي ينتقل حكمها إلى الاستحباب لعوامل خاصّة، وكم من المستحبّات الّتي تنقلب مرجوحة لنفس السبب، ذلك لأنّ استحباب الشيء وكراهيّته ليس معناه إلاّ المقتضي للمحبوبيّة أو المرجوحيّة، وهذه المقتضيات تكون نافذة مع عدم المانع من الاقتضاء والتأثير، فمثلاً: النار تقتضي الإحراق بشرط أن لا يكون الحطب رطباً، والدواء يقتضي برء المريض بشرط عدم المانع، وهذه بحوث واضحة لمن له إلمام بالفقه الإسلامي.

الاستدلال بحديثين آخرين

إتماماً للبحث نذكر حديثين آخرين تمسّك بهما الوهّابيّون في هذا المقام وهما:

روى ابن ماجة في صحيحه ما يلي:

١. حدّثنا محمّد بن يحيى، حدّثنا محمّد بن عبد الله الرّقاشي، حدّثنا وهب، حدّثنا عبد الرّحمن بن يزيد بن جابر، عن القاسم بن مُخيمَرة، عن أبي سعيد: إنّ النّبيّ نهى أن يُبْنىٰ عَلَى القَبْرِ.[1]

ويذكر أحمد بن حنبل حديثاً آخر بسندين هما:

٢. حدّثنا حسن، حدّثنا ابن لَهيعة، حدّثنا بُريد بن أبي حبيب، عن ناعم مولى أُمّ سلمة، عن أُمّ سلمة قالت: نهى رسول الله أن يُبْنى عَلى الْقَبْرِ أو يُجَصَّص.

٣. عليُّ بن إسحاق، حدّثنا عبد الله بن لَهيعَة، حدّثني بريد بن أبي حبيب، عن ناعِم مولى أُمّ سلمة أنّ النّبي نهى أن يُجَصَّص قَبرٌ أو يُبنىٰ عليه أو يُجْلَس.[2]

بالنسبة إلى الحديث الأوّل فيكفي في ضعفه أنّ من رواته رجل اسمه «وهب» وليس معلوماً حاله، لأنّ هناك ١٧ رجلاً كلّ واحد منهم اسمه «وهب» من دون تمييز أو تشخيص، وفيهم الوضّاعون والكذّابون[3] وليس واضحاً أنّ وهب

١. صحيح ابن ماجة: ١/ ٤٧٤.

٢. مسند أحمد: ٦/ ٢٩٩.

٣. ميزان الاعتدال: ٣/ ٣٥٠ـ ٣٥٥.



ـ في هذا الحديث ـ من هو؟! فالرواية ساقطة.

وأمّا الحديث الثاني والثالث فهما ساقطان أيضاً، لوجود عبد الله بن لهيعة في سنده.

وفيه يقول الذهبي:

قال ابن معين: ضعيف لا يُحتَجّ به.

قال الحميدي، عن يحيى بن سعيد: إنّه كان لا يراه شيئاً.(١)

نحن لا نناقش سند هذين الحديثين، ونكتفي بالإشارة إلى نقطة هامّة وهي أنّ جميع المؤرّخين والمحدّثين وأهل السِّيَر ذكروا بأنّ جسد رسول الله ﷺ قد دفن في بيت عائشة، بموافقة الصحابة، وقد تمّ انتخاب بيتها للدفن استناداً إلى ما روي عنه ﷺ بأنّ كلّ نبي يُدفن في المكان الّذي يموت فيه.(٢)

والآن... يأتي هذا السؤال: إذا كان النبيﷺ قد نهى عن البناء على القبر، فكيف دفنوا جسده الطيّب الطاهر في بيتٍ مسقَّف، ثمّ أقاموا جداراً في وسط البيت، فصار للقبر الشريف بناء يقصده المؤمنون ويزوره المسلمون؟!

ومن المضحك ـ في هذا المجال ـ هو قول أحد الكتّاب الوهّابيّين:

إنّ الحرام هو البناء على القبر لا الدفن تحت البناء، وقد دفنوا النبي تحت البناء ولم يبنوا على قبره شيئاً.(٣)

إنّ هذا الكاتب اضطرّ إلى هذا القول، لكونه يرى قبر رسول اللهﷺ مُشيّداً بالبناء والقبّة، ولولا ذلك لحكم بحرمة الدفن في البيت أيضاً.

١. ميزان الاعتدال: ٢/ ٤٧٦ تحت عنوان: عبد الله بن لهيعة؛ تهذيب التهذيب: ١/ ٤٤٤.

٢. مسند أحمد: ١/ ٧؛ صحيح الترمذي: ٢/ ١٣٩؛ طبقات ابن سعد: ٢/ ٧١ وغيرها.

٣. كتاب رياض الجنة: بقلم مقبل بن الهادي الوادي، طبعة الكويت.

فانظر كيف يُفتي من تلقاء نفسـه بغير ما أنزل الله، إرضاءً لهواه وتجاوباً مع اتّجاهه المنحرف!!!

ونحن نسـأل هذا الـوهّابي: هل أنّ الحرام هـو البناء على القبر فقـط، لكن إبقاء البناء ليس حراماً؟!

أم أنّ البناء ـ إيجاداً و إبقاءً ـ حرام؟!

إذا كان الحرام هو البناء فقط فنحن نسأل: لماذا أقدمت الحكومة السعودية ـ ظلماً و زوراً ـ على هدم آثار النبوّة ومـراقد الأئمّة الطاهرين عليهم السلام وقبور الصحابة وأبناء رسول الله صلى الله عليه وآله مع العلم أنّ الحرام ـ عندكم ـ هـو إقامة البناء فقط لا الإبقاء على البناء؟!!

وبالإضـافة إلى ذلك... إنّ هـذا الحكم هو خـلاف ما أفتى به أسـلافكم ـ كابن القيّم وابن تيميّة ـ حيث يقول الأوّل:

يجب هدم المشاهد الّتي بُنيت على القبور ولا يجوز إبقاؤها ـ بعد القدرة على هدمها و إبطالها ـ يوماً واحداً.

فعلى هذا الأساس لا يستطيع هذا الوهّابيّ أن يقول بحرمة البناء فقط، كي لا يُخالف من سبقوه إلى النار، ولا مناص له من الحكم بحرمة البناء إيجاداً و إبقاءً.

هنا يأتي هذا السؤال: لماذا دفن المسلمون جسد رسول الله صلى الله عليه وآله تحت البناء؟

صحيح أنّهم لم يقيموا على قبره البناء، إلاّ أنّ الـدفن هناك أدّى إلى أن يكون للقبر بناء وسقف.

وترى هـذا الوهّابي المعانـد يحاول الفرار والتخلّص من هـذا السؤال فيفتي من نفسه بغير ما أنزل الله ـ كما هو عـادتهم ـ و يقول: ما معناه ـ إنّ الإبقاء الحرام

هو للبناء الّـذي بُني على القبر، أمّا إذا كان البناء سابقاً على الـدفن فليس الإبقاء عليه حراماً.

فـانظـر كيف يُفـرّق في الحكـم ويفتي من تلقـاء نفسـه، تبريـراً لما قـام بـه المسلمون يومذاك، ومحاولاً التملّص من الحقّ الّذي يُلاحقه ويصدمه.

التناقض بين الوهّابية وسيرة المسلمين

هذه النقطـة ـ الّتي سبق الحديث عنها ـ ليست هي النقطة الـوحيدة الّتي يتجلّى فيها التناقض بين الوهّابيّة وسيرة المسلمين طوال أربعة عشر قرناً.

بل أنّ التناقـض في موارد أُخرى كثير جـدّاً، فمثلاً: يعتبر الوهّـابيّون التبرّك بآثار النبي ﷺ حراماً، وينهـون عنه بشدّة ويقولون ـ دائماً ـ إنّ الحجر والطين لا ينفعـان شيئاً، ولكنّك تـرى المسلمون يتـزاحمون على الحجر الأسـود لتقبيله ولمسـه والتبرّك به، ويتهافتـون على كسوة الكعبة للتمسّح بها وبـالكعبة وتقبيلهما ووضع الخدّ عليهما، فالمسلمـون يقبّلون الحجر والطين ويخالفون الـوهّابيّة الّتـي تقول بأنّ الحجر والطين لا ينفعان.

وكذلـك يحرّم الوهّابيّـون بناء المسـاجد بجوار مـراقد الأوليـاء، في حين أنّه توجـد في كلّ البـلاد الإسلاميـة مساجـد مشيَّدة بجـوار المشاهـد، حتّى في أرض «أُحد» كان مسجد بجوار قبر سيّدنا حمزة ـ رضوان الله عليه ـ و لمّا احتلّ الوهّابيّون تلك البقاع المقدّسة عمدوا إلى هدم المسجد وطمس آثاره!!!

والآن ترى المرقد الطاهر لرسول الله ﷺ واقعاً في وسط المسجد، والمسلمون يقيمون الصلاة لله من أطرافه وجوانبه الأربعة. وكم لهذه القضايا من نظير ومثيل، فـانظر إلى البـون الشاسـع بين الوهّـابيّة وسيرة المسلمين، ممّـا يدلّ على انفصـال الوهّابيّة عن الإسلام، وانفصال الوهّابيّين عن المسلمين.

اختلاق الأدلّة الواهية تبريراً لجريمة هدم مراقد الأئمّة عليهم السلام

لقد لجأ الوهّابيّون إلى اختلاق الأدلّة الواهية الّتي تبرّر لهم هدم المراقد الطاهرة و القباب الشريفة للأئمّة الطاهرين عليهم السلام في البقيع، وممّا قالوا ــ في هذا المجال ــ : إنّ البقيع أرض موقوفة، ويجب أن يُستفاد منها لنفس الغرض الّذي وقفها صاحبها، ويجب القضاء على كلّ ما يوجب الحدّ من الاستفادة عن الغرض المقصود، والبناء ونصب الأعمدة والجدران في هذه الأرض يوجب الحدّ من الاستفادة من جزء منها، فأرض البقيع موقوفة لدفن الموتى، ومن الواضح أنّ نصب الأعمدة والجدران ـ للبناء ـ يحتلّ جزءاً من الأرض، إذ لا يمكن الدفن تحت الأعمدة والجدران، وهذا يؤدّي إلى الحدّ من الاستفادة للغرض المقصود، ولهذا تجب إزالة ما على هذه الأرض من بناء كي يمكن الدفن في كلّ بقعة فيها.

الجواب والردّ

لا شكّ أنّ هذا النوع من الاستدلال ليس إلاّ تسرّعاً في الحكم وابتعاداً عن الحقّ، يريد به القاضي الوهّابي القضاء على آثار أهل البيت عليهم السلام بأيّ وجه كان، وحتّى لوأفلس من الأدلّة فإنّه يأمر بالهدم بحكم القوة والعنف والزور، وما هذا الدليل إلاّ للتمويه على عوام المسلمين وبسطائهم بأنّه يفتي بما أنزل الله، ولهذا تراه يعتبر البقيع أرضاً موقوفة للدفن.

ولكن هذا الدليل ـ كسائر أدلّتهم ـ باطل من عدّة وجوه:

الأوّل: لم يرد في أيّ كتاب ـ من كتب التاريخ والحديث ـ ما يشير إلى أنّ أرض البقيع موقوفة، ولم يصرّح به أحد من المؤرّخين والمحدّثين. هذه كُتب التاريخ بين يديك، لا ترى فيها أثراً لهذا القول، بل أنّه يُحتمل قويّاً أنّ البقيع

كـانت أرضـاً مواتـاً متروكة كسـائر الأراضي الموات، وكـان أهل المدينـة يدفنـون موتـاهم فيهـا، وعلى هذا فأرض البقيع كـانت من «المبـاحات الأوّليـة» الّتي يجوز التصرّف فيها مطلقاً، بأيّ شكل كان.

لقد كـان الناس ــ في العهود السـابقة ـ غير حـريصين على تملّك الأراضي البائرة الموات، إذ لم تكـن الإمكانيّـات متوفـرة لديهم للقيـام بالبنـاء والعمران إلاّ قليلاً، كما لم تبـدأ ـ يومذاك ــ هجرة أهل القرىٰ إلى المُدن، ولم تكن هنـاك مشكلة باسم مشكلة «الأرض» وأفـراد باسم «محتكري الأرض» ومؤسّسات عقـاريّة باسم «بورصة الأراضي» ولهذا فإنّ أراضي واسعة كانت متروكـة بلا مالك، وهي ما يُعبّر عنها في الشريعة الإسلامية بـ«المباحات» و«الأراضي الموات».

وقد جرت العادة ـ في المدن والقرىٰ ـ بأن يُخصِّص الناس قطعة من الأرض لدفن الموتـىٰ فيها، أو كان واحد منهـم يَدفن فقيده في أرض، ويتبعـه الآخرون في ذلك، من دون التفات إلى الوقف أصلاً.

وأرض البقيع ليسـت مستثنـاة من هـذه القـاعدة، فلـم تكن الأرض ــ في الحجاز والمدينة ــ ذات قيمة، ومع وجود هذه الأراضي الموات المحيطـة بالمدينة لم يكن يُقـدم إنسـان على وقف أرض زراعيـة ـ مثـلاً ــ لدفـن الموتى، لأنّ الأراضي الزراعيـة كانت قليلـة، بعكس الأراضي الموات فإنّها كـانت كثيرة ومن المبـاحات الأوّلية.

والجدير بالذكـر أنّ التاريخ أيضاً يؤكّد هـذه الحقيقة. يقول السمهودي في كتاب «وفاء الوفا»:

«أوّل من دفن رسول الله بـالبقيع: عثمان بن مظعون... ولمّا توفّي إبـراهيم بن رسول الله أمـر أن يُدفـن عند عثمان بن مظعـون، فرغـب الناس في البقيع وقطعـوا

الشجر، فاختارت كلّ قبيلة ناحية، فمن هنالك عرفت كلُّ قبيلة مقابرها....

كان البقيع غرقداً[١] فلمّا هلك عثمان بن مظعون ودُفن في البقيع قُطع الغرقد عنه».[٢]

لقد ظهر من كلام السمهودي ـ أنّ أرض البقيع كانت مواتاً، وتمّ تقسيمها إلى عدّة قطع بعد ما دُفن أحد الصحابة فيها، وخُصّصت كلّ قطعة منها لقبيلة من القبائل وبيتٍ من البيوتات، أمّا أن تكون موقوفة فلا ترى لها أثراً في التاريخ، بل يُستفاد من التاريخ أنّ البقعة الّتي تحتضن أجساد الأئمّة الطاهرين عليهم السلام في البقيع كانت داراً لعقيل بن أبي طالب، وأنّ تلك الأجساد الطاهرة إنّما دُفنت في دار تعود إلى بني هاشم.

يقول السمهودي:

دُفن العباس بن عبد المطّلب عند قبر فاطمة بنت أسد ابن هاشم في أوّل مقابر بني هاشم الّتي في دار عقيل.

ويقول أيضاً:

عن سعيد بن محمّد بن جبير أنّه رأى قبر إبراهيم ابن رسول الله عند الزوراء... وهي الدار الّتي صارت لمحمّد بن زيد بن علي....

وأنّ سعد بن معاذ دفنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في طرف الزقاق الّذي يلزق دار المقداد بن الأسود... وهي الدار الّتي يقال لها: دار ابن أفلح، في أقصى البقيع، عليها جُنبذة[٣].[٤]

---

١. الغرقد: شجر مخصوص وهو يتواجد كثيراً في صحاري المدينة المنوّرة وأطرافها.

٢. وفاء الوفا: ٢/ ٨٤.

٣. الجنبذة: القبّة.

٤. وفاء الوفا: ٢/ ٩٦.

هـذه العبارات بمجمـوعها تـؤكّـد على أنّ أرض البقيع لم تكن وقفـاً، وأنّ أجساد الأئمّة الطاهرين عليهم السلام إنّما دُفنت في بيوتهم المملوكة.

بعد كلّ ما سبق، هل يصحّ هدم آثار آل رسول الله صلى الله عليه وآله وتسويتها مع الأرض بحجّة أنها لا تنسجم مع الوقف؟!

ولو فـرضت ـ جَدَلاً ـ أنّ أرض البقيع موقوفـة، فهل هناك مـا يُثبت كيفية وقفها؟! ولعلّ مالك الأرض قد سمح بإقامة البناء والقباب على قبور الشخصيّات المرموقة الّتي تُدفن فيها؟!

نحن لا نعلم تفصيل الموضوع، والشيء الّذي نعلمه هو أنّ المسلمين أقاموا البناء والقباب على تلك القبور، ويجب حمل فعل المسلم على الصحّة والابتعاد عن اتّهامه ونسبة المعصية إليه.

وعلى هذا الأســاس فإنّ هدم تلك القبـاب المقدّسة والأبنيـة المحترمة يُعتبر حراماً بيّناً ومخالفةً قطعيّة للأحكام الشرعيّة.

وكان القاضي ابن بليهد وأتباعـه يعلمون جيّداً أنّ فكرة وقفيّة البقيع ليست إلّا استدلالاً مصطنعاً، وحتّى لو لم يرسم لهم الشيطان هذا الدليل الواهي، لكانوا يهدمون آثار آل رسول الله صلى الله عليه وآله بلا تردّد، ذلـك لأنّ هذا المرّة ليست هي المرّة الأُولى الّتي تقوم فيهـا الوهّابيّـة بهدم آثار الرسـالة والإسلام، بـل إنّ المرة الأُولى كانت في سنة ١٢٢١ هـ عندما سيطروا ـ لأوّل مرّة ـ على المدينة المنوّرة وهدموا تلك الأبنية والآثار، ثمّ أُعيـد بناؤها بعـد دحر الوهّـابيّين وطردهم من المدينة على يـد القوات العثمانية.


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الفصل الثالث

بناء المسجد بجوار المراقد المشرَّفة

استدلّ الوهّابيّون على حرمة بناء المسجد بجوار قبور الأنبياء والصالحين بما روي «أنّ النبي ﷺ لعن اليهود والنصارى لأنّهم اتّخذوا قبور أنبيائهم مسجداً» فيكون بناء المسجد بجوار قبور الأولياء محكوماً بما ورد في هذا الحديث؟!

الجواب: انّ القرائن الكثيرة تدل على المقصود، هو بناء المسجد على قبور الأنبياء، بُغيَة عبادتهم أو اتخاذ قبورهم قبلة، وإليك البيان:

إنّ بناء المساجد بجوار قبور الصالحين لا مانع فيه أبداً، لأنّه يندرج تحت الأُصول الإسلامية العامّة المجوّزة ذلك، لأنّ الهدف من بناء المسجد هناك إنّما هو عبادة الله تعالى بجوار مثوى أحد أحبّائه وأوليائه الصالحين الّذي منح البركة والشرف لتلك الأرض الّتي دُفن فيها.

وبعبارة أُخرى: إنّ الهدف من تشييد المساجد هناك هو التشجيع على أداء الفرائض الشرعية والعبادات، قبل زيارة ذلك القبر أو بعده.

وعلى أساس أنّ زيارة القبور ليست محرّمة ـ حتّى عند الوهّابيّين ـ وكذلك إقامة الصلاة قبل الزيارة أو بعدها، فلا معنى للقول بحرمة بناء المسجد ـ بجوار قبور الصالحين ـ لعبادة الله وأداء فرائضه الشرعية.

إنّ التأمّل في قصة أصحاب الكهف يكشف لنا عن أنّ بناء المسجد بجوار



القبر كان سُنّة متَّبعة عند الأُمم والشرائع السابقة، والقرآن الكريم يشير إلى تلك السنّة من دون أيّ ردّ أو نقد.

وقد سبقت الإشارة إلى أنّ أصحاب الكهف عندما انكشف خبرهم ـ بعد ثلاثمائة وتسع سنين ـ اختلف الناس في نوعيّة احترامهم وتكريمهم وانقسموا إلى قسمين:

١. قسم قالوا: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنياناً﴾.

وذلك لكي يكون تخليداً لذكراهم.

٢. والقسم الثاني ـ الّذي كسب الموقف في النهاية ـ دعا إلى بناء المسجد على الكهف كي يكون مركزاً لعبادة الله تعالى، بجوار قبور أُولئك الذين رفضوا عبادة غير الله وخرجوا من ديارهم هاربين من الكفر، ولاجئين إلى توحيد الله وطاعته.

وقد أجمع المفسّرون على أنّ الاقتراح الأوّل كان من المشركين، بينما الاقتراح الثاني كان من المؤمنين الموحّدين[1] ولهذا يقول القرآن الكريم:

﴿... قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾.[2]

وجاء في التاريخ أنّ العثور على أصحاب الكهف وانكشاف أمرهم كان في عصر انتصار التوحيد على الشرك، وكان قادة المشركين ـ الداعين إلى عبادة الأصنام ـ مندحرين مغلوبين، فاقتراح بناء المسجد جاء من المؤمنين بالله الموحّدين له سبحانه. فإذا كان بناء المسجد على قبور الصالحين أو بجوارها علامة على الشرك، فلماذا صدر هذا الاقتراح من المؤمنين؟!

١. راجع تفسير الكشاف: للزمخشري، وغرائب القرآن: للنيشابوري وغيرهما.
٢. الكهف: ٢١.

ولماذا ذكر القرآن اقتراحهم من دون أيّ نقدٍ أو ردّ؟!

أليس ذلك دليلاً على الجواز؟

وليس صحيحاً ـ قطعاً ـ أن يذكر الله تعالى كلاماً للمشركين ويمرّ عليه بدون نقد إجمالي أو تفصيلي. أو يذكر اقتراحاً للمؤمنين فيه رائحة الشرك من دون إيعاز إلى ردّه.

إنّ هذا «تقرير» من القرآن على صحّة اقتراح أُولئك المؤمنين، وهذا يدلّ على أنّ سيرة المؤمنين الموحّدين في العالم كلّه كانت جارية على هذا الأمر، وكان يُعتبر عندهم نوعاً من الاحترام لصاحب القبر وتبرّكاً به.

لقد كان الأولى للوهّابيّين أن يعرضوا المسألة على القرآن أوّلاً، ثمّ يبحثوا هنا وهناك عن حديث من الأحاديث الشريفة.

وفيما يلي نذكر ما تمسّكوا به في هذا المجال، لتقف على ضعفه وبطلانه:

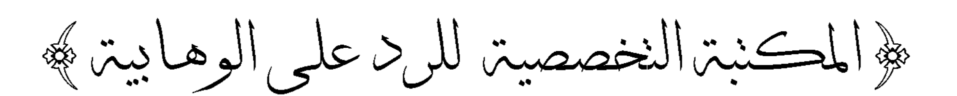
أدلّة الوهّابيّين على حرمة بناء المساجد بجوار قبور الصالحين

لقد تمسّك الوهّابيّون بمجموعة من الأحاديث على حرمة بناء المسجد عند قبور الصالحين، وفيما يلي نذكر تلك الأحاديث مع المناقشة والتحقيق:

ذكر البخاري في صحيحه ـ باب كراهة اتخاذ المساجد على القبور ـ هذين الحديثين:

١. لمّا مات الحسن بن الحسن بن عليّ، ضربت امرأته القُبّة على قبره سنة، ثمّ رفعَتْ، فسمِعُوا صائحاً يقُول: ألا هَلْ وَجَدوا ما فَقَدوا؟ فأجابهُ الآخَر: بل يَئِسُوا فانْقَلَبُوا.

٢. لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصارىٰ اتَّخذوا قُبور أنبيائِهِم مَسْجِداً.



قـالـت عـائشـة: وَلَـولا ذٰلِكَ لأبْـرزُوا قَبـرَه، غَيْـرَ أنّي أخشـىٰ أن يُتَّخَـذ مَسْجداً.(١)

وقد ذكر مسلـم في صحيحه هذا الحديث الثاني مـع اختلاف يسير، وذكر أيضاً:

٣. ... ألا وَإنَّ من كـانَ قَبْلَكُمْ كـانُوا يَتَّخِـذُونَ قُبورَ أنبيـائِهِمْ وَصـالِحيهِمْ مَساجِدَ، ألا فَلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَساجِدَ، إنّي أنهاكُمْ عنْ ذٰلِكَ.(٢)

٤. إنّ أُمّ حَبيبَة وأُمّ سَلَمَـة ذَكَرَتـا كَنيسَةً رَأَيْنَهـا في الحَبَشة، فيهـا تَصاويـر، لِرَسُـول الله. فَقالَ رَسُولُ الله: إنّ أُولئِكَ إذا كـانَ فيهِمُ الرَّجُل الصّـالحَ فماتَ، بَنُوا عَلىٰ قَبْرِهِ مَسْجِـداً وَصَـوَّرُوا فيــهِ تِلْكَ الصُّـوَر، أُولئِـكَ شِرارُ الْخَلْـقِ عِنْـدَ اللهِ يَـومَ القِيامَة.(٣)

ويروي النسائي ــ في سننه باب التغليظ في اتخاذ السُّرج على القبـور ـ عن ابن عبّاس:

٥. لَعَن رَسُولُ الله ﷺ زائراتِ الْقُبُور والمُتَّخذينَ عَلَيها الْمَساجِدَ والسُّرج.(٤)

وترى ابن تيميّة ـ الّذي يعتبر المؤسّس لهذه العقـائد الباطلة، وتلميذه محمّد ابن عبـد الوهّـاب ـ يستنـد إلى هذه الأحاديـث في حرمـة بناء المسجـد على قبور الصالحين أو بجوارها، فيقول:

«قال علماؤنا: لا يجوز بناء المسجد على القبور».(٥)

---

١. صحيح البخاري: ٢/ ١١١، كتاب الجنائز؛ السُّنن للنسائي: ٢/ ٨٧١، كتاب الجنائز.

٢. صحيح مسلم: ٢/ ٦٨.

٣. صحيح مسلم: ٢/ ٦٦، كتاب المساجد.

٤. السُّنن للنسائي: ٤/ ٧٧، طبعة مصطفى الحلبي.

٥. زيارة القبور: ١٠٦.

تحقيق في معنى الأحاديث

والآن يجب التحقيق والتأمّل في نصوص هذه الأحاديث، لنقف على مدلولها الصحيح.

قبل كلّ شيء، يجب أن نعلم ـ كأصلٍ عام ـ أنّه كما تكون آية قرآنية مفسِّرة لآية أُخرى، كذلك الأحاديث يكون أحدها مفسِّراً للآخر وموضّحاً وكاشفاً عن غموضه.

لقد تمسّك الوهّابيّون بظاهر حديثٍ واحد، واستنتجوا منه حرمة بناء المسجد على قبور الصالحين أو بجوارها، في حين أنّهم لو كانوا يصهرون الأحاديث كلّها في بوتقة واحدة، لكانوا يفهمون ما عناه الرسول الأكرم ﷺ.

هؤلاء أغلقوا على أنفسهم باب الاجتهاد، ممّا أدّى بهم إلى تفسير كثير من الأحاديث تفسيراً خاطئاً.

أقول: إنّ ما تمسّك الوهّابيّون به ـ على حرمة بناء المسجد عند القبر ـ من أحاديث إنّما يكون مقبولاً إذا كانت أسناده صحيحة ورواتها ثقاتاً، وإلاّ فلا تصلح تلك الأحاديث للاستدلال أبداً.

وبما أنّ التحدّث عن أسناد كلّ هذه الأحاديث يؤدّي إلى إطالة الكلام، لهذا نختصر الحديث عمّا تضمّنته تلك الأحاديث فنقول:

أمّا الحديث الأوّل وهو: «لمّا مات الحسن بن الحسن ضربت امرأته القبّة على قبره...» إلى آخره، فهو نقيضٌ لمذهب الوهّابيّين، إذ أنّه دليل على جواز نصب المظلّة والقبّة على القبر، والوهّابيّون يُحرّمون مطلق الظِّلال، سواء كان مظلّة أو قُبّة وبناء.

فهذا الحديث يدلّ على جواز نصب المظلّة وإقامة القبّة على القبر، ولو كان

ذلك حراماً لما صدر من امرأة الحسن بن الحسن، لأنّه كان بمرأى ومسمع من التابعين وفقهاء المدينة.

ولعلّها نصبت تلك القبّة لأجل زيارة القبر وتلاوة القرآن عنده، وقاية من الحرّ والبرد وغيرهما.

وأمّا قول الراوي: «فسمعوا صائحاً يقول...» فهو أشبه بقول غير الصالح، لأنّه نوع من الشماتة ـ والشماتة ليست من أخلاق الصالحين ـ ومثله في ذلك ما أجابه الصائح المزعوم الآخر.

إنّ إقامة تلك المرأة على قبر زوجها الفقيد لم يكن على أمل عودته إلى الحياة، حتّى يقال: إنّها يئست، بل كان لتلاوة القرآن وغيره.

والخلاصة: إنّ قول ذلك الصائح المزعوم وجواب الآخر ليس حجّة شرعية، إذ ليس من كتاب الله ولا من السنّة الشريفة ولا هو كلام معصوم.

وأمّا بالنسبة إلى الأحاديث الّتي تلعن اليهود والنصارى وتُحذّر المسلمين من التشبّه بهم، فنقول:

إنّ التعرّف على مغزى هذه الأحاديث يتوقّف على معرفة ما كان يقوم به اليهود والنصارى عند قبور أنبيائهم، ذلك لأنّ النبيّ ﷺ إنّما نهى عن القيام بما كان يقوم به اليهود والنصارى، فإذا عرفنا عملهم، عرفنا ـ بالتّبع ـ الحرام المنهيّ عنه.

أقول: إنّ هنا قرائن شاهدة على أنّ اليهود والنصارى كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم قبلةً لهم تصرفهم عن التوجّه إلى القبلة الواجبة، وأكثر من ذلك... كانوا يعبدون أنبياءهم بجوار قبورهم بدل أن يعبدوا الله الواحد القهار، أو كانوا يجعلون أنبياءهم شركاء مع الله سبحانه في العبادة.

فإذا كـان المعنى ـ في تلـك الأحاديث ـ أن لا تتخذوا قبور الصـالحين قبلة لكم، أو: لا تجعلوهم شركـاء مع الله تعالى في العبادة، فلا يمكن الاستـدلال ـ بأيّ وجه ـ على حرمـة البناء على قبورهـم أو عندهم، لأنّ الـزائرين لا يتّخـذون تلك القبور قبلة لهم ولا يعبدونهم ولا يجعلونهم شركاء في العبادة، بل كلّهم مؤمنون بالله موحّـدون له، ويتـوجّهون ـ في صلـواتهم ـ إلى الكعبة المقـدَّسة، والهدف مـن بناء المسجد عند تلك القبور هو التبرّك بالأرض الّتي احتضنت أجسادهم الطاهرة.

فالمهـم هو أن يثبـت لنا أنّ هـدف هذه الأحـاديث مـن عدم اتخاذ القبـور مساجد هو ما ذكرناه، وإليك القرائن الدالّة على ذلك:

١. الحديـث المذكور في صحيـح مسلم ـ وهو الحديـث رقم ٤ ـ يوضّـح الأحاديث الأُخرى، فحينما قالت أُمّ حبيبـة وأُمّ سلمة ـ زوجتا النبيّ ﷺ بأنّهما رأتا تصاوير في إحدى كنائس الحبشة، قال النبيّ:

«إنّ أُولئـك إذا كـان فيهم الـرجـل الصـالح فمات، بنـوا على قبره مسجـداً وصوّروا فيه تلك التصاوير...».

فالهدف مـن وضع صور الصالحين بجـوار قبورهم إنّما كان لأجـل السجود عليهـا وعلى القبر، بحيـث يكـون القبر والصـورة قبلـة لهم، أو كـانتـا كـالصنـم المنصوب يُعبدان ويُسجدان لهما.

إنّ هذا الاحتمال ـ اللائح من هذا الحديث ـ ينطبق مع ما عليه المسيحيّون من عبادة المسيح ووضع التصاوير والتماثيل المجسّمة له وللسيّدة مريم عليها السلام.

ومـع هذا المعنـى فـلا يمكن الاستـدلال بهذه الأحاديـث على حـرمة بنـاء المسجد على قبور الصالحين أو بجوارها من دون أن يكون في ذلك أيّ شيء يوحي بالعبودية، كما عليه المسيحيّون.

٢. يروي أحمد بن حنبل في مسنده ومالك بن أنس في «الموطّأ» تتمّة لهذا الحديث، وهو أنّ النبيّ ﷺ قال ـ بعد النهي عن اتخاذ القبور مساجد ـ:

«اللَّهُمَّ لاٰ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَد». [١]

إنّ هذا يدلّ على أنّ أُولئك كانوا يتّخذون القبر والصورة الّتي عليها قبلة يتوجّهون إليها، بل صنماً يعبدونه من دون الله سبحانه.

٣. إنّ التأمّل في حديث عائشة ـ الحديث الثاني ـ يزيد في توضيح هذه الحقيقة، حيث إنّها بعد الرواية عن رسول الله ﷺ تقول:

«لولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنّي أخشى أن يُتّخذ مسجداً».

ونتساءل: إقامة الجدار حول القبر يمنع عن أيّ شيء؟!

من الثابت أنّ الجدار يمنع من الصلاة على القبر نفسه وأن يتّخذ وثناً يُعبد، وعلى الأقل لا يكون قبلة يُتوجّه إليها.

أمّا الصلاة بجوار القبر ـ من دون عبادة القبر أو جعله قبلة للعبادة ـ فلا يمنع منها، سواء أكان هناك حاجز يحجز القبر عن الرؤية أم لا، وسواء أكان القبر بارزاً أم لا، وذلك لأنّ المسلمين ـ منذ أربعة عشر قرناً ـ يُصلّون بجوار قبر رسول الله ﷺ في حين أنّهم يتوجّهون إلى الكعبة ويعبدون الله تعالى، فوجود الحاجز لم يمنع من هذا كلّه.

والخلاصة: أنّ تتمة الحديث الثاني ـ الّتي هي من كلام عائشة ـ تُوضّح معنى الحديث، لأنّها تذكر السبب الّذي منع من إبراز قبر رسول الله ﷺ بأنّه للحيلولة دون اتّخاذه مسجداً، ولهذا أُقيم الجدار الحاجز حول القبر الشريف.

فالحاجز يمنع من شيئين:

---

١. مسند أحمد: ٣/ ٢٤٨.

١ . من أن يتحوّل القبر إلى وثن يقـف الناس بين يديه يعبدونـه، فمع وجود الحاجز لا يمكن رؤية القبر فلا يمكن اتّخاذه وثناً للعبادة.

٢ . من أن يُتَّخذ قبلة، ذلك لأنّ اتّخاذه قبلة فرع رؤيته.

فإن قال قائل: إنّ الكعبة قبلة للمسلمين في حين أنّ أكثر المسلمين لا يرونها وقت العبادة.

فالجواب: لا تصـحّ المقارنـة والمقايسـة بين الكعبة والقبر، لأنّ الكعبـة قبلة عامّة وعالميـة لجميع المسلمين في كافّة أرجاء الكرة الأرضيـة، وليست قبلة للعبادة فقط، بل للعبادة وغيرها كالذبيحة والـدفن وما شابه، فهي قبلة في جميع الأحوال، ولا علاقة للرؤية فيها بأيّ وجه.

أمّـا اتّخاذ قبر النبـيّ ﷺ قبلـة، فإنّما يمكن للّـذين يتـواجدون في مسجـده ويقيمـون الصـلاة عنـده، فإبـراز القبر الشريف يمهّـد لهذا الاحتمال ــ على رأي عائشة طبعاً ـ بينما يكون الستر مانعاً عن ذلك.

٤ . ومن القرائن الدالّة على أنّ نهي النبي ﷺ إنّما هو عن عبادة القبور، هو أنّ الكثير من شـارحي صحيح البخاري ومسلـم فسّروا الحديث بمثل مـا فسّرناه، وفهموا منه مثل ما فهمناه... فمثلاً:

يقول القسطلاني ـ في كتاب إرشاد الساري ـ:

إنّما صـوّر أوائلهم الصُّـور ليستـأنسـوا بها ويتـذكّـروا أفعـالهم الصـالحة، فيجتهدوا كاجتهـادهم ويعبدوا الله عند قبورهم، ثمّ خَلَفهم قـوم جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أنّ أسـلافهم كانوا يعبدون هذه الصـور ويُعظّمونها، فحذَّر النبي عن مثل ذلك.

إلى أن يقول:



قال البيضاوي: لمّا كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجّهون في الصلاة نحوها واتّخذوها أوثاناً، مُنع المسلمون في مثل ذلك، فأمّا من اتّخذ مسجداً في جوار صالح وقصد التبرُّك بالقرب منه ـ لا للتعظيم ولا للتوجّه إليه ـ فلا يدخل في الوعيد المذكور.[١]

وليس القسطلاني منفرداً في هذا الشرح، بل يقول به السندي ـ شارح السُّنن للنسائي ـ حيث يقول:

«اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» أي: قبلة للصلاة ويُصلّون إليها، أو بنوا مساجد عليها يُصلّون فيها. ولعلّ وجه الكراهة أنّه قد يُفضي إلى عبادة نفس القبر.[٢]

ويقول أيضاً:

يُحذّر (النبي) أُمّته أن يصنعوا بقبره ما صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم من اتّخاذهم تلك القبور مساجد، إمّا بالسجود إليها تعظيماً لها، أو بجعلها قبلة يتوجّهون في الصلاة إليها.[٣]

ويقول النووي ـ في شرح صحيح مسلم ـ:

قال العلماء: إنّما نهى النبي عن اتّخاذ قبره وقبر غيره مسجداً، خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، فربّما أدّى ذلك إلى الكفر، كما جرى لكثير من الأُمم الخالية، ولمّا احتاجت الصحابة والتابعون إلى الزيادة في مسجد

---

١. إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري. وقد مال إلى هذا المعنى ابن حجر ـ في فتح الباري:٣/ ٢٠٨ حيث قال: إنّ النهي إنّما هو عمّا يؤدّي بالقبر إلى ما عليه أهل الكتاب، أمّا غير ذلك فلا إشكال فيه.

٢. السنن للنسائي:٢/ ٢١ مطبعة الأزهر.

٣. نفس المصدر السابق.

رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون وامتدّت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أُمّهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة، مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه بَنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله، لئلاّ يظهر في المسجد فيصلّي إليه العوام...

ولهذا قالت «عائشة» في الحديث: ولولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنّه خُشي أن يُتّخذ مسجداً.(١)

ويقول شارح آخر:

إنّ حديث عائشة يرتبط بالمسجد النبوي قبل الزيادة فيه، أمّا بعد الزيادة وإدخال حجرتها فيه، فقد بنوا الحجرة بشكل مثلّث كي لا يتمكن أحد من الصلاة على القبر...

إنّ اليهود والنصارىٰ كانوا يعبدون أنبياءهم بجوار قبورهم أو يجعلونهم شركاء في العبادة.

أقول: مع هذه القرائن ومع ما فهمه شُرّاح الحديث لابدّ من القول به، ولا يمكن استنتاج غير ذلك أو الفتوى بغيره.

ومع غضّ النظر عن هذه القرائن، فإنّنا نعالج المسألة بما يلي:

١. إنّ مورد الحديث هو ما إذا كان المسجد مبنيّاً فوق القبر، فلا علاقة له بالمشاهد المشرّفة، لأنّ المسجد ـ في كلّ المشاهد ـ ما عدا مسجد النبي ﷺ إنّما هو بجوارها لا عليها، بشكل ينفصل أحدهما عن الآخر.

وبعبارة أُخرى: هناك حرم وهناك مسجد، فالحرم خاصٌّ للزيارة والتوسّل إلى الله تعالى بذلك الوليّ الصالح، والمسجد ـ بجواره ـ للصلاة والعبادة، فالمشاهد المشرّفة ـ في هذه الحالة ـ خارجة عن مفاد الحديث ومعناه ـ على فرض أن يكون

١. شرح صحيح مسلم للنووي: ٥/ ١٣ـ ١٤.

مفاده ما يدّعيه الوهّابيّون ـ.

وبعد هـذا كلّه ... كيف يمكن القول بحـرمة بناء المسجـد بجوار القبر أو كـراهتـه في حين أنّنـا نـرى بـأعيننـا أنّ مسجـد رسـول الله ﷺ يقع بجـوار قبره الشريف؟!

إذا كانت الصحـابة كالنجوم ويجب الاقتـداء بهم، فلماذا لا يُقتدىٰ بهم في هذا المجـال؟! إنّ أُولئك زادوا في المسجـد زيادات كثيرة بحيث استقـرَّ قبر النبيّ ﷺ في وسط المسجد، بعد أن كـان المسجد في الجانب الشرقي من القبر الشريف وبسبب الزيادات الكثيرة دخل الجانب الغربي من القبر أيضاً في المسجد.

فإذا كان بناء المسجد بجوار قبور الصالحين حراماً فلماذا أحدث المسلمون هذه الزيادات فيه من جميع أطرافه؟!

فهل معنى الاقتداء بـ«السَّلف» و«السَّلفية» ـ الّتي ينادي بها الوهّـابيّون ـ هو الاقتداء بهم في موضوع واحد وترك الموارد الأُخرى؟!

ومن هنا نعرف أنّ ما قاله ابن القيّم من «أنّ القبر والمسجد لا يجتمعان معاً» مخالف لسيرة المسلمين السَّلَف ولا أساس لكلامه من الصحّة أبداً.

٢. وفي خاتمة المطاف نذكر أمرين:

الأوّل: إنّ كلّ ما يستفاد مـن هذه الأحاديث ـ على فرض صحّتهـا ـ هو أنّ النبيّ ﷺ نهى عن بناء المسجـد على قبور الصالحين أو بجـوارها، ولكن لا يـوجد دليل قطعي يثبت أنّ هذا النهي هو نهيٌ تحريمي، بل يحتمل أن يكون نهياً تنزيهيّاً ـ وبالاصطلاح ـ كراهيّاً، وهذا بـالضبط ما استنبطه البخـاري في صحيحه حيث ذكر هذه الأحاديث تحت عنوان: «باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور».[1]

---

١. صحيح البخاري:٢/ ١١١.

ويشهد لذلك أيضاً أنّ النهي مقرون بلعن «زائرات القبور».(١)

ومن الثابت أنّ زيارة القبر للمرأة مكروه ـ بسبب بعض الأُمور ـ لا حرام. كيف؟! وقد كانت فاطمة سيدة نساء العالمين تزور قبر عمّها حمزة في كلّ أُسبوع.(٢)

وقد زارت السيدة عائشة قبر أخيها عندما وردت مكة المكرمة(٣) إلى غير ذلك من الدلائل القاطعة على أنّه تجوز للمرأة زيارة القبور.

فإذا كان النبي ﷺ يلعن زائرات القبور، فلا يدلّ اللعن على الحرمة، لأنّ كثيراً من المكروهات ورد اللعن على مرتكبها ـ في الأحاديث ـ و الهدف من اللعن هو شدّة الكراهية والبعد عن رحمة الله تعالى، فمثلاً جاء في الحديث:

«لعن الله ثلاثة: آكل زاده وحده، والنائم في بيت وحده، وراكب الفلاة وحده».(٤)

مع العلم أنّ هذه الثلاثة ليست محرّمة.

وفي ختام هذا الفصل نؤكّد على أنّ بناء المساجد على قبور الصالحين كانت سُنّة مشهورة في صدر الإسلام.

يقول السمهودي في حديث ذكر فيه وفاة السيّدة فاطمة بنت أسد أُمّ الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«فلمّا توفيت خرج رسول الله ﷺ فأمر بقبرها فحُفر في موضع المسجد الّذي يُقال له اليوم: قبر فاطمة».(٥)

١. السُّنن للنسائي: ٣/ ٧٧، طبعة مصر.

٢. سيوافيك مصدره.

٣. سيوافيك مصدره.

٤. من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٣٦٤؛ كنز العمال: ١٦/ ٤٠٢؛ مسند أحمد: ٢/ ٢٨٧.

٥. وفاء الوفا: ٣/ ٨٩٧، تحقيق محمّد محيي الدين.



ويقصد السمهودي أنّ موضع قبر فاطمة بنت أسد تحوّل بعد ذلك إلى مسجد. ويقول أيضاً:

«إنّ مصعب بن عمير وعبد الله بن جحش دُفنا تحت المسجد الّذي بُني على قبر حمزة».(١)

وقد كان ذلك المسجد موجوداً حتّى احتلال الوهّابيّين لهذه البقاع المقدّسة، حيث عمدوا إلى هذا المسجد ـ ومساجد وآثار كثيرة ـ فهدموها بمعاول الحقد.

الثاني: انّ تاريخ اليهود لا يتفق مع مضامين تلك الروايات أساساً، لأنّ سيرتهم قد قامت على قتل الأنبياء وتشريدهم وإيذائهم إلى غير ذلك من أنواع البلايا التي كانوا يصبّونها على أنبيائهم.

ويكفي في ذلك قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ فَقيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَريق﴾.(٢)

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَبِالَّذي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ﴾.(٣)

وقال سبحانه: ﴿فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآياتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ...﴾.(٤)

أفتزعم انّ أُمّة قتلت أنبياءها في مواطن مختلفة تتحول إلى أُمّة تشيد المساجد على قبور أنبيائها تكريماً وتبجيلاً لهم.

---

١. وفاء الوفا: ٣/ ٩٢٣ و ٩٣٦.

٢. آل عمران: ١٨١.

٣. آل عمران: ١٨٣.

٤. النساء: ١٥٥.

الفصل الرابع

زيارة القبور

على ضوء الكتاب والسنّة

لقد أفتى علماء الإسلام وفقهاء الشريعة بجواز زيارة القبور ـ وخاصّة قبور الأنبياء والصالحين ـ استناداً إلى مجموعة من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وبالإضافة إلى الجواز فإنّهم أفتوا باستحبابها وفضيلتها.

أمّا الوهّابيّون فإنـّهم ـ كما يبدو ـ لا يحرّمون أصل الزيارة، بل يحرّمون السفر وشدّ الرحال إلى زيارة قبور الصالحين. فالبحث هنا في مرحلتين:

١. الزيارة.

٢. السفر للزيارة.

زيارة القبور

ممّا لا شكّ فيه أنّ زيارة القبور تنطوي على آثار أخلاقية وتربوية هامّة، نشير إليها ـ مختصراً ـ فيما يلي:

إنّ مشاهدة هذا الوادي الهادئ الّذي يضمّ في أعماقه مجموعة كبيرة من الذين عاشوا في هذه الحياة الدنيا ثمّ انتقلوا إلى الآخرة، وهم سواء... الغني والفقير، القوي والضعيف، ولم يصحبوا معهم سوى ثلاث قِطَع من القماش فقط.

إنّ مشاهدة هـذا المنظر يهزّ الإنسان قلباً وروحاً، ويخفّـف فيه روح الطمع والحرص على الدنيا وزخارفها وشهواتها، ولو نظر الإنسان إليها بعين الاعتبار لغيّر سلوكه في هذه الحياة، واعتبر لآخرتـه، وراح يخاطب نفسه: إنّ هذه الحياة المؤقتة لابدّ أن تـزول، وإنّ الفترة الّتي أعيشها لابـدّ أن تنتهي ويكـون مصيري إلى حفرة عميقة، تتراكم عليّ تلال من التراب وهناك الحسـاب، إمّا ثواب وإمّا عذاب، فلا تستحقّ هذه الحياة المؤقّتة أن يجهد الإنسان نفسه من أجل المال والجاه والمنصب، فيظلم هذا ويؤذي ذلك، ويرتكب الجرائم والمنكرات.

إنّ نظرة تأمّل إلى هذا الوادي الساكن ترقّق القلب مهما كان قاسياً، وتُسمع الإنسان مهما كان صُماً، وتُفتح العيون مهما كانت حالكة، وكثيراً ما تدفع بالإنسان إلى إعادة النظـر في سلوكه وحيـاته، والشعور بـالمسؤوليات الكبيرة أمـام الله تعالى وأمام الناس.

يقول الرسول الأعظمﷺ:

١. «زُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّها تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَة».(١)

بالرغم من أنّ مسألة زيارة القبور ليسـت بحاجة إلى إقامة الدليل والبرهان على صحّتها وضرورتها، ولكننـا نضطر إلى التحدّث عنها لأُولئـك الذين يتـوقّفون فيها.

القرآن وزيارة القبور

إنّ الله تعالى ينهى حبيبـه محمّداً ﷺ عن الصلاة على جنازة المنـافق والقيام على قبره، فيقول سبحانه:

---

١. سنن ابن ماجة:١/ ١١٣، باب ما جاء في زيارة القبور.

﴿وَلا تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ﴾.(١)

فالآية تسعى لهدم شخصية المنافق، وهزّ العصا في وجوه حزبه ونظائره، والنهي عن هذين الأمرين بالنسبة للمنافق وبيان انّ هذين من خصائص المؤمنين لا للمنافقين.

والآن يجب أن ننظر في قوله تعالى: ﴿ولاٰ تَقُمْ على قَبْرِهِ﴾ ما معناه؟

هل المعنى هو القيام وقت الدفن فقط حيث لا يجوز ذلك للمنافق ويستحبّ للمؤمن؟ أم المعنى أعمّ من وقت الدفن وغيره؟

الجواب: نظر بعض المفسّرين إلى الآية نظرة ضيّقة فقال بالقول الأوّل، ولكنّ بعضاً آخرين ـ كالبيضاوي وغيره ـ نظروا إليها نظرة واسعة فقالوا: إنّ النهي في ﴿لاٰ تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ﴾ هو عن الدفن والزيارة. والتدقيق وإمعان النظر في الآية الكريمة يسوقنا إلى هذا المعنى الأعم، وذلك لأنّ الآية تتشكّل من جملتين:

الأُولى: ﴿لاٰ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً﴾.

إنّ لفظة «أحَدٍ» بحكم ورودها في سياق النفي تفيد العموم والاستغراق لجميع الأفراد، ولفظة «أبداً» تفيد الاستغراق الزمني، فيكون معناها: لا تُصلّ على أحدٍ من المنافقين في أيّ وقت كان.

فمع الانتباه إلى هذين اللفظين نعرف ـ بوضوح ـ أنّ المراد من النهي عن الصلاة على الميّت المنافق ليس خصوص الصلاة على الميّت عند الدفن فقط، لأنّها ليست قابلة للتكرار في أزمنة متعدّدة، ولو أُريد ذلك لم تكن هناك حاجة إلى لفظة «أبداً» بل المراد من الصلاة في الآية مطلق الدعاء والترحّم سواء أكان عند

١. التوبة:٨٤.

الدفن أم بعده.

فإن قال قائل: إنّ لفظة «أبداً» تأكيد للاستغراق الأفرادي لا الزماني.

فالجواب بوجهين:

١. إنّ لفظة «أحدٍ» أفادت الاستغراق والشمول لجميع المنافقين.

٢. إنّ لفظة «أبداً» تُستعمل في اللغة العربية للاستغراق الزماني، كما في قوله تعالى:

﴿... وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ...﴾.[1]

فالنتيجة: أنّ المقصود هو النهي عن الترحّم على المنافق وعن الاستغفار له، سواء كان بالصلاة عليه أو بغيرها. سواء كان حين الدفن أم بعده.

الثانية: ﴿لا تقُم علىٰ قَبرِهِ﴾.

إنّ مفهوم هذه الجملة ـ مع الانتباه إلى أنّها معطوفة على الجملة السابقة ـ هو: لا تقم على قبر أحدٍ منهم أبداً، لأنّ كلّ ما ثبت للمعطوف عليه من القيد ـ أعني: «أبداً» ـ يثبت للمعطوف أيضاً، ففي هذه الحالة لا يمكن القول بأنّ المقصود من القيام على القبر هو وقت الدفن، فقط، لأنّ المفروض عدم إمكان تكرار القيام على القبر وقت الدفن، ولفظة «أبداً» المقدَّرة في هذه الجملة الثانية تفيد إمكانية تكرار هذا العمل، فهذا يدلّ على أنّ القيام على القبر لا يختصّ بوقت الدفن. بل يعمّه وغيره فهو حرام في حقّ المنافق وجائز في حقّ المؤمن.

فيكون معنى الآية الكريمة: إنّ الله تعالى ينهى نبيّه ﷺ عن مطلق الاستغفار والترحّم على المنافق، سواء كان بالصلاة أو مطلق الدعاء، وينهى عن مطلق القيام على القبر، سواء كان عند الدفن أو بعده.

---

١. الأحزاب:٥٣.

ومفهوم ذلك هو أنّ هذين الأمرين يجوزان للمؤمن.

وبهذا ثبت جواز زيارة قبر المؤمن وجواز الصلاة والدعاء على روحه، حتّى بعد مئات السنين.

هذا بالنسبة إلى المرحلة الأُولى وهي أصل الزيارة من وجهة نظر القرآن، وأمّا بالنسبة إليها من ناحية الأحاديث فإليك بيانها:

الأحاديث الشريفة وزيارة القبور

يستفاد من الأحاديث الشريفة ـ الّتي رواها أصحاب الصحاح والسُّنن ـ أنَّ النبيّ ﷺ نهى عن زيارة القبور نهياً مؤقّتاً لأسباب خاصّة، ثمّ رفع النهي ورغّب في الزيارة.

ولعلّ علّة النهي المؤقّت هي أنّ الأموات كانوا مشركين وعبدة للأصنام، وقد قطع الإسلام كلّ العلاقات مع الشرك وأهله، فنهى النبي ﷺ عن زيارة الأموات.[١]

ويحتمل أن تكون العلّة شيئاً آخر، وهو أنّ المسلمين كانوا حديثي العهد بالإسلام، فكانوا ينوحون على قبور موتاهم نياحة باطلة تُخرجهم عن نطاق الشريعة، ولمّا تمركز الإسلام في قلوبهم وأنسُوا بالشريعة والأحكام، ألغى النبي ﷺ بأمر الله تعالى النهي عن زيارة القبور، لما فيها من الآثار الحسنة والنتائج الطيّبة، ولهذا روى أصحاب الصحاح والسُّنن أنّه ﷺ قال:

١ . «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زيارَة الْقُبُور، فَزُورُوها فَإنّها تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيا وتُذَكِّرُ

---

١. ويؤيّد هذا الاحتمال ما كان يقوله ﷺ عند زيارته لأهل القبور: «دار قوم مؤمنين» كما سيأتي تفصيله.

الآخِرَة».(١)

وعلى هذا الأساس كان ﷺ يزور قبر أُمّه السيّدة آمنـة بنت وهب ـ رضوان الله عليها ـ و كان يأمر الناس بزيارة القبور، لأنّ زيارتها تُذكّر الآخرة.

وقد روى مسلم في صحيحه:

٢. «زَارَ النَّبِيُّ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكىٰ وَأَبْكىٰ مَنْ حَـوْلَهُ ... وَقالَ: استَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَها، فَأَذِنَ لي، فَزُوروا الْقُبُورَ فَإِنّها تُذَكِّرُكُمُ الْمَوتَ».(٢)

وقالت عائشة:

٣. «إنّ رسول الله رَخَّصَ في زِيارَة الْقُبُورِ».(٣)

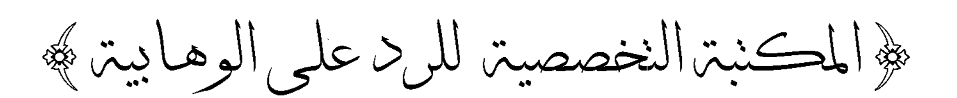
وقالت: إنّ النبيّ ﷺ قال:

---

١. السُّنن لابن مـاجة:١/ ١١٤، طبعة الهند بـاب ما جاء في زيارة القبـور ؛ سنن الترمذي:٣/ ٢٧٤، أبواب الجنائز المطبوع مع شرح ابن العربي المالكي.
يقول الترمذي ـ بعد نقل هذا الحديث عن بريدة ـ : «حديث بريدة صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم، ولا يرون بزيارة القبور بأساً، وهو قول ابن المبارك والشافعي و إسحاق».
وفي هذا المجال يحسن مراجعة المصادر الآتية:
أ. صحيح مسلم:٣/ ٦٥ باب استئذان النبي ربّه عزّوجلّ في زيارة قبر أُمّه.
ب. سنن أبي داود:٢/ ١٩٥، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور.
ج. صحيح مسلم:٤/ ٧٣، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور.

٢. سنـن أبي داود:٢/ ١٩٥، كتـاب الجنـائز طبعـة مصر؛ صحيـح مسلم:٣/ ٦٥، بـاب استئـذان النبي ﷺ ربّه عزّوجلّ في زيارة قبر أُمّه؛ سنن ابن ماجة:١/ ١١٤.
أقول: إنّ السبب الّذي يذكرونه لاستئذان النبيّ ﷺ زيارة قبر أُمّه هو ـ كما يزعمون ـ لأنّ أُمّه كانت مشركة، ولكن الثابت الذي لا ريب فيه هو أنّ أُمّ النبيّ ﷺ كانت كآبائه وأجداده من أهل الإيمان والتوحيد، من هنا فانّ هذا التوجيه والتفسير مخالف لأُصول العقيدة الإسلامية ويمكن أن يكون له تفسير آخر.

٣. سنن ابن ماجة:١/ ١١٤.



٤. «فَأَمرَني رَبّي أن آتي الْبَقيعَ فَأستَغْفِرْ لَهُمْ».

قلت: كَيْفَ أَقُولُ يا رَسُولَ الله؟

قال: قُولي: السَّلامُ عَلىٰ أهلِ الدِّيارِ مِنَ الْمُؤْمِنينَ وَالْمُسْلِمينَ، يَرْحَمُ الله الْمُسْتَقدِمينَ مِنّا وَالمُسْتأخِرينَ، وَإنّا إن شاء الله بِكُمْ لاحِقُونَ». [1]

وجاء في أحاديث أُخرى نصّ الكلمات الّتي كان رسول الله ﷺ يقولها عند زيارة القبور، وهي:

٥. «السَّلامُ عَلَيْكُمْ دارَقَوم مُؤْمِنينَ، وَإنّا وإيّاكُمْ مُتَواعِدُونَ غَداً وَمُواكِلُونَ، وَإنّا إن شاء الله بِكُمْ لاحِقُونَ اللّهمّ اغْفِرْ لأَهْلِ بَقيعِ الْغَرقَد». [2]

وجاء في حديث آخر نصّ الكلمات بما يلي:

«السَّلامُ عَلَيْكُمْ أهْلِ الدِّيارِ مِنَ الْمُؤْمِنينَ وَالْمُسْلِمينَ وَإنّا إن شاء الله بِكُمْ لاحِقُونَ، أَنْتُمْ لَنا فَرطٌ وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ، أسألُ الله الْعافِيَةَ لَنا وَلَكُمْ». [3]

وفي حديث ثالث:

«السَّلامُ عَلَيْكُمْ دارَ قَوْمٍ مُؤْمِنينَ، وإنّا إنْ شاءَ الله بِكُمْ لاحِقُونَ». [4]

ويستفاد من حديث عائشة أنّ النّبيّ ﷺ كان يخرج إلى البقيع في آخر الليل من كلّ ليلة، ويقول:

«السَّلامُ عَلَيْكُمْ دارَ قَوم مُؤْمِنينَ، وأتاكُمْ ما تُوعَدُونَ غَداً مؤجّلُونَ، وَإنّا إنْ شاء الله بِكُمْ لاحِقُونَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لأهْلِ بَقيع الْغَرْقَدِ». [5]

١. صحيح مسلم:٣/ ٦٤، باب ما يقال عند دخول القبور؛ السنن للنسائي:٣/ ٧٦.

٢. السنن للنسائي:٤/ ٧٦ـ ٧٧.

٣. نفس المصدر السابق.

٤. السنن لأبي داود:٢/ ١٩٦.

٥. صحيح مسلم:٣/ ٦٣، باب ما يقال عند دخول القبر.

ويستفاد من حديث آخر أنّ النبيّ ﷺ كان يزور المقابر مع جماعة من أصحابه، ويُعلّمهم كيفية الزيارة:

«كانَ رَسُولُ الله يُعَلِّمُهُمْ ــ إذا خَرَجُوا إلىٰ الْمَقابِرِ ــ فَكانَ قائِلُهُمْ يَقُولُ: السَّلامُ عَلىٰ أَهْلِ الدِّيارِ ــ أو ــ السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيارِ مِنَ المؤمنينَ وَالْمُسْلِمينَ، وإنّا إنْ شاء الله للاحِقُونَ، أسألُ الله لَنا ولَكُمُ الْعافِيَةَ».[1]

النساء وزيارة القبور

المسألة الأخيرة الّتي ينبغي التحدّث عنها هي: زيارة النساء للقبور، و قد روي في بعض الأحاديث أنّ رسول الله ﷺ نهى عن زيارة النساء للقبور:

«لَعَنَ رَسُولُ الله زَوّارات الْقُبُور».[2]

ولكن يجب الانتباه إلى أنّ تحريم النساء من زيارة القبور ــ استدلالاً بهذا الحديث ـ غير صحيح، وذلك لعدّة أُمور:

أوّلاً: إنّ كثيراً من العلماء يعتبرون هذا النهي نهي تنزيه وكراهة، وقد جاءت الكراهة لأسباب خاصّة بذلك الزمان، يشير إليها صاحب كتاب «مفتاح الحاجة في شرح صحيح ابن ماجة» فيقول:

«اختلفوا في الكراهة هل هي كراهة تحريم أو تنزيه؟ ذهب الأكثر إلى الجواز إذا أمِنَت الفتنة».[3]

ثانياً: لقد مرّ عليك ــ في حديث عائشة ــ أنّ النبيّ ﷺ رخّص في زيارةالقبور.[4]

١. صحيح مسلم: ٣/ ٦٥، باب ما يقال عند دخول القبر.

٢. سنن ابن ماجة: ١/ ٤٧٨، كتاب الجنائز الطبعة الأُولى بمصر.

٣. حواشي سنن ابن ماجة: ١/ ١١٤، طبعة الهند.

٤. راجع الحديث رقم ٣.

فلو كـان الترخيص خاصّـاً بالرجـال لكان اللازم أن تـذكر عائشـة ذلك، وتقول: انّ الترخيص خاص بالرجال ولا يعمّ النساء وليس في كلامها ما يدلّ على التخصص.

ثالثاً: وقد مرّ عليك أيضاً أنّ النبيّ ﷺ علّم عائشة ما ينبغي قوله عند زيارة القبور، فلو كانت الزيارة محرمة عليها فما معنى هذا التعليم؟!(١)

كانت عـائشة تزور القبور بعـد رسول الله. يروي الترمذي أنّـه لمّا مات عبد الرحمن بـن أبي بكر ــ شقيق عائشـة ـ في «الحُبْشيّ» حملـوا جثمانه إلى مكّـة ودفنوه فيها، ولمّا جاءت عائشة إلى مكّة ـ من المدينة ـ خرجت لزيارة قبر أخيها وأنشدت بيتين من الشعر في رثائه.(٢)

يقول شـارح صحيح الترمذي ــ الحافظ ابـن العربي المولود سنـة ٤٣٥هـ والمتوفّى سنة ٥٤٣هــ:

«الصحيح أنّ النبيّ ﷺ سمـح للرجال والنساء بزيارة القبـور، والّذي يقول بالكـراهة فإنّما هـو بسبب جزعهـنّ عند القبر وقلّـة صبرهنّ، أو لعدم رعـايتهنّ للحجاب».

رابعاً: يروي البخاري عن أنس أنّه قال:

«مرّ النبيّ ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: إتّقي الله واصبري.

قالت: إليك عنّي فإنّك لم تُصبْ بمصيبتي، ولم تعرفه.

فقيل لها: إنّه النبيّ! فأتت باب النبي... فقالت: لم أعرفك!

---

١. راجع الحديث رقم٤.

٢. سنن الترمذي: ٤/ ٢٧٥، كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة القبور.

فقال ﷺ: إنّما الصبر عند الصدمة الأُولى».[١]

فإذا كانت زيارة القبور محرّمة لنهاها النبيّ ﷺ عن الزيارة، ولكنّك ترى أنّه ﷺ أوصاها بالتقوى والصبر عند المصيبة، ولم ينهاها عن زيارة المقابر.

خامساً: إنّ السيّدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ كانت تخرج إلى زيارة قبر عمّها حمزة ـ في كلّ جمعة أو أقلّ من ذلك ـ وكانت تصلّي عند قبره وتبكي.[٢]

سادساً: يقول القرطبي:

«لم يلعن النبيّ ﷺ كلّ امرأة تزور القبور، بل لعن المرأة الّتي تزور القبور دوماً والدليل على ذلك قوله ﷺ: «زوّارات القبور» وكلمة «زوّار» هي صنيغة المبالغة، وتدلّ على الكرّة والتكرار».[٣]

ولعلّ العلّة في لعن «زوّارات القبور» هي أنّ الإكثار منها يؤدّي إلى ضياع حقّ الزوج ويجرّها إلى التبرّج المنهيّ عنه، ويكون مصحوباً بالبكاء بصوتٍ عال، ولكن لو كانت الزيارة خالية عن كلّ محذور فلا إشكال فيها أبداً، لأنّ تذكّر الموت والآخرة ممّا يحتاج إليه الرجل والمرأة على السواء.

سابعاً: إنّ زيارة القبور ـ في الوقت الّذي تؤدّي إلى الزهد في الدنيا وزخارفها ـ تعود بالنفع على الميّت الراقد تحت أكوام التراب، إذ أنّ الزيارة ـ عادة ـ تكون مقرونة بتلاوة سورة الفاتحة وإهدائها إلى روح ذلك الميّت، وهذه الهديّة هي أفضل ما يقدّمه الإنسان الحيّ إلى روح فقيده الغالي.

يروي ابن ماجة عن النبي ﷺ أنّه قال:

---

١. صحيح البخاري: ٢/ ٧٩، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور.

٢. مستدرك الصحيحين: ١/ ٣٧٧، وفاء الوفا: ٢/ ١١٢.

٣. جاء في سنن أبي داود: «زائرات» بدل «زوّارات».

«إقْرأوا«يس» عَلىٰ مَوتاكُم».[١]

فما هو الفرق بين الرجل والمرأة ـ من هـذه الجهة ـ حتّى تكون زيارة أحدهما جائزة والأُخرى محرّمة، لولا المحذورات الخاصّة المذكورة؟!

والآن...وبعد أن ثبت جواز زيـارة القبور، جـاء دور التحدّث عن الآثـار الحسنـة والنتائج الإيجابيـة لزيـارة مـراقد أوليـاء الله الصالحين، وذلـك في الفصل القادم.

١. سنن ابن ماجة: حديث ١٤٤٨.

الفصل الخامس

النتائج البنّاءة
لزيارة قبور الشخصيّات الدينيّة

إنّ القبور الّتي تحظى باهتمام واحترام المؤمنين بالله في العالم ـ وخاصّة المسلمين ـ هي في الغالب قبور حملة الرسالات الإصلاحية الذين أدّوا مهمّتهم على الوجه المطلوب.

وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١. الأنبياء والقادة الدينيّون الذين حملوا على عاتقهم رسالة السماء وضحّوا ـ من أجلها ـ بالنفس والمال والأحباب، وتحمّلوا أنواع المتاعب والمصاعب من أجل هداية الناس.

٢. العلماء والمفكّرون الذين كانوا كالشمعة تُحرق نفسها لتُضيء للآخرين، وقد عاش هؤلاء حياة الزهد والحرمان، وقدّموا للعالم البحوث القيّمة والتحقيقات الرائعة في مجالات العلم والفكر والطبيعة وعلوم الكون والمخلوقات وغير ذلك.

٣. المجاهدون الثائرون الذين ضاقوا ذرعاً ممّا يعيشه المجتمع من الظلم وسحق الحقوق والتمييز العنصري أو القومي، فثاروا ضدّ الظلم والطغيان وطالبوا بحفظ كرامة الإنسان وأداء حقوقه، وأقاموا صرح العدالة بدمائهم الغالية.

إنّ أيّة ثورة أو تغيير اجتماعي لا يقدّر له النجاح إلاّ بدفع الثمن، وإنّ ثمن الثورة الّتي تستهدف تدمير قصور الظالمين وخنْق أنفاسهم هو الدماء الزكيّة الّتي يُضحّي بها المقاتلون الأبطال لإعادة الحقّ والحرية إلى الوطن الإسلامي.

إنّ الناس يزورون قبور هؤلاء ويذرفون عندها الدموع، ويتذكّرون بطولاتهم وتضحياتهم، ويُسعدون أرواحهم بتلاوة آيات من القرآن الحكيم هدية إليهم، ويُنشدون قصائد في مدحهم وثنائهم وتقدير مواقفهم المشرِّفة.

إنّ زيارة مراقد هذه الشخصيّات هي نوع من الشكر والتقدير على تضحياتهم، وإعلام للجيل الحاضر بأنّ هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحقّ والهدى والفضيلة والدفاع عن المبدأ والعقيدة.

إنّ جزاءهم هو خلود الذكر، الذكر الحسن والثناء الجميل، بالرغم من مرور الزمان على رحيلهم.

من هنا نعرف ضرورة إحياء ذكريات الشخصيّات الدينية، وعلى هذا الأساس ينبغي العمل على إبقاء ذكرياتهم حيّة ساخنة، والمحافظة على آثارهم، وإقامة المهرجانات في ذكرى مواليدهم والحداد والحفلات التأبينية في ذكرى وفاتهم، وعقد المجالس والاجتماعات الكبرى، وإلقاء الخطب المفيدة، وتعريف الناس على تلك الشخصيات الراقية وعلى معتقداتهم الّتي ضحّوا من أجلها، واحترام مراقدهم وتجنُّب كلّ ما يمسّ بكرامتها، لأنّ احترام قبورهم احترام لرسالاتهم وعقائدهم، كما أنّ أيّ نوع من الإهانة والتحقير تجاه مراقدهم هو في الحقيقة إهانة لرسالاتهم وتحقير لشخصيّتهم.

في هذه الأيام عندما يدخل الإنسان مقبرة البقيع لزيارة قبور آل رسول الله ﷺ وقبور قادة الإسلام وحماة الدين والصحابة، يرى تلك القبور في حالة يُرثىٰ

لها من الإهانة والتصغير، ممّا يهتزّ له الضمير وتأخذه الدهشة من قساوة قلوب الزمرة الوهّابيّة الّتي تدّعي حماية الإسلام وصيانته، حيث إنّهم ـ من جانب ـ يذكرون الصحابة بالخير والتمجيد ويثنون عليهم على المنابر، ومن جانب آخر يتركون قبورهم عارية عن كلّ احترام وتكريم. وفي حالة فظيعة من الإهانة والإهمال، ولا يُبالون حتّى لو أفسدت الحيوانات أطراف قبورهم!!!

أمّا لفظة «الشِّرك» و«المشرك» فهي الهديَّة الوحيدة الّتي يُقدّمها الوهّابيّون إلى الحجاج والزائرين، يرمونهم بهذه الكلمات، لأنّ المسلمين يُعظّمون قادة الدين ويُمجّدون أولياء الله الصالحين، فكأنّ الوهّابيّين يُضمِرون الحقد والبغضاء لأولياء الله وقادة دينه.

والآن جاء دور التحدّث عن زيارة مرقد رسول الله ﷺ على ضوء الأدلّة الإسلامية:

زيارة قبر الرسول الأعظم ﷺ

فيما يلي نستعرض بعض الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة الّتي تدعو إلى زيارة قبر رسول الله ﷺ نرجو من القارئ المزيد من التوجّه والانتباه.

شهادة من القرآن

إنّ القرآن الكريم يأمر المذنبين بأن يحضروا عند رسول الله ﷺ ويسألوه أن يستغفر الله لهم، لأنّ دعاء النبي يُستجاب فيهم، فيقول عزّ وجلّ:

﴿ ... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً﴾.(١)

---

١. النساء: ٦٤.

لو كانت هذه الآية هي الوحيدة في هذا المجال، لذهبنا إلى القول بأنّها خاصّة بحياة رسول الله ﷺ وفترة تواجده بين الناس، ولكنّنا نستخلص حكماً عامّاً شاملاً لا يحدّه بالحياة الدنيوية وذلك من خلال ما يلي:

أوّلاً: إنّ القرآن الكريم يُصرّح بحياة الأنبياء والأولياء ــ وجماعات أُخرى ـ في البرزخ[1] ويعتبرهم مُبصرين وسامعين في ذلك العالم، وسوف نشير إلى تلك الآيات عند التحدُّث عن التوسّل بالأرواح المقدّسة.

ثانياً: إنّ الأحاديث الشريفة تُصرّح بأنّ الملائكة تبلّغ خاتم الأنبياء ﷺ سلام مَن يُسلّم عليه، فقد جاء في الصحاح:

«إنّ رسول الله قال: ما مِنْ أحَدٍ يُسَلِّمُ عَليَّ إلاّ رَدَّ اللهُ عَليَّ رُوحي حتّى أرُدَّ عليه السَّلام».[2]

وقال ﷺ:

«صَلُّوا عَليَّ فَإنّ صَلاتكُمْ تَبْلُغني حَيْثُ كُنتُمْ».[3]

ثالثاً: إنّ المسلمين ـ منذ ذلك اليوم ـ فهموا من هذه الآية معنى مطلقاً لا ينتهي بموت رسول الله ﷺ حتى أنّ بعض الأعراب ـ بوحي من أذهانهم الخالصة من كلّ شائبة ـ كانوا يقصدون قبر رسول الله ﷺ ويزورونه ويتلون آية: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفسهُمْ جاءُوكَ** ...﴾ عند قبره المقدّس ويطلبون منه الاستغفار لهم.

وقد ذكر تقيّ الدين السبكي في كتاب «شفاء السقام» و السمهودي في كتاب «وفاء الوفا» نماذج من زيارة المسلمين لقبر رسول الله وتلاوة هذه الآية عند

١. البرزخ: الحياة بعد الموت إلى يوم القيامة.

٢. سنن أبي داود: ١/ ٤٧٠ـ ٤٧١، كتاب الحجّ، باب زيارة القبور.

٣. التاج الجامع للأُصول في أحاديث الرسول بقلم الشيخ منصور علي ناصف: ٢/ ١٨٩.

قبره الشريف، وفيما يلي نذكر بعض تلك النماذج:

روى سفيان بن عنبر عن العتبي ـ و كلاهما من مشايخ الشافعي وأساتذته ـ أنّه قال: كنتُ جالساً عند قبر رسول الله ﷺ فجاء أعرابي فقال:

«السَّلامُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ الله، سَمِعْتُ الله يَقُولُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً﴾ وقدْ جِئْتُكَ مُسْتَغْفِراً مِنْ ذَنْبي، مُسْتَشْفِعاً بِكَ إِلىٰ رَبِّي».

ثمّ بكى وأنشأ يقول:

يـا خيرَمـن دُفنـت في القـاع أعظمُـهُ
فطـاب مـن طيبهـنّ القـاع والأكُـمُ
نفسي الفـداء لقبرٍ أنـت سـاكنُـه
فيـه العفـافُ وفيـه الجودُ والكَـرمُ

ثمّ استغفر وانصرف.[1]

ويروي أبو سعيد السمعاني عـن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّ أعرابياً جاء بعد ثلاثة أيـام من دفن رسول الله ﷺ فرمىٰ بنفسه على القبر الشريف وحثا من ترابه على رأسـه وقال: «يا رسول الله قلت فسمعنا قولـك، ووعيتَ عن الله ما وعينا عنـك، وكان فيما أنـزله عليـك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُـمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسهُـم ...﴾ وقـد ظلمتُ نفسي وجئتك تستغفر لي إلى ربّي».[2]

إنّ كـلّ هـذا يدلّ على أنّ المنـزلـة الـرفيعـة الّتـي منحها الله تعـالى لحبيبـه

١. وفاء الوفا: ٤/ ١٣٦١؛ الدر السّنيّة لأحمد دحلان: ٢١.

٢. الجوهر المنظّم: لابن حجر، وذكره السمهودي في وفـاء الوفـا: ٢/ ٦١٢، و زيني دحـلان في الدرر السّنيّة: ٢١.

المصطفى ﷺ كما صرّحت بها هذه الآية ليست خاصّة بحياته، بل تؤكّد على أنّها ثابتة له بعد وفاته أيضاً.

وبصورة عامّة... يعتبر المسلمون كلّ الآيات النازلة في تعظيم رسول الله واحترامه، عامّة لحياته وبعد مماته، وليس هناك من يُخصّصها بحياته ﷺ.

وقد جاء في التاريخ: لمّا استُشهد الإمام الحسن بن علي عليه السلام وجيء بجثمانه الطاهر إلى مسجد رسول الله ﷺ ظن بنو أُميّة أنّ بني هاشم يريدون دفن الإمام بجوار قبر جدّه المصطفى، فأثاروا الفتنة والضجّة للحيلولة دون ذلك، فتلا الإمام الحسين عليه السلام قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوتِ النَّبِيِّ ... ﴾.[١]

ولم يردَّ عليه أحد ــ حتّى من الأُمويّين ـ بأنّ هذه الآية خاصةً بحياة رسول الله ﷺ.

واليوم ترى الوهّابيّين قد نصبوها على الجدار المقابل لقبر رسول الله ﷺ، وهم يقصدون بذلك المنع من رفع الأصوات هناك.

من هذا المنطلق يمكننا أن نستنتج من هذه الآية معنى واسعاً عامّاً، وهو أنّ للمسلمين اليوم أن يَقِفوا أمام قبر رسول الله ﷺ ويسألوه أن يستغفر الله لهم.

وليس لزيارة رسول الله ﷺ معنى سوى ما تضمّنته هذه الآية وأمثالها. إنّ هذه الآية تدلّ على موضوعين هما:

١. إنّ للإنسان أن يقف عند قبر رسول الله ﷺ بعد وفاته ويسأله أن يستغفر الله له. وسندرس هذا الموضوع مفصّلاً في فصلٍ قادم حول «التوسّل بأولياء الله» إن شاء الله تعالى.

---

١. الحجرات:٢.

٢. إنّ هذه الآية تشهد على جواز زيارة قبر رسول الله ﷺ، لأنّ حقيقة الزيارة لا تعني سوى «حضور الزائر عند المزور» فإذا كان الوقوف عند قبر النبي وسؤاله أن يستغفر الله لنا جائزاً فقد تحقّق أمران:

١. سألناه أن يستغفر الله لنا.

٢. حضرنا عنده وتحدّثنا إليه، والزيارة ليست إلّا هذا.

استدلالٌ آخر

إنّ إجماع المسلمين على حكم من الأحكام الشرعية في العصور المختلفة يُعتبر أوضح دليل على صحّة ذلك الحكم وثباته، وزيارة قبر رسول الله ﷺ هي من مصاديق هذه القاعدة، وتظهر لنا حقيقة الأمر لو راجعنا كتب الحديث والفقه والأخلاق والتاريخ، وخاصّة «مناسك الحجّ» فيها.

وقد ذكر المرحوم العلّامة الأميني استحباب زيارة قبر النبيّ ﷺ من اثنين وأربعين مصدراً من المصادر العلمية الإسلامية، وقد أورد في كتابه الغدير ـ ج ٥، ص ١٠٦ إلى ١٢٩ ـ النصوص والعبارات الخاصّة بهذا الموضوع بدقّة متناهية، ومن الكتب الّتي اعتمدنا عليها في هذا المجال هي كالآتي:

١. «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» بقلم تقيّ الدين السبكي الشافعي (المتوفّى سنة ٧٠٦هـ) وقد ذكر في كتابه هذا جملة من كلمات العلماء في استحباب الزيارة استحباباً مؤكّداً.

٢. «وفاء الوفا» بقلم السمهودي(المتوفّى ٩١١هـ) و قد ذكر فيه أيضاً كلمات العلماء في استحباب الزيارة.

٣. «الفقه على المذاهب الأربعة» تأليف أربعة من علماء المذاهب الأربعة، وقد جمعوا فيه فتاوى أئمّة المذاهب الأربعة المشهورة عند السنّة يقول هؤلاء:



«زيارة قبر النبيّ أفضل المندوبات، ورد فيها أحاديث».(١)

والآن... حان الوقت لذكر بعض الأحاديث الّتي رواها المحدّثون حول زيارة قبر النبيّ ﷺ.

الأحاديث الشريفة حول زيارة قبر الرسول

إنّ الأحاديث الشريفة ـ الّتي رواها المحدّثون من أهل السنّة ـ حول زيارة الرسول الأعظم ﷺ على حدٍّ تُغنينا عن التحقيق في سندها ورواتها، بسبب كثرتها وتواترها، وقد سجّلها الحفّاظ ـ من جميع المذاهب الإسلامية ـ في كتبهم وصحاحهم، وهي بمجموعها تدلّ على أنّ زيارة قبر رسول الله ﷺ كانت من المستحبّات الثابتة لديهم، ولو أردنا أن نذكر كلّ تلك الأحاديث لطال بنا المقام، ونكتفي بذكر بعضها فيما يلي:

١ . عن عبد الله بن عمر: أنّ رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ زارَ قَبْري وَجَبَتْ لَهُ شَفاعَتي».

جاء هذا الحديث في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، ج١، ص ٥٩٠، وقد أفتى علماء المذاهب الأربعة وفقاً لهذا الحديث، وللاطّلاع على مصادره راجع كتاب وفاء الوفا، ج٤، ص ١٣٣٦.

وممّا لا شكّ فيه أنّ حديثاً يرويه الحفّاظ والعلماء منذ منتصف القرن الثاني الهجري حتّى هذا اليوم لا يمكن أن يكون مُزوَّراً لا أساس له.

وقد تناول الشيخ تقيّ الدين السبكي البحث عن هذا الحديث وأسناده

١ . الفقه على المذاهب الأربعة: ١/ ٥٩٠.

ورواته في كتابه القيّم: شفاء السقام[١] وأثبت صحّة هذا الحديث وصوابه.

٢. قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ جاءَني زائراً (لا تَحْمِلُهُ) إلاّ زيارَتي، كانَ حقّاً عَلَيَّ أنْ أكُونَ شَفيعاً لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ».

وقد ذكر هذا الحديث ستة عشر حافظاً ومحدِّثاً في كتبهم، وقد تحدَّث تقي الدين السبكي ـ في كتابه المشار إليه ـ حول أسناده ورواته، وكذلك ذكره السمهودي في كتابه :وفاء الوفا، ج ٤، ص ١٣٤٠.

٣. قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ وَلَمْ يَزُرْني فَقَدْ جَفاني».

وقد روى هذا الحديث تسعة من كبار الشيوخ وحفّاظ الحديث، وذكرهم بالتفصيل السمهودي في كتابه وفاء الوفا، ج ٤، ص ١٣٤٢.

٤. قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ حَجَّ فَزارَ قَبْري بَعْدَ وَفاتي كانَ كَمَنْ زارَني في حَياتي».

وقد روى هذا الحديث خمسة وعشرون شخصاً من أشهر المحدّثين والحفّاظ في كُتبهم ومؤلّفاتهم، وقد تحدّث تقيّ الدين السبكي في كتابه المذكور حول سند هذا الحديث، كما ذكره السمهودي في كتابه، ج ٤، ص ١٣٤٠.

٥. قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ زَار قَبري (أو: من زارني) كُنتُ لَهُ شَفيعاً».

وقد روى هذا الحديث ثلاثة عشر من المحدثين والحفّاظ، وذكرهم السمهودي في كتابه، ج ٤، ص ١٣٤٧.

---

١. ص ٣ـ١١، وهذا الكتاب هو خير ما كُتب من أهل السُّنة ضدّ ابن تيميّة حول تحريمه السفر لزيارة قبر الرسول ﷺ.

٦. قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ زَارَني بَعْدَ مَوْتي فَكَأَنَّما زارَني في حَياتي».

كانت هذه نماذج من الأحاديث الكثيرة الّتي رويت عن رسول الله ﷺ في دعوة الناس إلى زيارة قبره الشريف والتحريض عليها، وقد أحصى المرحوم الشيخ الأميني ــ في كتاب الغدير ـ اثنين وعشرين حديثاً حول هذا الموضوع، وذكر السمهودي ـ في كتابه، ج٤،ص ١٣٣٦ ـ سبعة عشر حديثاً وتحدّث عن أسنادها ورواتها بما لا مزيد عليه.

فإذا كان النبي ﷺ قد دعا الناس إلى زيارة قبره الشريف، فإنّما هو لما فيها من النتائج والآثار والفوائد المادّية والمعنويّة المقرونة بزيارته وزيارة سائر الشخصيات الدينية.

إنّ المسلمين بسبب زيارة قبر النبي ﷺ يتعرّفون على مركز الإسلام وعلى الحوادث الّتي حدثت وتحدث فيه، ومن هناك يكتسبون العلوم والمعارف الإسلامية ويحملونها معهم إلى أطراف الكرة الأرضية.

أدلّة الوهّابيّين على حرمة السفر لزيارة القبور

إنّ الوهّابيّين ــ على ما يبدو ـ يُجوّزون أصل الزيارة، ولكنّهم يحرّمون السَّفر بهدف الزيارة.

يقول محمّد بن عبدالوهاب ـ في الرسالة الثانية من رسائل الهديّة السنيّة ـ :

«تُسنُّ زيارة النبيّ ﷺ إلاّ أنّه لا يُشدّ الرحال إلاّ لزيارة المسجد والصلاة فيه».

والدليل الّذي يتمسّكون به في تحريم الزيارة هو الحديث المرويّ عن أبي هريرة!! أنّه قال: قال رسول الله:

«لا تُشَدُّ الرحال إلاّ إلى ثَلاثة مَساجِدَ: مَسْجِدي هٰذا وَمَسْجِدِ الْحَرامِ وَمَسْجد الأقصىٰ».

وروي هذا الحديث بصورة أُخرى، وهي:

«إنّما يُسافَرُإلى ثَلاثَةِ مَساجِدَ: مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ وَمَسْجِدي وَمَسْجِدِ إيليا».

وروي أيضاً بصورة ثالثة، وهي:

«تُشَدُّ الرِّحال إلىٰ ثَلاثِةِ مَساجِدَ...».(١)

لا شكّ في وجود هذا الحديث في الصحاح، ولسنا الآن في مقام مناقشة الحديث، لكون أبي هريرة في طريقه، بل مقصودنا هو مفاد الحديث.

ولنفرض أنّ نصّ الحديث هو: «لا تُشَدُّ الرحال إلاّ إلى ثَلاثَةِ مَساجِدَ...» فمن الثابت أنّ «إلاّ» هي أداة استثناء ولابدّ من وجود المستثنى منه، ويجب تحديده، وبما أنّه مفقود في النصّ فلابدّ من تقديره في الكلام، وقبل الإشارة إلى القرائن الموجودة يمكن تقدير المستثنى منه في صورتين:

١. لا تُشَدُّ إلى مَسْجِدٍ مِنَ الْمَساجِد إلاّ ثَلاثة مَساجِد...

٢. لا تُشَدُّ إلى مَكان من الأمكنَةِ إلاّ ثَلاثَة مَساجد...

إنّ فهم الحديث والوقوف على معناه يتوقّف على ثبوت أحد هذين التقديرين، فإن اخترنا التقدير الأوّل كان معنى الحديث عدم شدّ الرحال إلى أيّ مسجد من المساجد سوى المساجد الثلاثة، ولا يعني عدم جواز شدّ الرحال إلى أيّ مكان حتّى لو لم يكن مسجداً.

---

١. أورد مسلم هذه الأحاديث الثلاثة في صحيحه: ٤/ ١٢٦، كتاب الحجّ، باب لا تشدّ الرحال؛ وذكره أبو داود في سننه: ١/ ٤٦٩، كتاب الحجّ؛ وكذلك النسائي في سننه المطبوع مع شرح السيوطي:٢/ ٣٧ـ٣٨.

فلا يشمل النهي من يشدّ الرحال لزيارة قبور الأنبياء والأئمّة الطاهرين والصالحين، لأنّ موضوع البحث هو شدّ الرحال إلى المساجد ـ باستثناء المساجد الثلاثة المذكورة ـ و أمّا شدّ الرحال إلى زيارة المشاهد المشرّفة فليس مشمولاً للنهي ولا داخلاً في موضوعه.

هذا على التقدير الأوّل.

وأمّا على التقدير الثاني فلازمه أن تكون كافّة السفرات المعنويّة ـ ما عدا السفر إلى المناطق الثلاث المذكورة ـ محرّمة، سواء أكان السفر من أجل زيارة المسجد أو زيارة مناطق أُخرى.

ولكن القرائن والدلائل تشير إلى أنّ التقدير الأوّل هو الصحيح، بناءً على صحّة سند الحديث واعتباره.

أمّا القرائن على صحّة التقدير الأوّل فهي كالآتي:

أوّلاً: لأنّ المساجد الثلاثة هي المستثناة، والاستثناء هنا متّصل ـ كما هو واضح ـ فلابدّ أن يكون المستثنى منه هو: المساجد لا المكان.[1]

ثانياً: لو كان الهدف هو منع كافّة السفرات المعنويّة لما صحّ الحصر في هذا المقام، لأنّ الإنسان يشدّ الرحال في موسم الحجّ للسفر إلى «عرفات» و«المشعر» و «منى» فلو كانت السفرات الدينية ـ لغير المساجد الثلاثة ـ محرّمة، فلماذا يُشدّ الرحال إلى هذه المناطق؟!

ثالثاً: لقد أشار القرآن الكريم والأحاديث الشريفة إلى بعض الأسفار الدينية، وجاء التحريض عليها والترغيب فيها، كالسفر من أجل الجهاد في سبيل

---

١. لو قال قائل: ما جاء إلاّ زيد، فالمستثنى منه ـ في هذه الجملة ـ هو: الإنسان أو القوم أو ما شابه ذلك، وليس المستثنى منه كلمة عامّة كالشيء والموجود، سواء كان إنساناً أو غيره.

الله وطلب العلم وصلة الرحم وزيارة الوالدين وما شابه ذلك. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿... فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.(١)

ولهذا فقد فسّر كبار الباحثين والمحقّقين الحديث المذكور بما أشرنا إليه، فمثلاً يقول الغزالي ـ في كتاب إحياء العلوم ـ:

«القسم الثاني وهو أن يسافر لأجل العبادة إمّا لحجّ أو جهاد...ويدخل في جملته: زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكلّ من يُتبرّك بمشاهدته في حياته يُتبرّك بزيارته بعد وفاته، ويجوز شدّ الرحال لهذا الغرض، ولا يمنع من هذا قوله ﷺ: «لا تُشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصىٰ» لأنّ ذلك في المساجد، فانّها متماثلة(في الفضيلة) بعد هذه المساجد، وإلاّ فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله».(٢)

وعلى ضوء هذا فالمنهيّ عنه ـ في هذا الحديث ـ هو شدّ الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، من المساجد الأُخرى، ولا علاقة له بالسفر للزيارة أو لأهداف معنويّة أُخرى.

وفي الختام لابدّ من الإشارة إلى أنّ النبيّ ﷺ عندما قال: «لا تُشدّ الرحال إلاّ

١. التوبة:١٢٢.

٢. كتاب إحياء علوم الدين للغزالي:٢/ ٢٤٧، كتاب آداب السفر، طبعة دار المعرفة بيروت؛ الفتاوى الكبرى:٢/ ٢٤.

إلى ثلاثة مساجد...» فإنّه لا يعني أنّ شـدّ الرحال إلى المساجد الأُخرى حرام، بل معناه أنّ المساجد الأُخرى لا تستحقّ شدّ الرحال إليها، وتحمّل مشاق السفر من أجل زيـارتها، لأنّ المساجـد الأُخرى لا تختلـف ـ مـن حيث الفضيلة ــ اختلافـاً كبيراً.(١)

فالمسجد ــ سواء كان في المدينة أو في القرية أو في المنطقـة ـ لا يختلف مع الآخر فثـواب إقامة الصـلاة في المسجد الجامع في أيّ بلـد من البلاد واحـد، فلا ملزم للسفـر عندئذٍ لإقامـة الصلاة في جامع مثلـه. وعليه فلا داعـي إلى أن يشدّ الإنسان الرحـال إليه، أمّا إذا شدّ الرحـال إليه فليس عمله هذا حـراماً ولا مخالفاً للسُّنّة الشريفة.

ويدلّ عليه ما رواه أصحاب الصحاح والسُّنن:

«كان رسول الله ﷺ يأتي مسجد قُبا راكباً وماشياً فيصلّي فيه ركعتين».(٢)

ولنا أن نتسـاءل: كيف يمكن أن يكـون شدّ الرحـال وقطع المسافـات من أجل إقامة الصلاة ـ مخلصاً لله ـ في بيتٍ من بيوته سبحانه حراماً ومنهياً عنه؟!!

---

١. إلاّ مسجـد الكـوفة فقـد ورد في فضلـه أحـاديث كثيرة ولا يخفى أنّ المسـاجـد الأُخـرى تختلف في الفضيلة ـ كمسجـد السوق والقبيلة ـ لكـن النهي إنّما هو السفر من مسجـد إلى مسجد مثله دون السفر من مسجد القبيلة إلى جامع البلد.

٢. صحيح مسلم: ٤/ ١٢٧. وراجع في هذا المعنى صحيح البخاري:٢/ ٧٦، السنن للنسائي المطبوع مع شرح السيوطي:٢/ ٣٧.

الفصل السادس

إقامة الصلاة والدعاء

عند قبور الأولياء

من المسائل الّتي يُثيرها الوهّابيّون كثيراً ـ في كتبهم وغيرها ـ هي إقامة الصلاة والدعاء عند قبور أولياء الله الصالحين وإضاءة المصابيح عندها.

يقول مؤسّس الوهّابيّة في رسالة «زيارة القبور»:

لم يذكر أحدٌ من أئمّة السَّلف أنّ الصلاة عند القبور وفي مشاهدها مستحبّة، ولا أنّ الصلاة والدعاء هناك أفضل، بل اتّفقوا كلّهم على أنّ الصلاة في المساجد والبيوت أفضل منها عند قبور الأولياء والصالحين.[1]

وجاء في الجواب المنسوب إلى علماء المدينة:

«أمّا التوجّه إلى حجرة النبيّ ﷺ عند الدعاء فالأولى منعه، كما هو معروف من معتبرات كتب المذهب، ولأنّ أفضل الجهات جهة القبلة».

وقد تجاوزت هذه المسألة ـ على مرّ الزمان ـ مرحلة المنع إلى مرحلة الشّرك حتّى أنّهم اليوم يعتبرون ذلك شركاً، وكلّ من يفعل ذلك مشركاً!!!

أقول: ممّا لا شكّ فيه أنّ الصلاة لصاحب القبر وعبادته، أو جعله قبلة في

---

١. زيارة القبور: ١٥٩ ـ ١٦٠.



الصلاة يُعتبر شركاً، ولكن ليس على وجه الأرض مسلم يفعل ذلك عند قبور الأنبياء والأولياء، فليس هناك ـ في الحقيقة ـ من يعبد صاحب القبر أو يتوجّه إليه في الصلاة، لهذا فإنّ فكرة الشرك هذه ليست سوى وهماً وخيالاً يتخبّط فيه الوهّابيّون.

إنّ هدف المسلمين من إقامة الصلاة والدعاء عند قبور الأولياء هو التبرُّك بذلك المكان الّذي احتضن حبيباًمن أحبّاء الله، فهم يعتقدون أنّ ذلك المكان يتمتّع بمنزلة سامية لكونه يضمّ جسد عزيز من أعزّاء الله، ولذلك فالصلاة والدعاء هناك يعود بثواب أكثر على فاعله.

والسؤال الّذي تجب الإجابة عليه هو: هل دفن الأولياء في مكانٍ ما، يمنح قدسيّة خاصّة لذلك المكان أم لا؟

فإن ثبت ذلك ـ بدليل من القرآن أو الأحاديث ـ كانت إقامة الصلاة والدعاء عند مراقد قادة الإسلام مستحبّة ومقرونة بثواب أكثر، وحتّى لو لم يثبت ذلك فلا يمكن القول بحرمة الصلاة والدعاء في ذلك المكان، بل يكون كسائر الأماكن الأُخرى الّتي يجوز فيها إقامة الصلاة والدعاء حتّى لو لم تتمتع بأيّة فضيلة.

فحديثنا الآن يدور حول هذا الموضوع بالذات، هل أنّ لمشاهد الأولياء ومدفنهم شرفاً وفضيلة خاصّة؟

وهل هناك ما يدلّ عليه في القرآن أو الأحاديث؟

الجواب فيما يلي:

١. في قصّة أصحاب الكهف، سبق أن ذكرنا بأنّ المؤمنين الموحّدين قالوا في شأن مدفنهم:



﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ .

إنّ الهدف الّذي دعاهم إلى اتّخاذ مدفنهم مسجداً إنّما كان من أجل أداء الفرائض الدينية فيه.(١)

إنّ هؤلاء كانوا يتفكّرون: إنّ هذا المكان صار ذا كرامة وشرف بسبب احتضانه لأجساد مجموعة من عباد الله الصالحين، ولذا لابدّ من التبرّك به باتّخاذه مسجداً للصلاة والعبادة لله سبحانه، لنيل الثواب الأكثر.

إنّ القرآن الكريم يذكر هذا الموضوع عن أُولئك الموحّدين من دون أيّ ردٍّ أو نقد، بل بسكوت تامّ، ولو كان عملهم هذا خلافاً للشريعة أو نوعاً من الشرك لما سكت القرآن عنهم، بل ردّ عليهم، كما هو شأنه في المعتقدات الباطلة.

٢. إنّ القرآن الكريم يأمر حُجّاج بيت الله الحرام بأن يقيموا الصلاة عند مقام إبراهيم الخليل عليه السلام وهي الصخرة الّتي وقف عليها إبراهيم لبناء الكعبة فيقول سبحانه:

﴿ ... وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى ... ﴾ .(٢)

إنّ كلّ من يتلو هذه الآية يفهم منها ـ بوضوح ـ أنّ الصلاة هناك إنّما وجبت بسبب مقام النبيّ إبراهيم، وأنّ مقام إبراهيم هو الّذي منح الفضيلة والكرامة لذلك المكان، وترى ملايين المسلمين يتّخذون من مقام إبراهيم مكاناً للصلاة والدعاء.

فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى مقام إبراهيم عليه السلام ألا ينبغي أن يكون

١. يقول الزمخشري ـ في تفسير الكشاف، في تفسير الآية : يصلّي فيه المسلمون و يتبرّكون بمكانهم.
ويقول النيشابوري أيضاً: يصلّي فيه المسلمون ويتبرّكون بمكانهم.
٢. البقرة:١٢٥.

كذلك بالنسبة إلى مثوى رجال الله وقادة الإسلام؟!

ألا تكون الصلاة عند مراقدهم أفضل من الأماكن الأُخرى؟!

صحيح أنّ الآية قد نـزلت بشأن مقام إبراهيم الخليـل، ولكن ألا يمكن أن نستنتج منها حُكماً عامّاً؟!

لقد سأل المنصور العبّاسي «الدوانيقي» مالك بن أنس ـ إمام المالكية ـ وهما في مسجد رسـول الله ﷺ فقال: يـا أبا عبد الله أستقبـل القبلة وأدعـوا أم أستقبل رسول الله؟

فقال مالـك: لِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتـك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة؟! بل استقبله واستشفع به فيشفِّعك الله.(١)

يستفاد من هذا الحوار أنّ الدعاء عند قبر رسول الله ﷺ كان خالياً من أي إشكال، وكانـت الغاية حسب السؤال عـن الأرجحية وأنّ أيّة منها أرجـح فأفتى مالك بن أنس بأنّ التوجّه إلى قبر الرسول كالتوجّه إلى القبلة.

٣. لو راجعنـا أحاديث المعـراج لانكشفت لنـا هذه الحقيقة بصـورة أكثر، حيث جـاء فيها أنّ النبـيّ ﷺ في رحلة المعـراج نزل في «المدينـة» و«طور سينـاء» و«بيت لحم» وصلّـى فيها، فقال له جبرئيل: يا رسول الله أتعلم أين صلّيت؟ إنّك صلّيت في «طيبـة» وإليها مُهاجـرتك، وصلّيـت في «طور سيناء» حيـث كلّم الله موسى تكليماً، وصلّيت في «بيت لحم» حيث وُلد عيسى.(٢)

يستفاد مـن هذا الحديث أنّ الصـلاة محبوبـة في بقعة لامسـت جسـد أحد

---

١. وفاء الوفا: ٤/ ١٣٧٦.

٢. الخصائص الكبرى لعبد الرحمن السيوطي: ١/ ١٥٤.

الأنبياء، وأنّ تلك البقعة إنّما اكتسبت القدسيّة والشرف بسبب ذلك النبيّ.

٤. لقد بلغت «هاجر» أُمّ إسماعيل بن الخليل مرتبة عالية عند الله تعالى بسبب صبرها وتحمّلها المتاعب في سبيله سبحانه، ممّا أدّى إلى أن جعل الله موضع أقدامها محلاً للعبادة وأوجب على حجّاج بيته الحرام أن يسعوا كما سعت هاجر بين جَبلَي الصفا والمروة. وهذا ما يعترف به ابن القيم تلميذ ابن تيميّة.(١)

ونتساءل: إذا كان صبر «هاجر» على المكاره وتحمّلها المتاعب في سبيل الله تعالى قد مَنَحَ الكرامة لموضع أقدامها، وأوجب الله على المسلمين أن يعبدوه سبحانه في ذلك المكان بالسعي بين الصفا والمروة، فلماذا لا يكون مدفن النبي ﷺ مباركاً ومقدّساً، في حين أنّه تحمّل أنواع المصاعب والمصائب والمكاره من أجل إصلاح المجتمع وإرشاده؟!

٥. إذا كانت الصلاة عند القبر محرّمة في الشريعة الإسلامية، فلماذا قضت عائشة عُمرها وحياتها بالصلاة في البيت الخاصّ بها عند قبر رسول الله ﷺ؟!

إنّ معنى قول رسول الله ﷺ على فرض صحّة الحديث: «لعن الله اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٢) هو أنّهم كانوا يعبدون أنبياءهم ويسجدون على قبورهم، أو يجعلون قبورهم قبلة لهم. وكلا الأمرين مخالفان للشريعة المقدّسة وقد مضى تفسير الحديث وتوضيحه.

ولكنّ الوهّابيّين يستدلّون بهذا الحديث على حرمة الصلاة عند قبور أولياء الله سبحانه، وقد عرفت أنّ السيدة عائشة ـ راوية هذا الحديث ـ قضت ما يقرب

---

١. كتاب جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام:٢٢٨.

٢. السنن للنسائي: ٤/ ٩٦، طبع بيروت.

من خمسين عاماً من عمرها بالصلاة والعبادة في البيت الّذي دُفن فيه الرسول؟!

٦. لو لم تكن لقبر رسول الله ﷺ القدسيّة والشرف، فلماذا أصرّ أبو بكر ومن بعده عُمر على أن يُدفنا بجوار قبره الشريف؟!

ولماذا أوصى الإمام الحسن بن علي عليهما السلام بأن يُدفن عند قبر جدّه المصطفى فإن حال الأعداء دون ذلك فليدفن في البقيع؟!

وأيّة علاقة بين هذا الحديث وسيرة المسلمين القائمة على الصلاة لله باتّجاه القبلة بجوار قبر رسول الله ﷺ لدرك المزيد من الثواب والفضيلة؟!

٧. إنّ السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام الّتي رُوي عن النبي في أحاديث صحيحة أنّ رضاها هو رضى الله ورسوله وأنّ غضبها هو غضب الله ورسوله[1]- كانت تزور قبر عمّها حمزة في كلّ جمعة - أو في الاسبوع مرّتين - و كانت تبكي وتصلّي عند قبره. يقول البيهقي:

«كانَتْ فاطمة - رضي الله عنها - تَزُور قَبْرَ عَمِّها حَمْزَة كُلَّ جُمْعَةٍ فَتُصَلّي وتَبْكي عِنْدَهُ».[2]

أيّها القارئ الكريم: إنّ هذه الأدلّة - بمجموعها وبالإضافة إلى سيرة المسلمين الجارية على الصلاة والدعاء في الأماكن الّتي دُفن فيها أولياء الله وأحبّاؤه - تؤكّد أنّ الصلاة والدعاء عند هذه المراقد تمتاز بفضيلة أكثر وثواب أكبر، وأنّ الهدف إنّما هو التبرّك بذلك المكان المبارك وأداء الفريضة فيها لرجاء القبول من الله سبحانه.

---

١. لاحظ صحيح البخاري: ٥/ ٢١، باب مناقب قرابة رسول الله.

٢. سنن البيهقي: ٤/ ٧٨، مستدرك الصحيحين للحاكم: ١/ ٣٧٧.

ولو فرضنا عدم وجود دليل ـ من القرآن و الأحاديث ـ على شرافة هذه الأمكنة وفضيلة الصلاة والدعاء فيها، فلماذا تكون الصلاة محرّمة فيها؟!

ولماذا لا تدخل هذه الأماكن ضمن إطار القانون الإسلامي العام الّذي يعتبر الأرض كلّها محلاً لعبادة الله، حيث يقول رسول الله ﷺ:

«جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»؟[١]

الإضاءة عند القبور

إنّ مسألة الإضاءة عند قبور أولياء الله ـ والّتي يدّعي الوهّابيّون حرمتها ـ ليست ذات أهميّة كبرىٰ، لأنّ الدليل الوحيد الّذي يستدلّون به هو ما ذكره النسائي عن ابن عبّاس أنّ رسول الله ﷺ لعن زائرات القبور والمتّخذين عليها المساجد والسُّرُج.[٢]

وهذا الحديث ـ وأمثاله ـ يختصّ بما إذا كانت الإضاءة تضييعاً وتبذيراً للمال أو تشبُّهاً ببعض الأُمم والشعوب والأديان الباطلة، كما أشار إليه العلاّمة السندي في شرحه على هذا الحديث ـ حيث قال:

والنهيُ عنه لأنّه تضييعُ مالٍ بلا نفع.[٣]

وأمّا إذا كان الهدف من الإضاءة والإنارة هو تلاوة القرآن والدعاء والتضرّع إلى الله و إقامة الصلاة وغيرها من المستحبّات والواجبات والمنافع المشروعة فهذا

١. صحيح البخاري:١/ ٩١، مسند أحمد بن حنبل:٢/ ٢٢٢ وغيرهما.
٢. السنن للنسائي:٣/ ٧٧.
٣. السنن للنسائي:٣/ ٧٧ طبعة مصر، و٤/ ٩٥ طبعة بيروت؛ شرح الجامع الصغير:٢/ ١٩٨.

ممّا لا إشكال فيـه قطعاً، بل أنّ الإضاءة في هذه الأماكـن ولهذه الأهداف مصداق لقوله تعالى:

﴿ ... وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ ... ﴾ .[1]

فكيف تكون حراماً؟!

بل لا شكّ أنّ الإضاءة عندئذٍ مستحبّة شرعاً ومحبوبة عقلاً.

١. المائدة:٢.

الفصل السابع

التوسُّل بأولياء الله

يُعتبر التوسّل بأولياء الله وأحبّائه من المسائل المعروفة بين المسلمين في كافة أنحاء العالم، وقد وردت أحاديث كثيرة في جوازه واستحبابه، فهو ليس ظاهرة غريبة، بل هو أمر ديني تعارف عليه المسلمون منذ فجر الإسلام حتّى هذا اليوم، ولا تجد مسلماً ينكره.

ولم ينكره أحد طوال أربعة عشر قرناً سوى ابن تيميّة وتلميذه ـ ابن القيم ـ في القرن الثامن الهجري، وجاء بعده محمّد بن عبد الوهّاب فاعتبر التوسل بأولياء الله بدعة ـ تارة ـ وعبادة للأولياء ـ تارةً أُخرىٰ ـ.

لا شكّ أنّ عبادة غير الله شركٌ وحرام، وليس البحث الآن عن العبادة ومعناها وحقيقتها، لأنّه بحثٌ هامّ وحسّاس، وسوف نتحدّث عنه بالتفصيل في فصل خاصّ، إنّما البحث في التوسّل بأولياء الله فنقول:

إعلم أنّ التوسّل بأولياء الله تعالى على صورتين:

١. التوسّل بالأولياء أنفسهم، كأن نقول:

«اللّهمّ إنّي أتوسّل إليكَ بنبيّك محمّدﷺ أن تَقْضِيَ حاجَتي».

٢. التوسّل بمنزلة الأولياء وجاههم عند الله تعالى، كأن نقول:

«اللّهمّ إني أتوسّلُ إليكَ بجاهِ محمّد وحرمتِهِ وحَقِّهِ أنْ تَقْضِيَ حاجَتي».

أمّا الوهّـابيّون فإنّهم يحرّمون الصورتين معاً، في حين أنّ الأحـاديث الشريفة وسيرة المسلمين تشهـدان بخلاف مـا يـدّعيه الـوهّابيّـون، وتـؤكّدان على جـواز الصورتين معاً.

والآن ... نذكر بعض تلك الروايات، واحدة تلو الأُخرى ثمّ نتناول الحديث عن سيرة المسلمين، وعند ذلك تتضح قيمة قول القائل بحرمة التوسّل وأنّه بدعة.

الأحاديث الشريفة الدالّة على جوازه

إنّ الأحاديـث الّتي تـدلّ على جواز التـوسّل بـأولياء الله كثيرة جـدّاً، وهي متواجدة في كتب التاريخ والحديث، وفيما يلي نذكر نموذجاً منها:

الحديث الأوّل:

عن عثمان بن حنيف أنّه قال:

«إنّ رجلاً ضَريراً أتى إلى النبيّ ﷺ فقال: ادعُ الله أن يُعافيَني.

فقال ﷺ: إن شئتَ دعوتُ، وإن شئتَ صَبرتَ وَهُوَ خَير؟

قال: فادعُهُ، فأمره ﷺ أن يتوضّـأ فيُحْسِنَ وُضوءهُ ويُصَلّي رَكْعَتين وَيَـدْعُو بِهٰذا الدُّعاء: «اللّهمّ إنّي أسألُكَ وَأتوجّهُ إليكَ بِنَبيّكَ نَبيّ الرَّحمَةِ، يا مُحَمّد إنّي أتوجّهُ بِكَ إلى رَبّي في حاجَتي لِتُقضىٰ، اللّهمّ شَفِّعْهُ فِيّ».

قال ابن حنيف:

«فَوَ الله ما تفرَّقْنا وطالَ بِنا الحديث حتّىٰ دَخَلَ عَلَيْنا كَأن لَمْ يَكُنْ بِهِ ضُرٌّ».

كلمة حول سند الحديث

لا كلام في صحّة سند هـذا الحديث، حتّى أنّ إمام الوهّابيّين ــ ابن تيميّة ـ



اعتبر هذا الحديث صحيحاً وقال بأنّ المقصود من «أبي جعفر» الموجود في سند الحديث هو أبو جعفر الخطمي وهو ثقة.[١]

يقول الرفاعي ـ الكاتب الوهّابيّ المعاصر الّذي يسعىٰ دوماً إلى تضعيف الأحاديث الخاصّة بالتوسّل ـ حول هذا الحديث:

«لا شكّ أنّ هذا الحديث صحيح ومشهور، وقد ثبت فيه ـ بلا شكّ ولا ريب ـ ارتداد بصر الأعمى بدعاء رسول الله».[٢]

ويقول:

«لقد أورد هذا الحديث النسائي والبيهقي و الطبراني والترمذي والحاكم في مستدركه، ولكن الترمذي والحاكم ذكرا جملة «اللّهمّ شفّعه فيه» بدل جملة «شفّعه فيّ».[٣]

يقول زيني دحلان ـ مفتي مكّة ـ:

«ذكر هذا الحديث ـ مع أسانيد صحيحة ـ البخاري وابن ماجة والحاكم في مستدركه، وجلال الدين السيوطي في جامعه».

ونحن نذكر هذا الحديث من المصادر التالية:

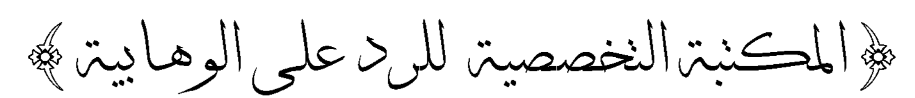
١. سنن ابن ماجة، المجلّد الأوّل ص ٤٤١ رقم الحديث ١٣٨٥، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، نشر دار إحياء الكتب العربية.

وقد ذكر ابن ماجة عن أبي إسحاق أنّه قال:

«هذا حديث صحيح».

---

١. جاء في مسند أحمد: «أبو جعفر الخطمي» أمّا في سنن ابن ماجة ففيه «أبو جعفر» فقط.
٢. التوصّل إلى حقيقة التوسّل: ١٥٨.
٣. المصدر السابق.



ثمّ قال: «وقد رواه الترمذي في كتاب أبواب الأدعية وقال: هذا حديث حقّ صحيح غريب».

٢. مسند أحمد بن حنبل، المجلّد الرابع ص ١٣٨، عن مسند عثمان بن حنيف، طبع المكتب الإسلامي، مؤسّسة دار صادر، بيروت، وقد روى هذا الحديث عن ثلاثة طرق.

٣. مستدرك الصحيحين للحاكم النيسابوري، المجلّد الأوّل، ص ٣١٣، طبعة حيدر آباد الهند. قال بعد ذكر الحديث:

«هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه».

٤. الجامع الصغير للسيوطي، ص ٥٩، عن الترمذي والحاكم.

٥. تلخيص المستدرك للذهبي (المتوفّى ٧٤٨هـ)، المطبوع بهامش المستدرك.

٦. التاج الجامع، المجلّد الأوّل ص ٢٨٦، وهو كتاب جمع أحاديث الصحاح الخمسة باستثناء صحيح ابن ماجة.

بعد هذا كلّه ... لا مجال للمناقشة في سند الحديث أو الطعن فيه.

وأمّا دلالته، فلو قدّمت هذا الحديث إلى من يُحسن اللُّغة العربية جيّداً ويتمتّع بصفاء فكر، بعيد عن مجادلات الوهّابيّين وشُبهاتهم حول مسألة التوسّل، ثمّ سألته: بماذا أمر النبيّ ﷺ ذلك الأعمى عندما علّمه ذلك الدعاء؟

فسيكون جوابه ـ فوراً ـ : لقد علّمه النبي أن يتوسّل إلى الله بنبيّه نبيّ الرحمة، ويطلب من الله أن يشفّعه فيه.

وهذا المعنى هو بالضبط ما يُفهم من كلمات الحديث المذكور، وفيما يلي نُقسّم الحديث إلى جمل لمزيد التوضيح:

أ: «**اللّهمّ إنّي أسْأَلُكَ وَأتَوَجَّهُ إليكَ بِنَبِيِّكَ**».

إنّ كلمة «نبيّـك» تتعلّق بما قبلها، أي «أسألُـك» و«أتوجّه إليـك»، وبعبارة أوضـح: إنّه يسـأل الله تعالى بـواسطة النبـيّ ﷺ كما أنّـه يتـوجّـه إلى الله بجـاه النبيّ ووسيلته أيضاً، والمقصود من «النبيّ» نفسه المقدّسة لا دعاؤه.

أمّا من يقدِّر كلمـة «دعاء» في قوله: «أسألك بنبيّك» أي بـدعاء نبيّك فهو يتحكّم بلا دليل ويدّعي خلاف الظاهر، والسبب في هذا الادّعاء هو أنّه لا يعتقد بالتوسّل بنفـس النبيّ، فيلجأ إلى تقدير «دعاء» ليقول: إنّ التوسّـل بدعاء النبيّ لا إشكال فيه، وبهذا يُبرِّر باطله.

ب: «محمّد نبيّ الرحمة».

لكي يتّضح أنّ المقصود هو سؤال الله بواسطة النبي وشخصيّته وحُرمته فقد جاءت بعد كلمة «نبيّك» جملة «محمّد نبي الرحمة» لكي يتّضح الهدف أكثر.

ج: إنّ جملة «يا محمّد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي» تدلّ على أنّ الرجل اتّخذ النبيّ نفسه وسيلة لدعائه، لا دعاءه ﷺ أي: أنّه توسّل بذات النبي لا بدعائه.

د: إنّ قولـه: «وشفِّعه فيّ» معنـاه: يا ربّ اجعـل النبـيّ ﷺ شفيعي وتقبَّـل شفاعته في حقّي.

أيّها القارئ الكريـم: لقد اتّضح لك أنّ النقطـة المركزيّة في الدعـاء كلّه هو شخص رسول الله ﷺ وشخصيّته الكريمـة، وليس فيه أي دليل للتوسـل بدعائه أصلاً.

وكلّ من يـزعم أنّ ذلك الرجل الضريـر قد توسّل بدعـاء النبيّ لا بشخصه وشخصيّته، فإنّما تغافل عن نصوص الرواية وتجاهلها.

وأنت لو تأمّلت قوله: «اللّهُمَّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك نبيّ الرحمة» و قوله: «يا محمّد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي» لظَهر لك ـ بكلّ وضوح ـ أنّ التركيز إنّما هو

على شخص رسول الله ﷺ ولو كان الهدف هو دعاء النبي لكان الصحيح أن يقول: أسألك بدعاء النبي.

وعلى ما ذكرنا لا يبقى أيّ مجال للإشكالات الخمسة الّتي أوردها الكاتب الوهّابي في كتاب «التوصّل إلى حقيقة التوسّل»، وقد ذكرنا ـ بالتفصيل ـ تلك الإشكالات مع أجوبتها وردودها في كتابنا «التوسّل» من صفحة ١٤٧ إلى ١٥٣ فراجع.

الحديث الثاني: التوسّل بحقّ السائلين

روى عطيّة العوفي عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إلى الصَّلاةِ فَقالَ: اللّهُمَّ إنّي أسأَلُكَ بِحَقِّ السّائِلينَ عَلَيْكَ، وأسأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشايَ هذا فَإنّي لَمْ أخْرُجْ أشراً ولا بَطَراً ولا رياءً ولا سُمْعَةً، وخَرَجْتُ اتّقاء سَخَطِكَ وَابْتِغاء مَرضاتِكَ، فَأسألُكَ أن تُعيذَني مِنَ النّارِ وأن تَغفر لي ذُنوبي، إنّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ أنتَ، أقبَلَ الله عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ سَبْعُونَ ألف مَلَك».[1]

إنّ هذا الحديث واضح جداً في معناه، ويدلّ على أنّ للإنسان أن يتوسّل إلى الله بحرمة أوليائه الصالحين ومنزلتهم ووجاهتهم عنده سبحانه، فيجعل أُولئك وُسَطاء وشفعاء لقضاء حاجته واستجابة دعائه، ودلالة الحديث على الموضوع الّذي نتحدّث عنه واضحة.

الحديث الثالث: التوسّل بحقّ النبيّ الكريم

إنّ النبيّ آدم عليه السلام عندما صدر منه ما كان الأَولى عدم صدوره، وتاب إلى الله

١. سنن ابن ماجة: ١/ ٢٥٦ حديث رقم ٧٧٨.

تعالى ممّا صدر منه[١] تلقّى من ربّه كلمات، كما أشار القرآن الكريم: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحيم﴾.[٢]

إنّ المفسّرين والمحدّثين أعربوا عن آرائهم ووجهات نظرهم تجاه هذه الآية ومعناها، وذلك استناداً إلى بعض الأحاديث، وفيما يلي نذكر تلك الأحاديث لنرى النتيجة الّتي نحصل عليها بعد ذلك:

أخرج الطبراني في المعجم الصغير، والحاكم في مستدركه، وأبو نعيم الاصفهاني في حلية الأولياء، والبيهقي في دلائل النبوّة، وابن عساكر الدمشقي في تاريخه، والسيوطي في تفسير الدرّ المنثور، والآلوسي في تفسير روح المعاني، عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ أنّه قال:

«لَمّا أذْنَبَ آدَمُ الذنب الّذي أذْنَبهُ، رَفَعَ رَأسَهُ إلى السَّماء فقالَ: أسأُلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إلاّ غَفَرْتَ لي. فأوحى الله إليه: وَمَنْ مُحَمَّدٌ؟ فقال: تباركَ اسْمُكَ، لَمّا خُلقْتُ رَفَعْتُ رَأسي إلى عرشكَ فإذا فيهِ مَكْتُوبٌ: لاإلهَ إلاّ الله وَمُحَمّدٌ رَسُولُ الله، فَقُلْتُ: إنّه لَيْسَ أَحَدٌ أعظَمُ عِنْدَكَ قَدْراً مِمّن جَعَلْتَ اسْمَهُ مَعَ اسْمِكَ،

---

١. لقد ثبت أنّ النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿لاٰ تَقْرَبا هٰذه الشَّجَرة﴾ إنّما هو نهيٌ إرشادي وتنزيهي، وليس نهياً تحريمياً مولويّاً، والنهي الإرشادي هو بمثابة النصيحة والموعظة، ومخالفة هذا النهي لا توجب عقاباً ولا مؤاخذة، ولا تنافي العصمة بأيّ وجه، وإنّما توجب تأثير العمل ذاته، فمثلاً: لو نهى الطبيب المريض المصاب بالزكام عن تناول الحمضيّات، فخالفه المريض، فإنّ المخالفة تعكس الأثر الطبيعي لها ـ و هو اشتداد الزكام والمرض ـ وفي القرآن الكريم آيات تدلّ على أنّ نهي آدم عن اقتراب الشجرة كان نهياً إرشادياً، ولا أثر لمخالفة هذا النهي سوى الخروج من الجنّة، كنتيجة طبيعيّة لتلك المخالفة. يُرجى مراجعة الآية ١١٨ ـ ١١٩ من سورة طه.

٢. البقرة:٣٧.

فأوحىٰ إليه إنّهُ آخِرُ النَّبِيّينَ مِنْ ذُرّيَّتِكَ ، ولولا محمّد لَماخَلَقْتُكَ» .(١)

رأيُنا حول هذا الحديث

١ . لقد ورد في القرآن الكريم التعبير عن الأشخاص والذوات بـ«الكلمات» بعكس ما هو متّبع لدينا، فمثلاً:

أ: قوله تعالى: ﴿ ... أنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيىٰ مُصَدِّقاً بِكَلمَةٍ مِنَ الله ... ﴾ .(٢)

ب: قوله سبحانه: ﴿ ... يا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلَمةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسيحُ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ... ﴾ .(٣)

ج: قوله عزّ وجلّ: ﴿ ... إنَّما الْمَسيحُ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ ... ﴾ .(٤)

د: قوله جلّ جلاله: ﴿قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلماتِ رَبّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ... ﴾ .(٥)

هـ: قوله عزّ من قائل: ﴿ ... وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ﴾ .(٦)

فمع الانتباه إلى هذه الآيات يمكن القول بأنّ المقصود من «كلمات» في قوله تعالى: ﴿فتَلقّى آدم من ربّه كلمات﴾ هي الشخصيّات المقدّسة الوجيهة الّتي توسّل بهم آدم إلى الله تعالى.

---

١ . مستدرك الصحيحين:٢/ ٦١٥؛ روح المعاني:١/ ٢١٧؛ الدرّ المنثور:١/ ٥٩ نقلاً عن الطبراني وأبي نعيم والبيهقي. والمتن موافقٌ لما في الدرّ المنثور.

٢ . آل عمران:٣٩.

٣ . آل عمران: ٤٥.

٤ . النساء:١٧١.

٥ . الكهف:١٠٩.

٦ . لقمان: ٢٧.

وفي الحديث ـ الّذي مرّ عليك ـ ترى اسم محمّد ﷺ فقط مذكوراً، أمّا في أحاديث «الشيعة» ترى الحديث مروياً بصورة تتطابق مع الآية الكريمة.

والحديث مرويّ بصورتين، فتارة فُسّرت كلمة «كلمات» بأسماء الخمسة الطيّبة عليهم السلام وفُسّرت بأشباحهم النورانية تارة أُخرى، وإليك الحديث فيما يلي:

«إنّ آدَمَ رأى مكتوباً على العرش أسماءً مُعَظَّمةً مُكَرَّمة، فسأل عنها؟ فقيل له: هذه أسماء أجلّ الخلقِ منزلة عند الله تعالىٰ، والأسماء: مُحمّدُ وعليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسينُ، فتوسَّل آدم عليه السلام إلى ربّه بهم في قبول توبته ورفع منزلته».(١)

وتدلّ بعض الأحاديث على أنّ آدم رأىٰ الأشباح النورانيّة للخمسة الطيّبة فتوسّل بهم بعد ذلك.(٢)

٢. وعند مراجعة كتب التاريخ والحديث يظهر لنا أنّ قضيّة توسّل النبيّ آدم بالنبيّ محمّد ﷺ كان معروفاً ومشهوراً بين الناس، ولهذا ترى مالك بن أنس ـ إمام المالكية ـ يقول للمنصور الدوانيقي ـ في مسجد رسول الله ـ:

«هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم».(٣)

وقد أشار شعراء المسلمين إلى هذه الحقيقة في قصائدهم، فترى أحدهم يقول:

---

١. مجمع البيان: ١/ ٨٩ طبعة لبنان؛ تفسير البرهان: ١/ ٨٦ ـ ٨٨ حديث رقم ٢و٥و١١و١٢ و١٤و٢٧.

٢. للتفصيل راجع تفسير البرهان: ١/ ٨٧ حديث رقم ١٣و ١٥و ١٦.

٣. ذكر أحمد زيني دحلان ـ في كتابه الدُّرَر السنيّة: ج١٠ ـ أنّ القاضي عياض ذكر هذا الحوار بسندٍ صحيح. وكذلك ذكره السبكي في شفاء السقام، والسمهودي في وفاء الوفا، والقسطلاني في المواهب اللّدنيّة. قال ابن حجر ـ في الجوهر المنظّم ـ: قد روي هذا بسندٍ صحيح. وقال العلاّمة الزرقاني ـ في شرح المواهب ـ: إنّ ابن فهد ذكر هذا بسند حسن، وذكره القاضي عياض بسند صحيح.

بِهِ قد أجاب اللهُ آدمَ إذ دعا ونُجيَ في بطن السفينة نوحُ [١]

ويقول الآخر:

قومٌ بهم غُفِرَتْ خطيئةُ آدم وَهُمُ الوَسيلَةُ وَالنُّجُومُ الطُّلَّعُ [٢]

الحديث الرابع: توسّل النبيّ بحقّه وحقّ من سبقه من الأنبياء

«لَما ماتَتْ فاطِمَةُ بِنْت أسَدٍ، دَخَلَ عَلَيْها رَسُول الله ﷺ فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِها فقال: رَحِمَكِ الله يا أُمّي بعد أُمّي ثُمَّ دعا رَسُولُ الله أُسامة بن زَيدٍ وَأبا أيُّوبَ الأنصاري وعُمَرَ بن الْخَطّاب وَ غُلاماً أسْودَ يَحفِرُونَ، فَحَفَروا قَبْرَها، فَلَمّا بَلَغُوا اللَّحْد حَفَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِهِ وَأخْرَجَ تُرابَهُ، فَلَمّا فَرِغَ دَخَلَ رَسُولُ الله فاضطَجَعَ فيهِ ثُمَّ قالَ: اللهُ الّذي يُحيي وَيُميتُ وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، اغْفِرْ لأُمّي فاطِمَةَ بِنْتِ أسَد، ووَسِّع علَيْها مَدْخَلَها، بِحَقِّ نَبِيّكَ وَالأنْبياء الَّذينَ مِنْ قَبْلي».

قال مؤلّف: «خلاصة الكلام»:

«رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وابن حبّان والحاكم وصحّحوه».[٣]

وكتب السيّد أحمد زيني دحلان ـ في كتاب الدرر السّنيّة في الردّ على الوهّابيّة ـ:

«روى ابن أبي شيبة عن جابر مثلَ ذلك. وكذا روى مثلَهُ ابن عبد البرّ عن ابن عبّاس، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء عن أنس، ذكر ذلك كلّه الحافظ جلال الدين السيوطي في الجامع الكبير».[٤]

١. كشف الارتياب: ٣٠٧ نقله عن المواهب، والشعر لابن جابر.
٢. المصدر نفسه: ٣٠٨ والشعر للواسطي.
٣. كشف الارتياب: ٣١٢ نقلاً عن خلاصة الكلام.
٤. الدرر السّنيّة: ٨.

أمّا نحن فقد ذكرنا هذا الحديث ــ المذكور ـ عن مصدَرين يشتمل أحدهما على الدعاء ـ الّذي هو موضوع البحث ـ و الآخر لا يشتمل عليه، والمصدران هما:

١. «حلية الأولياء» لأبي نعيم الاصفهاني ـ المجلّد الثالث ص ١٢١.

٢. «وفاء الوفا» للسمهودي ـ المجلّد الثالث ص ٨٩٩.

الحديث الخامس: التوسّل بالنبيّ نفسه

روى جمع من المحدّثين أنّ أعرابياً دخل على رسول الله ﷺ وقال:

«لقد أتيناك وما لَنا بعيرٌ يئطّ[1] و لا صبيٌّ يغطّ[2]».

ثمّ أنشأ يقول:

أتينـــاك والعـــذراءُ تُـدمـىٰ لِبـانُها
وقــد شُغِلــتْ أُمّ الصبــيّ عـن الطفــلِ
ولا شيء ممّـا يـأكـل النـاسُ عنـدنـا
سـوى الحنظـل العـامـي والعِلهـز الفَسْـلِ
وليــس لنـــا إلاّ إليــك فـــرارُنـــا
وأيــن فـــرارُ النـــاس إلاّ إلى الـــرُّسْـلِ

فقامَ رَسُولُ اللهﷺ يَجُرُّ رِداءَه، حتّى صَعَدَ الْمِنبَرَ فَرَفَع يَـدَيْهِ وَقالَ: اللّهُمَّ اسْقِنا غَيْثاً مُغيثاً... فما رَدَّ النَّبيُّ يَـدَيه حَتّىٰ أَلْقَتِ السَّماء... ثُمَّ قالَ: للهِ دَرُّ أبي طالبِ لَو كانَ حَيّاً لَقَرَّتْ عَيْناهُ. مَنْ يُنْشِدُنا قَوْلَهُ؟

---

١. يئط ـ مشتقّ من الأطيط ـ: وهو صوت البعير. لسان العرب:٧/ ٢٥٦ مادة، «أطط».

٢. يغط ـ مشتقّ من الغطيط ـ: وهو صوت النائم. لسان العرب:٧/ ٣٦٢ مادة، «غطط».

فقامَ عليٌ بن أبي طالب عليه السلام وقال: كأنّك تُريد ـ يا رسول الله ـ قوله:

وأبيض يُستسقى الغمامُ بوجهه
ثِمالُ اليَتامىٰ عِصْمةٌ للأرامل
يطوف به الهُلّاك من آلِ هاشم
فَهُمْ عِندَه في نِعْمةٍ وفواضل

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أجل.

فأنْشَدَ عَليٌ عليه السلام أبياتاً من القصيدة، والرَّسول يَستغفر لأبي طالب على المنبر، ثمّ قام رجلٌ من كَنانة وأنشد يقول:

لَكَ الحمدُ والحمد ممّن شكر   سُقينا بوجه النبيّ المَطَر

أقول: إنّ المصادر الّتي تذكر هذه القضية كثيرة جداً، ونحن قد ذكرناها من المصادر التالية:

أ. عمدة القاري في شرح صحيح البخاري: المجلّد السابع ص ٣١ تأليف بدر الدين محمود بن أحمد العين (المتوفّى عام ٨٥٥هـ) طبعة إدارة الطباعة المنيرية.

ب. شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد ج١٤ ص ٨٠.

ج. السيرة الحلبيّة: تأليف علي بن برهان الدين الحلبي، المجلّد الثالث ص ٢٦٣.

د. الحجّة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب: تأليف شمس الدين أبي علي فخار بن معد، (المتوفّى عام ٦٣٠هـ) طبعة النجف مطبعة العلوي ص ٧٩.

هـ. سيرة زيني دحلان: المطبوعة بهامش السيرة الحلبيّة، المجلّد الأوّل، ص ٨١.

الحديث السادس: التوسّل بالنبيّ أيضاً

روي أنّ سواد بن قارب أنشد لرسول الله ﷺ قصيدته الّتي يتوسّل فيها بالنبيّ.

وفيها يقول:

وأشهد أنّ اللهَ لا ربَّ غيرُهُ
وأنّك مأمونٌ على كلِّ غائب
وأنّك أدنى المرسلين وسيلة
إلى الله يابن الأكرمين الأطائب
فمُرنا بما يأتيك يا خير مرسل
وإن كان فيما فيه شيبُ الذَّوائب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شَفاعةٍ
بِمُغْنٍ فتيلاً عن سواد بن قاربِ[1]

أيّها القارئ الكريم لقد ذكرنا ـ حتّى الآن ـ مجموعة من الأحاديث المرويّة في التوسّل، اعتماداً على كتب التاريخ والحديث المعتبرة عند أهل السُّنّة.

أمّا التوسّل بأولياء الله ـ فيما روي عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في كتب الشيعة ـ فهو على حدٍّ من الوضوح والثبوت بحيث جاءت الإشارة إليه في الأدعية أيضاً.

ولنا أن نتساءل: هل يجب أن نأخذ المعارف الإسلامية و الأحكام الشرعية

١. الدُّرر السنيّة:٢٧، التوصّل إلى حقيقة التوسّل: ٣٠٠.

من «ابن تيميّة» و «محمّد بن عبد الوهّاب» و نظرائهما أم من عترة رسول الله الّتي نصّ النبيّ ـ في حديث الثقلين ـ على أنّها الثقل الأصغر وعدل القرآن؟!!

إنّ كلّ مسلم ـ يملك ذرّة من الوعي والإنصاف ـ يحكم بضرورة الأخذ من العترة الطاهرة الّتي أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

نماذج من أدعية التوسّل

أمّا الأدعية الّتي ورد فيها التوسّل بأولياء الله تعالى فهي كثيرة وموزّعة في الصحيفة العلويّة[1] و دعاء عرفة[2] والصحيفة السجّادية[3] وغيرها من كتب الدعاء.

وفيما يلي نذكر نماذج من تلك الأدعية.

١. يقول الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء له:

« ... بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْكَ، وَبِحَقِّكَ الْعَظِيمِ عَلَيْهِمْ أنْ تُصَلِّي عَلَيْهِمْ كَما أنْتَ أهْلُهُ وَأنْ تُعْطِيَني أفْضَلَ ما أعْطَيْتَ السّائلين مِنْ عِبادِكَ الْماضِينَ مِنَ المؤمنينَ، وأفضل ما تُعطي الباقينَ مِنَ الْمُؤْمنينَ ... ».[4]

٢. ويقول الإمام سيّد الشهداء الحسين عليه السلام في دعاء عرفة:

«...اللّهُمَّ إنّا نَتَوَجَّهُ إلَيْكَ ـ فِي هٰذِهِ الْعَشِيَّةِ الَّتي فَرَضْتَها وَعظَّمْتَها ـ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ وَخِيرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ».

٣. ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه بمناسبة حلول شهر رمضان:

---

١. وهي المجموعة التي تضمّ بعض أدعية الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام جمعها الشيخ عبد الله السماهيجي.

٢. وهو دعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفات يوم عرفة.

٣. وهو بعض أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام.

٤. الصحيفة العلوية: ٥١.

«...اللّٰهُمَّ إنّي أسْأَلُكَ بِحَقِّ هٰذا الشَّهْرِ وَبِحَقِّ مَنْ تَعَبَّدَ فيهِ ـ من ابتدائه إلى وقت فنائه ـ مِنْ مَلَكٍ قَرَّبْتَهُ أو نَبيٍّ أرسلتَهُ أو عبدٍ صالحٍ اختَصَصْتَهُ...».[١]

سيرة المسلمين في التوسّل

لقد جرت سيرة المسلمين ـ في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته ـ على التوسّل بأولياء الله والاستشفاع بمنزلتهم وجاههم عند الله تعالى.

وإليك نماذج من تلك السيرة.

١. كتب المؤرّخ الشهير: ابن الأثير (المتوفّى عام ٦٣٠هـ):

«واسْتسقى عُمَرُ بنُ الخَطّاب بالعَبّاسِ، عامَ الرَّمادة، لَمّا اشتَدَّ القَحْطُ، فَسقاهُمُ اللهُ تَعالىٰ بِهِ وَأَخْصَبَتِ الأرضُ، فقالَ عُمرُ: هذا ـ و الله ـ الوَسيلَةُ إلى الله والمكانُ منهُ.

وقال حسّان:

سأل الإمامُ وقد تتابعَ جَدْبُنا
فسقى الغمام بغُرّة العَبّاسِ
عَمِّ النبيّ وصنوِ والده الذي
وَرِثَ النبيّ بذاك دون النّاسِ
أحيا الإلهُ به البلادَ فأصبحتْ
مُخضرَّةَ الأجنابِ بعد اليَاسِ

١. الصحيفة السجّادية: دعاء رقم ٤٤.

ولمّا سُقي النّـاسُ طَفِقُوا يَتمسَّحُـون بالعبـاس ويقولـون: هنيئاً لك سـاقي الحَرَمينِ».[١]

إنّ التأمّل في هـذه القضية التـاريخية ـ و الّتي ذكـر بعضاً منهـا البخاري في صحيحه ـ يؤكّـد على أنّ من مصاديق «الـوسيلة »هـو التوسّل بـأصحاب الجاه والمنزلة عند الله، حيث ينتج منه التقرّب إلى الله وتكريم الداعي والمتوسّل.

وأيّ تعبير أوضح من قوله:

«هذا ـ و الله ـ الوَسيلَةُ إلى الله وَالمَكانُ منهُ»؟!

٢. يقول القسطلاني[٢](المتوفّى عام ٩٢٣هـ):

«إنّ عمر ـ لمّا استسقى بِالعبّاس ـ قالَ:« أيّها الناسُ إنّ رسول الله كانَ يرىٰ للعبّاس ما يرى الولَدُ للوالِد، فاقتَدُوا به في عمّه واتّخذُوه وسيلةً إلى الله تعالى». ففيه التصريح بالتوسّل، وبهذا يبطل قول من منع التوسّل، مطلقاً، بالأحياء والأموات، وقول من منع ذلك بغير النبي».

٣.سبق أن ذكرنا بأنّ المنصور العبّـاسي «الدوانيقي» سأل مالك بن أنس ـ إمام المالكية ـ عن كيفية زيارة رسول الله ﷺ والتوسّل به... فقال لمالك:

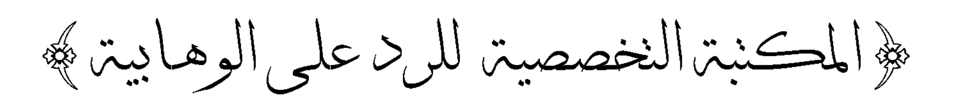
«يا أبا عبد الله أستقبلُ القِبلة وأدعوا، أم أستقبل رسول الله؟ فقال مالك في جوابه: لِمَ تَصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلَة أبيك آدم إلى الله يومَ القِيامة؟! بل استقبلـه و استشفع بـه فيشفّعـك الله، قال الله تعـالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ** ...﴾.[٣]

---

١. أُسد الغابة في معرفة الصحابة:٣/ ١١١، طبعة مصر.

٢. في كتاب المواهب اللدنيّة: طبعة مصر.

٣. وفاء الوفا:٢/ ١٣٧٦.



٤. ذكر ابن حجر الهيتمي هذين البيتين من الشّعر للشافعي ـ إمام الشافعية ـ:

آل النبـــــي ذريعتــــــي	وهـــم إليــــــه وسيلتــــي
أرجـــــو بهم أُعطــى غـــداً	بيـــــدي اليمين صحيفتـــي(١)

بعد كلّ ما سبق من الأدلّة والبراهين والشواهد، يمكن القول بأنّ الأنبياء والشخصيات الدينية السامية هم من الوسائل الّتي عناها الله تعالى بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ...﴾.(٢)

وقد أمر تعالى باتّخاذهم وسيلة إليه سبحانه.

ولا شكّ أنّ الوسيلة غير منحصرة في أداء الفرائض واجتناب المحرّمات فقط، بل تشمل المستحبّات ـ الّتي من ضمنها التوسّل بالأولياء ـ أيضاً.

فهل يمكن القول بأنّ العلماء والمحقّقين قد أخطأوا في فهم معنى «الوسيلة»؟!

مع العلم أنّهم مصادرٌ للحكم وحفّاظٌ للحديث ومن علماء الإسلام الذين يُشار إليهم بالبنان؟!

إنّ الّذين يعرضون صفحاً عن هذه التصريحات والأدلّة، ويبحثون هنا وهناك عن توجيه وتأويل لكلّ حديث ودليل، هم أشبه بالقاضي الّذي يتسرّع في إصدار الحكم من دون الاعتماد على القرائن والشهود.

---

١. الصواعق المحرقة لابن حجر:١٧٨، والكتاب مليء بالانحراف والافتراء، وقد ردّ عليه جمع من العلماء والمحقّقين، منهم: الشهيد السعيد القاضي نور الله التستري في كتابه: الصوارم المهرقة.

٢. المائدة:٣٥.

٥. يروي البخاري في صحيحه:

«إنّ عمر بن الخطاب كان إذا قُحطُوا استَسقـى بالعبّاس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ و قال: اللّهُمّ كُنّا نَتَوَسَّلُ إليكَ بِنَبِيّنا فَتُسْقينا، و إنّا نَتَوَسَّلُ إليكَ بِعَمِّ نَبِيّنا فاسِقنا.

قالَ: فيُسْقَونَ».[1]

لا كلام في صحّة هذا الحديث، حتّى أنّ الرفاعـي ـ الكاتب الوهّابي الّذي يردّ أحاديث التوسّل المتواترة مهما أمكنه ـ قد اعترف بصحّة هذا الحديث وقال:

«إنّ هذا الحديث صحيح[2] فإن صـحّ هذا الجواز شرعـاً فنحن مـن أسبق الناس إلى الأخذ به والعمل بمقتضاه».

فمع الانتبـاه إلى ما ذكروه عـن عمر بن الخطّاب بشـأن التوسّل بـالعبّاس، وأنّـه أقسمَ بالله بـأنّ «هذا والله الـوسيلـة إلى الله والمكان منـه» يتّضح بأنّ حقيقـة التـوسّل ـ في هـذا المجال ـــ هي التـوسّل بذات العبّـاس ونفسه، أو بشخصيّتـه ووجاهته عند الله تعالى، لا بدعاء العبّاس.

هذا... وقد روى محمّـد بن النعمان المالكي ـ المتوفّى سنة ٦٨٣ هـــ في كتابه «مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام» كيفيّة توسّل عمر بالعبّاس وأنّه قال:

«اللّهمَّ إنّـا نسْتَقيكَ بعَمِّ نَبيّك وَنَسْتَشْفِـعُ إلَيْكَ بِشَيْبَتِهِ، فَسُقُـوا» و في ذلك يقول العبّاس ابن عُتبة بن أبي لهب:

بعمّي سقى الله الحجاز وأهله   عشِيّة يَستسقي بشيبَته عُمَرُ[3]

---

١. صحيح البخاري: ٢/ ٣٢، باب صلاة الاستسقاء.

٢. كـان الصحيح أن يقـول: إنّ هـذا التـاريخ صحيح، لأنّ الحديـث ـــ في الاصطـلاح ـ هـو كـلام النبي ﷺ وكلامنا الآن عن الأحداث التاريخية، وقد سبق ذكر الأحاديث الشريفة.

٣. وفاء الوفا: ٣/ ٣٧٥، نقلاً عن مصباح الظلام.

وكذلك أنشد حسّان قوله:

«فَسَقَى الغَمامُ بغُرَّة العبّاس».

وقال ابن حجر العسقلاني[١]:

«إنّ العبّاس دعا إلى الله تعالى بقوله: ... وقد توجّه الْقوم بي إليك لمكاني من نبيّك».

أيّها القارئ الكريم: لقد ظهر لك ـ بكلّ وضوح ـ أنّ التوسّل إنّما كان بشخصية العبّاس وجاهه، وقد قال علماء البلاغة والأدب:

«تعليق الحُكم بالوصف مشعرٌ بالعِلّية».

يعني ترتّب الحكم على الوصف يدلّ على أنّ العلّة في ذلك الحكم هو الوصف، فمثلاً يقول القرآن الحكيم:

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾ .

يعني: أنّ المرأة الّتي أنجبت مولوداً للزوج، فعلى الزوج أن يتكفّل نفقتها، فالحكم هو وجوب الإنفاق، والوصف هو المولود الّذي أنجبته المرأة.

وإليك مثالاً آخر:

لو قال الوالد لولده: «احترم العالم» فإنّما هو لعلّة العلم والفضيلة الّتي فيه.

بناءً على هذا ... فإنّ قول عمر: «إنّا نتوسّل إليكَ بعمّ نبيّك» فيه بيان علّة التوسّل بالعبّاس دون غيره من الناس، وأنّها لكونه عمّ رسول الله ﷺ، وقد ذكر العبّاس نفسه ذلك فقال: «لمكاني من نبيّك».

والخلاصة: بعد كلّ ما سبق... يمكن القول ـ بالقطع واليقين ـ إنّ المسلمين في صدر الإسلام كانوا يتوسّلون بالأشخاص الصالحين الأزكياء.

---

١. فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ٢/ ٤١٣.

٦. شعر صفيّة في رثاء النبي

أنشدت صفيّة بنت عبد المطلّب ـ عمّة النبيّ ـ قصيدة بعد وفاة النبيّ في رثائه ﷺ ومنها:

ألا يا رسول الله أنت رجاؤنا   وكنتَ بنا بَرّاً ولم تَكُ جافيا
وكنت بنا بَرّاً رؤوفاً نبيّنا   لِيَبْكِ عليكَ اليوم مَن كان باكيا[1]

إنّنا نستنتج من هذه المقطوعة الشعرية ـ الّتي أُنشدت على مسمع من الصحابة وسجّلها المؤرّخون وأصحاب السِّيَر ـ أمرين:

الأوّل: إنّ مخاطبة الأرواح ـ وبالخصوص مخاطبة رسول الله بعد وفاته ـ كان أمراً جائزاً وجارياً، وقولها: «ألا يا رسول الله» لم يكن لغواً ولا شركاً كما تدّعي الوهّابيّة.

الثاني: إنّ قولها: «أنت رجاؤنا» يدلّ على أنّ النبيّ ﷺ هو أمل المجتمع الإسلامي في كلّ العصور والأحوال، ولم تنقطع الروابط والعلاقات معه ﷺ حتّى بعد وفاته.

بعض ما كُتب في التوسّل

من المناسب أن نُشير إلى بعض الكتب القيّمة الّتي كتبها علماء أهل السُّنّة حول التوسّل بالنبيّ الأكرم ﷺ وإنّ مطالعة هذه الكتب تكشف عن رأي علماء الإسلام في التوسّل بالأنبياء والأولياء، و تؤكّد على أنّ التوسّل ـ على خلاف ما

١. ذخائر العقبى للحافظ محبّ الدين الطبري: ٢٥٢؛ مجمع الزوائد: ٩/ ٣٦ ونشير إلى أنّ جملة «أنت رجاؤنا» في الشطر الأوّل جاءت في هذا المصدر هكذا: «كنت رجاءنا».

تدّعيه الوهّابيّة ـ كان أمراً متداولاً وسُنّة متَّبعة عند المسلمين طوال التاريخ:

١ . كتاب الوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزي (المتوفّى سنة ٥٩٧هـ) و قد أفرد باباً حول التوسّل بالنبيّ و باباً حول الاستشفاء بقبره الشريف.

٢ . مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام: تأليف محمد بن نعمان المالكي (المتوفّى سنة ٦٧٣هـ)، وقد نقل السمهودي ـ في كتاب وفاء الوفا، باب التوسّل بالنبيّ ـ عن هذا الكتاب نقلاً كثيراً.

٣. البيان والاختصار: لابن داود المالكي الشاذلي، وقد ذكر فيه توسّل العلماء والصلحاء بالرسول الأكرم ﷺ في المحن والأزمات.

٤ . شفاء السقام: لتقيّ الدين السبكي (المتوفّى عام ٧٥٦هـ) وقد تحدّث عن التوسّل بالنبيّ ﷺ بشكل تحليليّ رائع من ص ١٢٠ إلى ١٣٣ .

٥. وفاء الوفا لأخبار دار المصطفى: للسيّد نور الدين السمهودي (المتوفّى سنة ٩١١هـ) وقد بحث عن التوسّل بحثاً واسعاً في الجزء الثاني من صفحة ٤١٣ إلى ٤١٩.

٦. المواهب اللدنيّة: لأبي العبّاس القسطلاني (المتوفّى سنة ٩٣٢هـ).

٧. شرح المواهب اللدنيّة: للزرقاني المالكي المصري (المتوفّى سنة ١١٢٢هـ) في الجزء الثامن ص ٣١٧.

٨. صلح الاخوان: للخالدي البغدادي (المتوفّى سنة ١٢٩٩هـ)وله أيضاً رسالة خاصّة في الردّ على الآلوسي حول موضوع التوسّل بالنبيّ ﷺ وقد طُبعت الرسالة في سنة ١٣٠٦هـ.

٩. كنز المطالب: للعدوي الحمزاوي (المتوفّى سنة ١٣٠٣هـ).

١٠ . فرقان القرآن: للعزامي الشافعي القضاعي، وقد طُبع هذا الكتاب مع كتاب الأسماء والصفات للبيهقي في ١٤٠ صفحة.

أيّها القارئ الكريم: إنّ مطالعة هذه الكتب ـ وخاصّة تلك التي تحدَّثت بالتفصيل عن التوسّل، ويأتي كتاب صلح الاخوان و فرقان القرآن في طليعتها ـ إنّ مطالعة هذه الكتب يُثبت سيرة المسلمين ـ في كلّ عصر ومصر ـ في التوسّل بالنبيّ ﷺ ويكشف عن ضلال ابن تيميّة وتلامذته وانحراف رأيهم وفساد عقيدتهم.

وفي الختام

في ختام هذا الفصل نقول ـ عوداً على بدء ـ: إنّ القرآن الكريم يصرّح بجواز التوسّل بأولياء الله تعالى، بل يدعو إلى ذلك بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجاهِدُوا في سَبيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.(١)

إنّ هذه الآية تدعو إلى اتّخاذ «الوسيلة» في كلّ المجالات بصورة عامّة.

والسؤال: ما هي «الوسيلة»؟

الجواب: لم تذكرها الآية الكريمة، ولا شكّ أنّ أداء الفرائض الدينية هي من وسائل الفلاح والنجاة، ولكن لا شكّ أيضاً أنّ «الوسيلة» غير منحصرة في ذلك، بل ـ وبالاعتماد على سيرة المسلمين طوال التاريخ ـ إنّ من «الوسيلة» التوسّل بأولياء الله الصالحين، وأنّه من وسائل الفوز والفلاح وقضاء الحوائج وتحقيق الآمال، ويتجلّ هذا ـ بوضوح فيما ذكرنا من كلام إمام المالكية مع المنصور العبّاسي، وتوسّل عمر بن الخطّاب بالعبّاس للاستسقاء وغير ذلك.

﴿إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبيلاً﴾.

---

١. المائدة:٣٥.

الفصل الثامن

النذر لأهل القبور

قبل كلّ شيء نذكر تعريفاً للنذر فنقول:

«النـذر» إلـزام الإنسـان نفسـه بأداء شيء معيّن إذا تحقّـق هـدفـه وقُضيَتْ حاجته، فيقول: لله عليّ أن... (ويذكر نذره) إذا كان... «ويذكر حاجته».

مثلاً يقول: لله عليّ أن أختم القُرآن إذا نَجَحتُ في الامتحانات الدِّراسيّة.

هذا هـو النذر الشرعي ، ويجب أن يكـون لله فقط، فإذا قال النـاذر: نذرتُ لفلان، ففي قوله مَجازٌ، والمعنى: نذرتُ لله على أن يكـون ثوابه لفلان. وثواب النذر يقع على ثلاثة أقسام:

١ . أن يكون الثواب لنفس الإنسان الناذر.

٢ . أن يكون لشخص حيّ.

٣ . أن يكون لشخص ميّت.

فقد يُخصِّص الإنسـان الناذر ثواب نـذره لنفسه، أو لشخص حيّ ـ واحداً كان أو أكثر ـ أو لشخص ميّت ـ و احداً كان أو أكثر ـ.

وهذه الأقسام الثلاثة كلّها جائزة، ويجب على الناذر الوفاء بنذره إذا قُضيَتْ حاجته.

وقـد مدح الله تعـالى الإمام عليّـاً وفاطمـة والحسن والحسين ـ صلـوات الله

عليهم ـ و قال:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ... ﴾.[١]

أيّها القارئ الكريم: إنّ النذر سُنَّة معروفة بين كافّة المسلمين في العالَم كلّه، وخاصّة في البلاد الّتي تحتضن قبور أولياء الله وعباده الصالحين.

وقد تعارف بين المسلمين النذر لله و إهداء ثوابه لأحد أولياء الله وعباده الصالحين.

حتّى جاء «ابن تيميّة» فزعم حرمة ذلك وشنّ الهجوم على المسلمين وقال: «مَن نذر شيئاً للنبي أو غيره من النبيّين والأولياء من أهل القبور، أو ذبح ذبيحة، كان كالمشركين الذين يذبحون لأوثانهم وينذرون لها، فهو عابدٌ لغير الله، فيكون بذلك كافراً».[٢]

ثمّ جاء محمّد بن عبد الوهّاب ـ بعد أربعة قرون تقريباً ـ فجعل يتكلّم بكلام سلفه، ويُحيي بِدَعه ومفترياته.

لقد جهلا ــ أو تجاهَلا ـ أنّ المقياس العام هو القصد والنيّة القلبيّة ـ فـ«الأعمال بالنيّات».

إذا كان مجرّد العمل الظاهري دليلاً على النيّة، فإنّ كثيراً من مناسك الحجّ وفرائضه تُشبِه ــ في ظاهرها ـ أعمال عَبَدة الأصنام، فقد كانوا يطوفون حول أصنامهم ويقبّلونها، ونحن نطوف حول الكعبة المشرّفة ونُقبّل الحجر الأسود، ونذبح الذبائح ونقرّب القرابين في منى يوم عيد الأضحى، فهل كفرنا وأشركنا بالله بأداء هذه المناسك؟!!

---

١. الإنسان:٧.

٢. فرقان القرآن:١٣٢، نقلاً عن ابن تيميّة.

إنّ المقياس هـو النيّة القلبيّة، ولا يصـحّ التسرُّع في الحُكم وإصـدار الفتوى لمجرّد عملٍ ظاهري.

إنّ كلّ مـن ينذر لأحد أوليـاء الله، إنّما يقصد ـ في قلبه ـ النـذر لله وإهداء الثواب لذلك الوليّ الصالح، ليس إلاّ.

ومن حسـن الحظّ أنّ العلماء والمفكّرين ـ مـن الشيعة والسُّنّة ـ قـد تصدّوا لأباطيل ابن تيميّة ونظائره.

فهذا الخالدي يردّ على ابن تيميّة ويقول:

«إنّ المسألـة تدور مدار نيّـات الناذريـن، وإنّما الأعمال بالنيّات، فـإن كان قصد الناذر، الميّتَ نفسـه والتقرّبَ إليه بذلك لم يجز، قولاً واحـداً، وإن كان قصده وجه الله تعالى وانتفـاع الأحياء ـ بوجهٍ من الـوجوه ـ به وإهداء ثوابـه للمنذور له ـ سواء عيّـن وجهاً مـن وجوه الانتفـاع، أو أطلق القـول فيه وكـان هناك مـا يطّرد الصرف فيه في عُـرف الناس، أو أقربـاء الميّت، أو نحو ذلـك ـ ففي هـذه الصورة يجب الوفاء بالنذور».[1]

ثمّ ذكر ما صرّح به علماء عصره ومن قارب عصره حول هذه المسألة.

وقال العزامي ـ في كتاب فرقان القرآن ـ :

«... ومَن استخبر حال من يفعل ذلك من المسلمين، وجدهم لا يقصدون بذبائحهـم ونذورهم للأموات ـ مـن الأنبياء والأولياء ـ إلاّ الصدقـة عنهم وجعل ثوابها إليهم، وقـد علموا أنّ إجماع أهل السُّنّة منعقـد على أنّ صدقة الأحياء نـافعة للأموات، واصلة إليهم، والأحاديث في ذلك صحيحة مشهورة.

فمنها: ما صحّ عن سعـد أنّه سأل النبيّ ﷺ «قال: يا نبيّ الله إنّ أُمّي قد

١. صلح الإخوان:١٠٢ ومابعده.

افتلتت(١) وأعلم أنّها لو عاشت لتصدَّقتْ، أفإن تصدَّقتُ عنها أينفعها ذلك؟

قال ﷺ: نعم.

فسأل النبيّ : أي الصدقة أنفع يا رسول الله؟

قال: الماء.

فحفر بئراً وقال: هذه لأُمّ سعد.(٢)

لقد أخطأ محمّد بن عبد الوهّاب فادّعى أنّ المسلم إذا قال: هذه الصدقة للنبيّ أو للوليّ، فاللام بنفسها هي اللام الموجودة في قولنا: «نذرتُ لله» يُراد منها الغاية، فالعمل لله، بينما لو قال: للنبيّ، يريد بها الجهة التي يُصرف فيها الصدقة من مصالح النبيّ ﷺ في حياته ومماته.

وفي هذا الصّدد يقول العزامي ـ بعد ذكر قصة سعد ـ:

«اللام في «هذه لأُمّ سعد» هي اللام الداخلة على الجهة الّتي وُجّهت إليها الصدقة، لا على المعبود المتقرّب إليه، وهي كذلك في كلام المسلمين، فهم سعديُّون لا وثنيّون!

وهي كاللام في قوله تعالى: ﴿إنّما الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراء﴾ لا كاللام في قوله سبحانه: ﴿رَبِّ إنّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْني مُحَرَّراً ...﴾ (٣) أو في قول القائل: صلّيتُ لله ونَذَرْتُ لله، فإذا ذَبح للنبيّ أو الوليّ أو نَذَر الشيء له فهو لا يقصد إلاّ أن يتصدّق بذلك عنه، ويجعل ثوابه إليه، فيكون من هدايا الأحياء للأموات المشروعة المثاب على إهدائها، والمسألة... مبسوطة في كتب الفقه وفي كتب الردّ على الرجل ومن شايعه».(٤)

---

١. أي ماتت.
٢. فرقان القرآن: ١٣٣.
٣. آل عمران: ٣٥.
٤. فرقان القرآن: ١٣٣.

وهكذا ظهر لك ـ أيّها القارئ ـ جواز النذر للأنبياء والأولياء، من دون أن يكون فيه شائبة شرك، فيُثاب به الناذر إن كان لله وذبح المنذور باسم الله، فقول القائل «ذبحتُ للنبيّ» لا يريد أنّه ذبحه للنبي ﷺ بل يريد أنّ الثواب له، كقول القائل: «ذَبحتُ للضيف، بمعنى أنّ النفع والفائدة له، فهو السبب في حصول الذبح.

ويوضّح ذلك ما روي عن ثابت بن الضحّاك قال:

«نَذر رجلٌ على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً بـ«بوانة» فأتى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال[النبيّ]:

هل كان فيها وَثَن يُعْبَدُ من أوثان الجاهلية؟

قالوا: لا.

قال: فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟

قالوا: لا.

قال ﷺ للسائل: أوْفِ بنذرِكَ، فإنّه لا وفاء لنَذْرٍ في معصية الله، ولا فيما لا يَمْلِكُ ابنُ آدم».(١)

وروي أيضاً:

«إنّ امرأة أتت النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله...إنّي نذرتُ أن أذبح بمكان كذا وكذا ـ مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية.

فقال النبي: ألصنم؟

قالت: لا.

قال: ألوَثَن؟

---

١. سنن أبي داود: ٢/ ٨٠.

قالت: لا.

قال: في بِنَذْرِكِ».(١)

وعن ميمونة بنت كردم أنّ أباها قال لرسول الله ﷺ:

«يا رسول الله إنيّ نذرتُ إن وُلد لي ذكر أن أنحر على رأس «بُوانة» ـ في عَقَبة من الثنايا ـ عدّة من الغنم.

قال«الراوي عنها»: لا أعلم إلاّ أنّها قالت: خمسين.

فقال رسول الله ﷺ: هل من الأوثان شيء؟

قال: لا.

قال: فأوفِ بما نذرتَ به لله...».(٢)

أرأيت ـ أيّها القارئ ــ كيف يُكرّر النبيّ ﷺ السؤال عن وجود الأصنام في المكان الّذي تذبح فيه الذبائح؟!

إنّ هذا دليل على أنّ النذر الحرام هو النذر للأصنام، حيث كان ذلك عادة أهل الجاهلية، كما قال تعالى:

﴿... وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ... ذٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ .(٣)

وكلّ من اطّلع على أحوال الزائرين للعتبات المقدَّسة ومراقد أولياء الله الصالحين يعلم جيّداً أنّهم ينذرون لله تعالى ولرضاه، ويذبحون الذبائح باسمه عزّوجلّ، بهدف انتفاع صاحب القبر بثوابها، وانتفاع الفقراء بلحومها.

وختاماً لهذا الفصل نذكر كلمة للخالدي ـ بعد أن ذكر ما رواه أبو داود في سُننه ـ قال:

---

١. سنن أبي داود:٢/ ٨١.

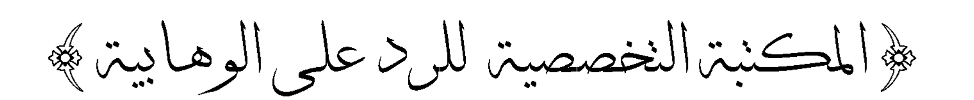
٢. سنن أبي داود:٢/ ٨١.

٣. المائدة:٣.



«وأمّا استدلال الخوارج بهذا الحديث على عدم جواز النذر في أماكن الأنبياء والصالحين، زاعمين أنّ الأنبياء والصالحين أوثان ـ و العياذ بالله ـ وأعياد من أعياد الجاهلية، فهو من ضلالاتهم وخرافاتهم وتجاسرهم على أنبياء الله وأوليائه، حتّى سمّوهم أوثاناً، وهنا غاية التحقير لهم، خصوصاً الأنبياء، فإنّ من انتقصهم ــ و لو بالكناية ــ يكفر ولا تُقبل توبته ــ في بعض الأقوال ــ و هؤلاء المخذلون بجهلهم يُسمّون التوسُّل بهم عبادة ويسمّونهم أوثاناً، فلا عبرة بجهالة هؤلاء وضلالاتهم، والله أعلم».[1]

١. صلح الاخوان:١٠٩.


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الفصل التاسع

تكريم مواليد أولياء الله ووفياتهم

هل تكريم مواليد أولياءالله ووفيّاتهم بدعة؟!

إنّ الوهّابيّة تدّعي حرمة ذلك... فكأنّها تُضمر الحقد الدفين والعداء البغيض لأولياء الله وقادة الإسلام، حيث إنّها تمنع من إقامة الاجتماعات في مواليدهم ووفيّاتهم.

يقول الوهّابي «محمّد حامد الفقي» رئيس جماعة «أنصار السُّنّة المحمّدية» ـ في حواشيه على كتاب الفتح المجيد ـ:

«الذكريات الّتي ملأت البلاد باسم الأولياء هي نوعٌ من العبادة لهم وتعظيمهم».(١)

إنّ العلّة الأساسية في كلّ هذه الانحرافات هي أنّ الوهّابيّين لم يُحدِّدوا معنى «التوحيد» و «الشِّرك» و«العبادة» حتّى الآن، ولهذا فهم يعتبرون كلّ تكريم لأولياء الله عبادة لهم وشركاً بالله، وقد قرأت أنّ المؤلّف الوهّابيّ خَبَط خبطة عشواء فَقَرن

---

١. الفتح المجيد: ١٥٤، في هذه الأيام الّتي أنشغل فيها بتأليف هذا الكتاب، يحتفل المسلمون ـ في كافة البلاد الإسلامية ـ بميلاد خاتم الأنبياء ومنقذ البشرية النبيّ محمّد ﷺ وقد أفتى مفتي آل سعود «ابن باز» بحرمة الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة واعتبرها بدعة، ولكن هذا المفتي نفسه خاطب الملك فيصل ـ في فترة حكومته ـ بـ«أمير المؤمنين» ممّا أثار السخط والاشمئزاز في الأوساط كلّها، حتّى أنّ الملك نفسه أعرب عن عدم استحقاقه لهذا اللقب.

بين كلمتي «العبادة» و «التعظيم» وذكرهما بازاء الآخر، ظنّاً منه أنّ المعنى فيهما واحد.

وإنّنا سوف نتحدّث عن العبادة ومفهومها ـ في فصلٍ خاص[1] ـ و سنبرهن على أنّ كلّ تكريم وتعظيم لأولياء الله ليس عبادة لهم أبداً. والحديث الآن حول جواز تكريم مواليد الأولياء ووفيّاتهم، على ضوء القرآن الكريم.

ممّا لا شكّ فيه أنّ القرآن الحكيم ذكر جمعاً من الأنبياء والأولياء بكلمات المدح والثناء والتجليل والاحترام فمثلاً:

١. يقول بالنسبة إلى النبيّ زكريا ويحيى وغيرهما:

﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.[2]

فإذا أُقيم حفل تكريمي لهؤلاء الأنبياء ووقف خطيب يتحدّث عنهم بمثل ما جاء في القرآن الكريم من كلمات المدح والثناء لهم، وذكرهم بالتجليل والاحترام، ... فهل ارتكب خطيئة بذلك، سوى أنّه اقتدى بالقرآن الكريم؟!

٢. ويقول بالنسبة إلى أهل البيت عليهم السلام :

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾.[3]

فإذا اجتمع شيعة الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام في يوم ميلاده الشريف، وقال خطيبهم: إنّ هذا الإمام هو من أُولئك الّذين قدّموا طعامهم للمسكين واليتيم والأسير، فهل هذا يعني أنّهم عبدوه؟!

وهكذا الحال بالنسبة إلى ميلاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا أقمنا احتفالاً عظيماً يوم

---

١. انظر الفصل الحادي عشر من فصول هذا الكتاب.

٢. الأنبياء: ٩٠. ٣. الإنسان: ٨.

ميلاده السعيد وتحدّثنا فيه عن الآيات القرآنية الّتي امتدحت النبيّ ﷺ أو ترجمناها من اللغة العربية إلى غيرها ـ حسب ما يقتضيه ذلك الحفل ـ أو ذكرنا معنى تلك الآيات في قوالب شعريّة، أو ما شابه ذلك، فلماذا نكون عاصين بهذا العمل؟!!

إنّ الوهّابيّين هم أعداء تكريم الأنبياء والأولياء، ويُلبسون عداءهم هذا بلباس الدين فيقولون: إنّ التكريم بدعة، منعاً من إقامته بين المسلمين.

إنّ الاحتفال بذكرى الأولياء ـ بما أنّه يُقام باسم الإسلام ـ يجب أن يُقرّه الإسلام بنصٍّ خاصّ أو عامّ، وإلاّ فهو بدعة وحرام.

والجواب انّه لم يرد في الموضوع نصّ بالخصوص ولكن يكفي في الخروج عن البدعة، الدليل العام الداعي إلى لزوم أو استحباب تكريم النبيّ ﷺ، ومن المعلوم انّ هذه الاحتفالات والمراسيم لا تقام إلاّ «تكريماً» للأنبياء والأولياء فقط.

فالهدف من هذه المراسيم والاحتفالات ــ الّتي تُزاولها كافّة الشعوب في العالَم ــ ليس إلاّ التكريم والتقدير للشخصيّات البارزة، وأنّ هذه الاحتفالات متداولة لدى كافّة الشعوب الإسلامية، باستثناء الشرذمة «النّجدية» المعقّدة فقط، فلو كان هذا العمل بدعة وظاهرة جديدة ومخالفاً للشريعة الإسلامية لما كان علماء الإسلام ــ في الأقطار الإسلامية كلّها ــ يقيمون بأنفسهم هذه الاحتفالات ويشاركون فيها بإلقاء الكلمات والقصائد، ممّا يزيد الاحتفال بهجة وحيويّة وفرحاً.

القرآن وتكريم الأنبياء والأولياء

والآن نذكر بعض الأدلّة من القرآن الكريم على جواز تكريم الأنبياء والأولياء فيما يلي:

الآية الأُولى:

إنّ القرآن الكريم يُشيد بجماعةٍ كرّمت النبيّ ﷺ فيقول:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[1]

إنّ الكلمات الّتي وردت في هذه الآية هي:

١. ﴿آمَنُوا بِهِ﴾.

٢. ﴿عَزَّرُوهُ﴾

٣. ﴿نَصَرُوهُ﴾.

٤. ﴿اتَّبَعُوا النُّورَ﴾.

هل يحتمل أحد أن تكون هذه الكلمات و الأوصاف خاصّة بزمن النبيّ ﷺ؟!!

بالتأكيد: لا.

ومع انتفاء هذا الاحتمال قطعاً، تكون كلمة ﴿عزّروه﴾ ـ الّتي هي بمعنى التكريم والتعظيم[2] ـ عامّة لحياة النبيّ ﷺ وبعد وفاته، فالله تعالى يريد أن يكون حبيبه المصطفى ﷺ معظّماً مكرّماً حتّى الأبد.

ونتساءل: أليست إقامة الاحتفالات في يوم ميلاد النبيّ ﷺ وبعثته، و إلقاء الخُطَب والقصائد، مصداقاً واضحاً لقوله تعالى: ﴿عَزّروه﴾؟!

يا للعجب!! إنّ الوهّابيّين يُعظّمون شخصيّاتهم وأُمراءهم أكبر تعظيم، لكن يعتبرون تكريم وتعظيم النبي ﷺ أو منبره ومحرابه بدعة وشركاً!!

---

١. الأعراف:١٥٧.

٢. راجع كتاب مفردات القرآن: للراغب، مادة : عزر.

إنّ الوهّابيّة ـ بهذه العقائد الجافّة ـ تُشوّه سمعة الإسلام أمام الرأي العامّ العالمي، وتعرِّفه ديناً عارياً عن كلّ عاطفة، وفاقداً للمشاعر الإنسانية، وناقصاً عن كلّ تكريم واحترام، ورافضاً لتكريم عظمائه وقادته، وبهذا تُنفِّر الناس من الإسلام وتتركهم في رفضٍ واشمئزازٍ منه.

تماماً... بعكس الإسلام الّذي جعله الله ديناً سهلاً سمحاً يتجاوب مع الفطرة البشرية ويتماشىٰ مع العاطفة الإنسانية، ويجذب ـ بجماله وروعته ـ الشعوب والأُمم إلى اعتناقه.

الآية الثانية:

إنّ الوهّابيّة ـ الّتي تُعارض كلّ نوع من أنواع العزاء والبكاء على الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله ـ ماذا تقول بشأن ما حصل للنبيّ يعقوب عليه السلام؟!

إذا كان النبيّ الكريم (يعقوب) اليوم حيّاً يعيش بين أهالي «نجد» وأتباع محمّد بن عبد الوهّاب، كيف كانوا يحكمون عليه؟!

لقد كان يعقوب عليه السلام يبكي على فراق ولده يوسف ليلاً ونهاراً، ويستفسر عنه ويترنّم باسمه حتّى: ﴿... ابيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فهُوَ كَظيمٌ﴾.[١]

وبالرغم من كلّ ما كان يعاني منه يعقوب من ابيضاض العين وحزن القلب وألم الفراق، فإنّه لم ينس ابنه يوسف، بل كان يزداد شوقاً إليه كلّما قرب الوصال واللقاء به، حتّى أنّه شمّ ريح يوسف من مسافة بعيدة.

قال تعالى عن لسانه:

﴿إنّي لأجِدُ ريحَ يُوسُفَ لَوْلا أنْ تُفَنِّدُون﴾.[٢]

---

١. يوسف: ٨٤.

٢. يوسف: ٩٤.



فكيف تكون هذه المحبّة والمودّة والتعبير عن العلاقة الشديدة بالمحبوب «يوسف» في حياته عملاً صحيحاً ومتّفقاً مع توحيد الله تعالى، ولكنّها تنقلب بدعة وحراماً بعد وفاته؟!!

مع العلم أنّ فراق العزيز وموته يترك في القلب نيران الأسىٰ والحزن والألم بصورة أكثر من فراقه في حياته.

واليوم... إذا اجتمع المؤمنون ـ الذين يشبهون يعقوب في حزنه ـ في عزاء وليّ من أولياء الله ـ كالأئمّة الطاهرين الذين يشبهون يوسف في مصابه، بل مصابهم أشدّ منه كثيراً ـ وأحيوا ذِكر ذلك الوليّ الصالح، بالكلمات والخُطَب والقصائد، وردّدوا سيرته وخُلُقه الكريم وخصاله الحميدة وسلوكه الطيّب، ثمّ ذرفوا دموع العاطفة والحنان عليه... فهل معنى هذا كلّه أنّهم عبدوا ذلك الولي؟!

قليلاً من التفكّر والموضوعية!

قليلاً من الفهم والمعرفة!

الآية الثالثة:

قال تعالى:

﴿ ... **قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاّ المَوَدَّةَ فِي الْقُربىٰ** ... ﴾.[١]

ممّا لا شكّ فيه أنّ مودّة ذي القربىٰ هي إحدى الفرائض الدينية الّتي نصّ عليها القرآن بكلّ صراحة.[٢] فلو أراد شخص أن يؤدّي هذا الواجب الديني ـ بعد أربعة عشر قرناً ـ فماذا يجب أن يفعل والحال هذه؟!

أليس المطلوب أن «يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم»؟!

١. الشورى: ٢٣.

٢. لقد وردت عشرات الأحاديث عن النبيّ ﷺ في أنّ «القربى» في الآية هم أهل البيت ﷺ.

فلو أقام مراسم خاصّة أشاد فيها بشخصية ذلك العظيم وحياته المتلألأة وفضائله الكريمة وتضحياته السامية، واستعرض جانباً من آلامه وما جرى عليه من المصاعب والمصائب... فهل ارتكب حراماً بعمله هذا؟ أم أنّه أحيا ذكر ذلك العظيم وأدّى «المودّة» تجاهه؟!!

ولو أنّ الإنسان ـ لمزيد المودَّة في القربىٰ ـ تفقّد من ينتسب إلى ذوي القربىٰ، وقام بزيارة قبور ذي القربى وأقام تلك المجالس عند مراقدهم... ألا يحكم العقلاء وأهل البصيرة والدين بأنّه يؤدّي فريضة «المودّة في القربىٰ»؟!

إلاّ أن يقول الوهّابيّون: إنّ الواجب هو كتمان المودّة في النفوس وعدم إبرازها بأيّ وجه ممّا هو ثابت البطلان!!

لقد شهد عصر النبيّ ﷺ وما بعده من العصور الّتي عاشت تغيراً في العقائد وتحوّلاً في الأفكار ـ شهد إقبالاً عظيماً من الشعوب والأُمم المختلفة تجاه الإسلام، حتّى قال تعالى:

﴿... وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجاً﴾ .(١)

وكان الإسلام يحتضنهم ويكتفي منهم ـ في البداية ـ بالشهادتين، مع محافظتهم على ثقافتهم وآدابهم وتقاليدهم، ولم يعمل النبيّ ﷺ ومن جاء من بعده، على فرض الرقابة على عادات الشعوب وتقاليدها، وصَهْرها في بوتقةٍ واحدة.

إنّ احترام كبار الشخصيّات وإقامة مجالس العزاء في ذكريات وفاتهم، والاجتماع عند مراقدهم، وإظهار الحبِّ والمودّة لهم... كلّ ذلك كان ولا يزال أمراً متداولاً لدى كافة الشعوب في العالَم كلّه..

وفي عصرنا الحاضر... ترى الشعوب الشرقية الغربية تقف ساعات طويلة في

---

١. النصر:٢.

الانتظار لزيارة الأجساد المحنَّطة لزعمائها وقبور قادتها القدامى، ويذرفون دموع الشوق بجوارها، ويعتبرون ذلك نوعاً من الاحترام والتقدير.

ولم يُعهد من النبيّ ﷺ أن يجري تحقيقاً عن عقائد الناس وآدابهم المعروفة أوّلاً ثمّ يوافق على دخولهم في الإسلام، بل كان يكفي تشهّدهم للشهادتين، ولو كانت هذه العادات محرَّمة وعبادة لتلك الشخصيّات لاشترط عليهم البراءة والتخلّي من كلّ ما لديهم من عادات وتقاليد، ثمّ الدخول في الإسلام، ولم يكن الأمر كذلك.

الآية الرابعة:

إنّ النبيّ عيسى عليه السلام سأل ربّه أن يُنزل عليه مائدة من السماء، ويعتبر يوم نزولها عيداً له ولأصحابه.

يقول القرآن الكريم ـ عن لسان عيسى ـ:

﴿ ... رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عيداً لأوّلِنا وَ آخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرّازِقينَ﴾.[1]

فهل ـ يا ترى ـ أنّ شخصيّة الرسول ﷺ أقلّ شأناً من تلك المائدة الّتي اتخذ المسيح يوم نزولها عيداً؟!!

إذا كان اتخاذ ذلك اليوم عيداً لكون المائدة آية إلهية ومعجزة سماوية... أليس نبيّ الإسلام أكبر آية إلهية ومعجزة القرون والعصور؟!

تبّاً وبُعداً لقوم يوافقون على اتخاذ يوم نزول المائدة السماوية ـ الّتي لم يكن لها شأن سوى إشباع البطون الجائعة ـ عيداً، ولكنّهم يُهملون يوم نزول القرآن على رسول الله ﷺ ويوم مبعثه الشريف، بل و يعتبرون الاحتفال به بدعة وحراماً!!

١. المائدة: ١١٤.

الآية الخامسة:

قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.[١]

إنّ إقامة المجالس والاحتفالات هي نوع من رفع الذِّكر، والمسلمون لا يهدفون من الاحتفال بميلاد النبيّ ومبعثه وغير ذلك من المناسبات الدينية سوى رفع ذكره وذكر أهل بيت الأطهار عليهم السلام.

فلماذا لا نقتدي بالقرآن؟!

أليس القرآن قدوة وأُسوة لنا؟!

هذا... وليس لأحد أن يقول: «إنّ رفع ذكره صلى الله عليه وآله خاصّ بالله سبحانه ولا يشمل غيره» لأنّ ذلك يشبه أن يقول: إنّ نصر النبيّ خاصّ بالله سبحانه ولا يجوز لأحدٍ من المسلمين أن ينصره وقد قال تعالى:

﴿وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزيزاً﴾.[٢]

ولعلّ الهدف من هذه الآيات هو دعوة المسلمين إلى نصر النبيّ صلى الله عليه وآله وتخليد ذكراه وإحياء اسمه ورسمه.

التناقض بين قول الوهّابيّة وعملها

والعجب من هؤلاء الوهّابيّين... كيف يُحرّمون الاحتفال بمولد النبيّ صلى الله عليه وآله ذلك النبيّ الّذي أسدىٰ إلى البشرية عامّة أعظم العطاء الزاخر الدائم، ويعدُّون الاحتفاء به والاحتفال بميلاده شركاً، ولكنّهم يقيمون الاحتفالات الضخمة تشييداً لرجالهم وأُمرائهم، ويُنفقون ـ في هذا السبيل ـ ملايين الريالات، تقديراً لخدماتهم كما يزعمون.

---

١. الانشراح: ٤. ٢. الفتح: ٣.

انظر إلى العدد ١٠٢ من مجلة الفيصل ـ الّتي تصدر في طباعة أنيقة جدّاً في السعوديـة ـ فهو يحتوي على تقـرير مفصّل عن الاحتفالات الكبرىٰ الّتي أقـامتها السلطـات السعوديـة بمناسبـة عودة «الأمير سلطـان» من الرحلـة الفضائيـة في مركبة «ديسكفري».

ويحتوي هـذا العدد على صُـوَر كثيرة تُنبئ عن حجم المبـالغ الطائلـة الّتي صُرفت في تلك الاحتفـالات، وقد نُشرت الكلمات والقصائد الّتـي أُلقيت في تلك الاحتفـالات، وتقرأ فيهـا المدح المفـرط والثناء المسرف لآل سعـود عـامّة ولـلأمير خاصّة!!

بالله عليك ـ أيّها القـارئ ـ هل يستحقّ أمير ـ لم يفعل شيئـاً سوى أنّه رافق مجموعة من الأجانـب الغربيّين في رحلة فضائية أعدّها الأمـريكيّون ـ هل يستحقّ هذا الاحتفاء والتكـريم وصرف الأموال الطائلة، وهدر الطـاقات والنشاط فيما لا فائدة فيه ... ولا يستحقّ رسول الله ﷺ الّذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وحلّق بهم في سماء الكمالات المعنـويـة والفضـائل النفسيـة والصفـات العـاليـة وأنقذهم من كلّ سوء وانحطاط وضلال وضياع وانحراف.

ألا يستحقّ رسول الإسلام أن تُخلَّد ذكرى مولـده الشريف، وتُشرَح مناقبه وفضائله وإنجازاتـه العظيمة وعطاؤه الزاخر وخدماتـه الجليلة وجهاده وجهوده وغير ذلك.

حتّى تعـرف الأجيال ــ على امتدادهـا ــ ما أسـداه هذا النبيّ العظيـم من خدمة، وما قدّمه من عطاء و ما تحمّل من عناء وعذاب في سبيل هداية البشرية؟!

وهل التكـريم إلّا الاحتفاء والاحتفـال به ونشر قِيَمِـهِ الفاضلـة والحثّ على الاقتداء به والأخذ بهديه والمحافظة على آثاره؟!

وكيف لا يجوز مدح النبيّ ﷺ وإلقاء القصائد في فضله وعظمته، ويجوز مدح آل سعود وأُمرائهم؟!

ما هذا التناقض بين القول والعمل الّذي يقع فيه الوهّابيّون دائماً؟!

لماذا يمنعون إقامة الاحتفالات بمولد النبيّ الأكرم، بحجّة أنّه لم يَرِد في الشرع الإسلامي، ولكنّهم يقيمون أعظم الاحتفالات والمهرجانات لرجالهم السياسيّين؟!

قال تعالى:

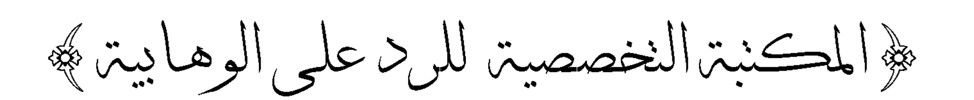
﴿وَإِذا لَقُوا الّذينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَإِذا خَلَوا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنّا مَعَكُمْ إِنّما نَحْنُ مُسْتَهزِءُونَ* اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.(١)

إنّ المسلمين درجوا من قديم الأيام على الاحتفال بميلاد النبي، يقول «الديار بكري»:

«...ولا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ﷺ ويعملون الولائم، ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرّات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من بركاته كلّ فضل عميم».(٢)

١. البقرة: ١٤ـ١٥.

٢. تاريخ الخميس: ١/ ٢٢٣.


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الفصل العاشر

التبرّك والاستشفاء بآثار أولياء الله

تعتقد الوهّابيّة بأنّ التبرّك بآثار أولياء الله شرك بالله، وتعتبر الّذي يُقبّل محراب رسول الله ﷺ ومنبره مشركاً وإن لم يأت بذلك بنيّة العبادة، بل كانت المحبّة والمودّة تجاه النبيّ الكريم هي الدافع له إلى تقبيل آثاره ﷺ.

إنّ المنع من التبرّك بآثار الرسول الأكرم وتقبيل ضريحه المقدّس ومنبره الشريف هو من أشدّ الإجراءات الّتي يتّخذها الوهّابيّون ضدّ المسلمين، وقد استخدموا مجموعة من الشرطة باسم «الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر!!» وزّعوهم في مسجد رسول الله ﷺ للحيلولة دون تقبيل ضريحه المقدّس ومنبره الشريف ومحراب مسجده المبارك، وهؤلاء الوهّابيّون يواجهون المسلمين الحُجّاج بكلّ خشونة وصلافة ويمنعوهم عن التبرّك والتقبيل، وطالما أمسكوا بأيديهم العصا أو الأسلاك الغليظة، وطالما أراقوا ـ في هذا السبيل ـ دماء الأبرياء وهتكوا الأعراض والنواميس في حرم النبيّ ﷺ زعماً منهم أنّ التبرّك والتقبيل عبادة لصاحب القبر.

إنّ هؤلاء الغرباء عن الإسلام أخطأوا في فهم معنى العبادة ومفهومها، ولهذا تاهوا في متاهات الضلال والباطل، فاعتبروا كلّ احترام للميّت عبادة له، مع العلم أنّ تقبيل الضريح المقدّس والتبرّك بالآثار النبوية إنّما هو في سبيل الله

سبحانـه، لأنّ المسلمين لا يكرّمـون النبيّ الأكـرم ولا يتبرّكون بـه وبآثـاره إلاّ لأنّه رسـول الله ونبيُّـه الحبيب المصطفـى، الّـذي شرّفـه الله على كلّ الأنبيـاء والمرسلين وفضَّلـه على الخلق أجمعين، فكـلّ تكـريم وتعظيـم لأوليـاء الله إنّما هـو تعظيم لله سبحانه، وليسـت حقيقة التوحيد إلاّ أن يكون كلّ شيء لله ومـن أجله وفي سبيله، وعند ذلك يكون الله هو المبدأ كما يكون هو المنتهى.

وسـوف نتحدّث ــ في الفصل القـادم ــ عن العبـادة ومفهومهـا بـالضبط والتحقيق.

أمّا الآن فالبحـث عن التبرّك بآثار الأولياء، فيجب أن نعـرض المسألة على كتاب الله وسنّة رسولهﷺ كي يتجلّى الحقّ بأجلى مظاهره.

القرآن والتبرّك

نكتفي من القرآن الكريم بآية واحدة، وهي عن لسان النبيّ يوسف عليه السلام :

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذا فَأَلْقُوهُ عَلىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً ... ﴾ .[١]

إنّ النبيّ يوسف أرسل قميصه إلى أبيه، وقـال لإخوانه: اذهبوا بقميصي هذا وألقوه على وجهه حتّى يعود إليه بصره.

يقول تعالى:

﴿فَلَمّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً ... ﴾ .[٢]

فهذه الآية صريحة بجواز التبرّك بآثار الأنبياء والأولياء حتّى لنبيٍّ آخر، فهذا النبيّ يعقوب يتبرّك بقميص النبيّ يوسف عليه السلام ومن الواضـح أنّ الشفاء من الله

١. يوسف:٩٣.

٢. يوسف:٩٦.

سبحانـه، فهو المؤثّر في الأشيـاء، إلاّ أنّ التبرّك بالقميص صار وسيلـة للشفاء كما يكون الدواء كذلك بإذن الله تعالى.

يـا تُـرى... إذا كـان تبرّك النبيّ يعقـوب بقميـص ابنـه يـوسف يقـع أمـام النجـديّين وأتباع محمّـد بن عبـد الـوهّاب مـاذا كان يحكمـون عليـه؟ بالكفـر؟! بالشرك؟! بالذنب؟! وهو النبيّ المعصوم عن الخطأ والاشتباه!!

إنّ تبرّك المسلمين بضريح رسـول الله وآله الطاهـرين وبآثارهـم ـ صلّى الله عليـه وآلـه وعليهـم أجمعين ـ لا يختلـف عن تبرّك النبـيّ يعقـوب بقميـص ابنـه يوسف عليه السلام.

التبرّك وسيرة المسلمين

إنّ نظـرة خاطفـة في سيرة المسلمين ـ بـدءاً من الصحابـة وإلى هذا اليـوم ـ تكشف لنـا عن السُّنَّة المتَّبعـة لديهم تجاه التبرّك بـالنبيّ صلى الله عليه وآله وآثاره الشريفـة طوال التاريخ، وفيما يلي نذكر نماذج من ذلك، مع مراعاة الاختصار.

١. إنّ فاطمة الـزهراء سيّدة نساء العالمين بنـت رسول الله حضرت عند قبر أبيها صلى الله عليه وآله وأخذت قبضة من تراب القبر تشمّه وتبكي وتقول:

مــاذا على مــن شـمَّ تــربـــةَ أحمدٍ
ألاّ يشــمَّ مــدى الــزمــان غــواليــا
صُبَّــتْ عليَّ مصــائب لـــو أنّها
صُبَّـت على الأيــام صِرنَ ليــاليــا[1]

---

١. لقـد ذكر هـذه القضيـة جمع كثير من المؤرّخين، منهم السمهـودي في وفـاء الوفـا: ج٢، ص ٤٤٤، والخالدي في صلح الإخوان: ص ٥٧ وغيرهما.

إنّ عمل السيدةالزهراء المعصومة هذا لا يدلّ إلاّ على جواز التبرّك بقبر رسول الله وتربته الطاهرة.

٢. إنّ بلال ــ مؤذّن رسول الله ـ أقام في الشام في عهد عمر بن الخطّاب فرأى في منامه النبيّ ﷺ وهو يقول له:

«ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني يا بلال؟».

فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبيّ ﷺ فجعل يبكي عنده ويُمرّغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين عليهما السلام فجعل يضمّهما ويقبّلهما... إلى آخر الخبر.(١)

٣. قال ابن حجر:

«كل مولودٍ وُلد في حياة النبيّ ﷺ يُحكم بأنّه رآه،وذلك لتوفّر دواعي إحضار الأنصار أولادهم عند النبي ﷺ للتحنيك والتبرّك، حتّى قيل: لمّا افتُتحت مكّة جعل أهل مكّة يأتون إلى النبيّ بصبيانهم ليمسح على رؤوسهم ويدعو لهم بالبركة».(٢)

وفي ذلك يقول مؤلّف كتاب «تبرّك الصحابة»:

«لا شكّ أنّ آثار رسول الله ـ صفوة خلق الله وأفضل النبيّين ـ أثبتُ وجوداً وأشهر ذكراً، فهي أولى بذلك «التبرّك» وأحرى، وقد شهده الجمّ الغفير من الصحابة وأجمعوا على التبرّك بها، والاهتمام بجمعها، وهم الهداة المهديّون والقدوة الصالحون، فتبرّكوا بشَعراته وبفضل وضوئه، وبعَرَقه وبثيابه، وبمسّ جسده الشريف، وبغير ذلك ممّا عُرف من آثاره الشريفة الّتي صحّت به الأخبار عن الأخيار».(٣)

١. أُسد الغابة: ١/ ٢٨. ٢. الإصابة: ٣/ ٦٣١. ٣. تبرّك الصحابة: ٥.

ويكفي في ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده:

«إنّ رسول الله ﷺ كان يؤتى إليه بالصبيان فيُبرّك عليهم ويُحنّكهم».(١)

٤. وقد كان الصحابة يتبرّكون بفضل وضوئه وغسله ﷺ فقد روى البخاري:

«خرج علينا رسول الله بالهاجرة، فأُتي بوضوء فتوضّأ، فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه ويتمسّحون به».(٢)

وقد وردت في ذلك روايات ملأت الصحاح والمسانيد.

٥. وكان الصحابة يتبرّكون بشعره ﷺ فقد روى أنس:

«أنّ رسول الله لمّا حلق رأسه كان أبو طلحة أوّل من أخذ شَعره».(٣)

إنّ قوله: «كان أبو طلحة أوّل من أخذ شعره» يدلّ على أنّ الصحابة تسابقوا إلى التبرّك بشَعره المبارك، وكان أبو طلحة أوّل من أخذ من شعره ﷺ.

وروي أيضاً: «أنّ رسول الله ﷺ أتى منىً، فأتى الجمرة فرماها، ثمّ أتى منزله بمنىً، ثمّ قال للحلّاق: خُذ، وأشار إلى جانبه الأيمن ثمّ الأيسر، ثمّ جعل يُعطيه الناس».(٤)

٦. كما كانوا يتبرّكون بالإناء الّذي شرب منه ﷺ:

«قال أبو بردة: قال لي عبد الله بن سلام: ألا أسقيك في قَدَحٍ شرب النبيّ فيه؟».(٥)

ويُفهم من الرواية أنّ عبد الله بن سلام كان يحتفظ بذلك القدَح، لكونه اكتسب البركة بشُرب رسول الله ﷺ فيه.

---

١. مسند أحمد: ٦/ ٢١٢.
٢. صحيح البخاري: ١/ ٥٩؛ فتح الباري: ١/ ٢٥٦.
٣. صحيح البخاري: ١/ ٥٤.
٤. صحيح مسلم: ٣/ ٩٤٧.
٥. صحيح البخاري: ٧/ ١٤٧؛ فتح الباري: ١٠/ ٨٥.

٧. وكانوا يتبرّكون بيديه الشريفتين:

«عن أبي جحيفة قال: خرج رسول الله بالهاجرة إلى البطحاء، فتوضّأ ثمّ صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين...

إلى أن قال: وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه، فيمحسون بها وجوهَهم.

قال: فأخذتُ بيده فوضعتُها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك».(١)

٨. وكانوا يتبرّكون بمنبره الشريف:

«عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد القارئ أنّه نظر إلى ابن عمر وقد وضع يده على مقعد المنبر حيث كان النبيّ يجلس عليه، ثمّ وضعها على وجهه».(٢)

٩. كما كانوا يستشفون بقبره الشريف.

«روي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال: إنّ أعرابياً قَدِم علينا بعد ما دفنّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بثلاثة أيّام فرمى بنفسه على قبر النبيّ، وحثا من ترابه على رأسه وقال: يا رسول الله قلتَ فسمعنا قولك، ووعيتَ عن الله سبحانه فوعينا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ ... ﴾ وقد ظلمتُ وجئتك تستغفر لي. فنودي من القبر: قد غُفر لك».(٣)

والخلاصة: أنّ من يراجع كتب الصحاح والسنن والمسانيد والتواريخ، يرى أنّ الصحابة والتابعين كانوا يتبرّكون بكلّ ما يرتبط بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويستشفعون بقبره، وبوضع الخدّ عليه، وشمّ تربته، والبكاء عنده، بل والتبرّك بعصاه وملابسه، والصلاة في الأماكن الّتي صلّى فيها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو مشىٰ فيها.

---

١. صحيح البخاري: ٤/ ١٨٨.
٢. الطبقات الكبرى: ١/ ١٣، القسم الثاني.
٣. كنز العمال: ٢/ ٢٤٨؛ وفاء الوفا: ٤/ ١٣٦١.

وهذه الروايات على حدٍّ من الكثرة والتواتر بحيث يستحيل عند العقل أن تكون موضوعة ومجعولة، وكيف تكون كذلك وقد رواها الشيخان: البخاري ومسلم، وغيرهما من أعلام الحديث؟!!

وقد قام بجمع هذه الروايات وتوضيحها مع ذكر مصادرها الفاضلان المحقّقان:

الأُستاذ الشيخ محمّد طاهر مكّي في كتابه «تبرّك الصحابة بآثار رسول الله».

والأُستاذ الفذّ الشيخ علي الأحمدي في كتابه القيّم «التبرُّك» وقد استقصى فيه المؤلّف كلّ ما ورد حول التبرُّك، والكتاب يُعتبر من حسنات العصر.

فماذا تقول الوهّابيّة تجاه هذه الأحاديث المتواترة لفظاً ومعنىً؟!

وما هو موقفهم من هذه الحقيقة الساطعة؟!

ولماذا هذه الضجّة العمياء الّتي تثيرها حول التبرّك بضريح رسول الله ﷺ والّذي جرت عليه سيرة السّلف من الصحابة و التابعين، دون أن يَروا أيّ استنكار أو استقباح أو منع أو تحريم من النبيّ ﷺ أو من حوله من الصحابة؟!

ولماذا لا يتركون المسلمين ليُقبّلوا ضريح رسول الله ﷺ ويتبرّكوا به، ويُعبّروا عن مشاعرهم وعواطفهم تجاه نبيّ الله؟!

أفلا يعلمون أنّ النهي عن التبرّك بالضريح النبويّ الطاهر وآثار رسول الله كان من دأب الأُمويّين لا سيّما مروان الّذي لعنه رسول الله؟!

١٠. هلم معي نقرأ ما يرويه الحاكم في المستدرك عن داود بن صالح، قال:

«أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر، فأخذ برقبته ثمّ قال: هل تدري ما تصنع؟

فأقبل عليه فإذا هو أبو أيّوب الأنصاري فقال: نعم إنّي لم آت الحَجَر، إنّما

جئتُ رسول الله ولم آت الحجَر، سمعتُ رسول الله يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليَه أهلُه، ولكن أبكوا على الدين إذا وليَه غيرُ أهله».(١)

قال المرحوم الشيخ الأميني:

«إنّ هذا الحديث يُعطينا خُبراً بأنّ المنع عن التوسّل بالقبور الطاهرة إنّما هو من بدع الأُمويين وضلالاتهم، منذ عهد الصحابة، ولم تسمع أُذن الدنيا قطّ صحابياً يُنكر ذلك، غير ـ وليدُ بيت أُميّة ـ مروان الغاشم!!

نعم... لبني أُميّة ـ عامّة ـ ولمروان ـ خاصّة ـ ضغينة على رسول الله ﷺ منذ يوم لم يُبقِ ﷺ للأُسرة الأُمويّة حرمة إلاّ هتكها، ولا ناموساً إلاّ مزّقه، ولا ركناً إلاّ أباده، وذلك بوقيعته ﷺ فيهم وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى علّمه شديد القوى، فقد صحّ عنه ﷺ قوله: «إذا بلغتْ بنو أُميّة أربعين، اتّخذوا عبادَ الله خولاً، ومالَ الله نحلا، وكتاب الله دَغَلا».(٢)

وترى أنّ أبا أيّوب الأنصاري يردّ على مروان ـ لمّا قال له: هل تدري ما تصنع؟ بقوله: نعم إنّي لم آتِ الحجر، إنّما جئت رسول الله ولم آت الحجر...

أيّ أنّ الهدف من التوسّل والتبرّك هو رسول الله ﷺ الّذي نعتقد بعدم الفرق بين حياته ومماته ـ من هذه الجهة ـ و إلاّ فالتراب والحجر لا قيمة لهما، إلاّ أنّ الحجر والتراب حول قبر رسول الله ﷺ قد اكتسبا القيمة والشرف بذلك.

أيّها القارئ الكريم: إنّ البخاري قد عقد في صحيحه ـ الّذي يُعتبر أصحّ الكتب عند أهل السنّة ـ باباً سمّاه: باب ما ذكر من درع النبيّ ﷺ وعصاه وسيفه وقدَحه وخاتمه وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك ـ ممّا لم يُذكر قِسْمَتُه ـ و من

---

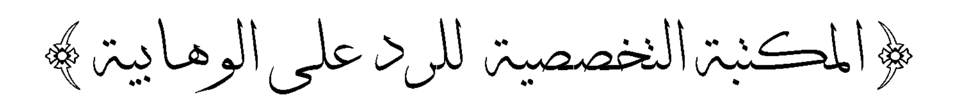
١. مستدرك الصحيحين: ٤/ ٥١٥.

٢. الغدير: ٥/ ١٢٩ـ ١٣٠.

شَعره ونعله وآنيته ممّا يتبرّك أصحابه وغيرهم بعد وفاته.[١]

فإذا وقف الـوهّابيّ على هـذه الأحاديث الهائلـة ـ الّتي تجاوزت المائة ـ فلا مناص لـه من قبـول الحقّ والاعتراف به إن كان ممّـن يستمع القول فيتّبـع أحسنه، وإلاّ فإنّ يوم الفصل كان ميقاتاً.

١. صحيح البخاري: ٤/ ٨٢، المطبوع سنة ١٣١٤هـ.


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الفصل الحادي عشر

التوحيد في العبادة

لقد كانت عبادة الله وحده ـ لا عبادة غيره منفرداً أو مشتركاً ـ أساس دعوة الأنبياء عليهم السلام، وكان توحيد الله وكسر قيود الشرك أساس الأحكام السماوية وفي طليعة رسالات الأنبياء جميعاً، فكأنّ الهدف من بعثة الأنبياء هو الدعوة إلى عبادة الله وحده ومكافحة الشرك بصورة عامّة وفي العبادة بصورة خاصّة.

والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة بصراحة فيقول:

١. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ ...﴾ .[١]

٢. ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ نُوحي إِلَيهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ .[٢]

وقد اعتبر القرآن الكريم عبادة الله جامعاً مشتركاً بين كافّة الشرائع السماوية فقال:

﴿قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾ .[٣]

إنّ التوحيد في العبادة هو أصلٌ ثابت لدى المسلمين كافّة، ولا يعارضه أحد ولا تختلف فيه أيّة فرقة من الفرق الإسلامية.

---

١. النحل:٣٦. ٢. الأنبياء:٢٥. ٣. آل عمران:٦٤.

وإذا كانت المعتـزلة تختلف وجهة نظرهـا حول «توحيد الأفعـال» وكذلك الأشاعرة تختلف حول «توحيد الصفات» فإنّ جميع المذاهب والطوائف الإسلامية تتفق حول «توحيد العبادة» ولا مجال لإنكاره، وإن كان هناك اختلافٌ فإنّما هو في المصـاديـق لا في الأصل، أي أنّ البعـض كـالـوهّـابيّين يعتبرون بعـض الأفعـال (كالتبرّك) عبادة، في حين يعتبره سائر المسلمين تكريماً وتعظيماً لا غير.

وبالاصطلاح المنطقي: إنّ الاختلاف إنّما هـو في «الصغرىٰ» ـ وهو: هل أنّ هذا الفعل عبادة أو لا؟ـ و لا اختلاف في «الكبرىٰ» ـ وهو: لا تجوز عبادة غير الله قطُّ؟ فهذا متَّفق على عدم جوازه ـ.

وبعبارة أُخرى: إنّ الاختلافات إنّما هو في سلسلة أعمال يعتبرها الوهّابيّون عبادة، ولكن غيرهم من المسلمين ـ في العالم كلّه ـ لا يعتبرونها عبادة أصلاً.

فالمفروض أن نوضّح معنى «العبادة» على ضوء القرآن الكريم أيضاً، وعند ذلك ستتّضح المصاديق ـ المختلف فيها ـ بنفسها تلقـائياً، ويظهر لنا ـ بالتحديد والتحقيق ـ معنى «العبادة».

تحديد معنى العبادة والتعريف الكامل لها

إنّ «العبادة» معنـاها ومفهومها واضـح في اللغة العربية، ولـو لم نتمكّن من تعريفهـا تعريفـاً منطقياً بكلمـة واحدة، فهي كـالأرض والسماء اللّتين لهما معنيان واضحان، بـالرغم مـن أنّ الكثير منّا لا يستطيع تحديـدهما بكلمة واحـدة تحديداً كاملاً، ولكـن ذلك لا يمنع من تجسّم معنى الأرض والسماء في أذهاننـا عند سماع لفظيهما.

فـ«العبادة» و«التعظيم» و«الاحترام» و«التكـريم» كالسماء والأرض وغيرهما



مفاهيم واضحة وإن لم نقدر على تحديدهما تحديداً بالجنس والفصل شأن أكثر المفاهيم الدارجة في الألسن.

إنّ الّذي يعشق أحداً ويُغرم بحبّه، تراه يُقبّل جدران بيت معشوقه ويشمّ ملابسه ويلصقها على صدره، وبعد وفاته يُقبّل قبره ويشمّ تربته...ومع ذلك كلّه لا يعتبر أحدٌ عمل هذا العاشق عبادة للمعشوق.

كما أنّ مسارعة الناس إلى مشاهدة الأجساد المحنّطة للزعماء في العالم، أو مشاهدة آثارهم ومنازلهم الّتي كانوا يعيشون فيها، والوقوف دقائق حداداً على أرواحهم، كلّ هذا لا يُعتبر عبادة عند أيّ شعب من شعوب العالَم حتّى لو كان حبّهم وخشوعهم لأُولئك على مستوى خشوع المؤمنين لله سبحانه، فإنّ أهل المعرفة والتحقيق هم الّذين يستطيعون الفصل بين الاحترام وبين العبادة.

أيّها القارئ الكريم: وإذا حاولنا أن نُقدّم تعريفاً منطقياً لـ«العبادة» فإنّ لها ثلاثة تعاريف، وكلّها تهدف إلى معنىً واحد.

وقد اختار الوهّابيّون تعريفين آخرين واعتمدوا عليهما، ولكنّهما ناقصان غير كاملين، ولنقدم الكلام في ذينك التعريفين.

تعريفان ناقصان للعبادة

أ. العبادة خضوع وتذلُّل

لقد ورد في كتب اللّغة تعريف «العبادة» بـ:الخضوع والتذلُّل[1] ولكن هذا التعريف لا يعكس معنى العبادة بصورة دقيقة، وذلك لما يلي:

---

١. وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسرائيلَ﴾ (الشعراء:٢٢).

١. إذا كانت «العبادة» مرادفة ـ في المعنى للخضوع والتذلُّل، فلا يمكن أن نعتبر أيّ إنسان موحِّداً لله، لأنّ البشر ـ بفطرته ـ يخضع لمن يتفوّق عليه، معنوياً أو مادّياً، كالتلميذ يخضع لأُستاذه، والولد يخضع لوالديه، وكلّ محبّ لحبيبه.

٢. إنّ القرآن الكريم يأمر الإنسان بأن يتذلّل لوالديه فيقول:

﴿وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّياني صَغيراً﴾.[١]

فإذا كان الخضوع والتذلُّل معناه عبادة مَن تذلَّلتَ له، فهذا يستلزم الحكم بكفر مَن يبرّ والديه، كما أنّه يستلزم الحكم بتوحيد مَن يعقّ والديه.

ب: العبادة: نهاية الخضوع

ولمّا أدركوا نقصان تعريف اللغويّين للعبادة حاولوا ترميم هذا النقص وإصلاحه، فقالوا في تعريفها:

العبادة: نهاية الخضوع بين يدي مَن تُدرك عظمته وكماله.

وهذا التعريف يشترك مع التعريف الأوّل في النقص والإشكال وذلك:

١. لأنّ الله تعالى يأمر الملائكة بالسجود لآدم فيقول:

﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْليسَ ... ﴾.[٢]

إنّ السجود هو نهاية التذلُّل والخضوع لمن سجدت له، فإذاكان معنى العبادة هو نهاية الخضوع فإنّه يستلزم القول بكفر الملائكة الممتثلين لأمر الله بالسجود، وإيمان الشيطان المخالف لأمر الله بعدم السجود.

٢. إنّ إخوة النبيّ يوسف ووالديه سجدوا جميعاً ليوسف، كما يقول تعالى:

---

١. الإسراء: ٢٤.

٢. البقرة: ٣٤.



﴿... وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هٰذا تَأْويلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبّي حَقّاً...﴾.(١)

والرؤيا الّتي أشار إليها يوسف ـ في الآية ـ هي في قوله تعالى:

﴿إِذْ قالَ يُوسُفُ لأبيهِ يا أَبَتِ إِنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي ساجِدينَ﴾.(٢)

٣. إنّ كلّ المسلمين اقتداءً برسول الله ﷺ يُقبّلون الحجر الأسود المستقرّ في زاوية الكعبة المشرّفة ويتبرّكون به، ونفس هذا العمل يقوم به عُبّاد الأصنام تجاه أصنامهم، مع العلم أنّ عملهم ذلك شرك قطعاً وعمل المسلمين توحيد قطعاً.

إذن ليس معنى «العبادة» نهاية الخضوع والتذلُّل، وإن كانت في الحقيقة من أركان العبادة إلاّ أنّها ليست الركن الوحيد لها، فلابدّ من القول بأنّ «العبادة» معناها الخضوع والتذلُّل المقرون بـ«الاعتقاد الخاص» فالعبادة تتكوّن من عنصرين:

١. الخضوع والتذلُّل.

٢. الاعتقاد الخاص.

وهذا «الاعتقاد الخاص» هو الّذي يحسم الموقف ويفصل القضية... فالخضوع ـ حتّى لو لم يكن كثيراً ـ إذا كان مقروناً «بالاعتقاد الخاص» فهو عبادة.

وفي الحقيقة أنّ «الاعتقاد الخاص» هو الّذي يصبغ العمل بصبغة العبادة، وبدون «الاعتقاد الخاص» لا تتحقّق العبادة حتّى لو كانت بمظهرها.

والآن... وبعد أن أثبتنا بطلان التعريفين اللّذين اعتمد عليهما الوهّابيّون،

---

١. يوسف: ١٠٠.

٢. يوسف: ٤.

وظهر ضعفهما ونقصهما يأتي دور التحدّث عن التعريفات الثلاثة للعبادة.

والسؤال الآن: ما هو «الاعتقاد الخاصّ» الّذي يفرز العبادة عن غيرها؟

الجواب: إنّ هذا ـ بالضبط ـ ما يتناوله البحث والتحقيق الآن، وسوف يظهر من خلال التعاريف الثلاثة الآتية:

التعريف الأوّل:

«العبادة» خضوع عملي أو لفظي ينبع من عقيدة الإنسان بـ «إلوهيّة المخضوع له».

وقبل ايضاح التعريف نلفت نظر القارئ إلى أمرين:

١. انّ المهم في هذا التعريف هو التعرف على معنى الإلوهية المأخوذة من لفظة الإله، فانّ المعروف الدارج على الألسن على انّ الإله بمعنى المعبود، وهذا مالا يدعمه الذكر الحكيم، فانّ الامعان في الآيات الواردة حول لفظ الجلالة ولفظ «الإله» يعرب عن انّ اللفظين بمعنى واحد غير انّ أحدهما علم للذات المستجمعة لجميع صفات الكمال أو لخالق الأشياء أو ما يرادف ذلك والآخر مفهوم كلي لهذا المفهوم الجزئي، فعند ارادة المصداق الجزئي يؤتى بلفظ الجلالة، وعند الإشارة إلى كلّي هذا المصداق يؤتى بلفظ الإله.

والذي يدلّ على وحدة مفهومها انّه ربما يستعمل لفظ الجلالة مكان «الإله» وبالعكس. وذلك واضح من الآيتين التاليتين:

﴿ وَهُوَ اللهُ فِي السَّموات وَفِي الأَرْض يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيعْلَمُ ما تَكْسِبُون﴾.[1]

---

١. الأنعام:٣.

فانّ وزان هذه الآية وزان قوله:

﴿ وَهُوَ الَّذي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الأَرض إِلهٌ وَهُوَ الْحكيمُ الْعَليم ﴾ .[١]

وعلى ضوء ذلك فالمراد من لفظ الإله في التعريف نفس المراد من لفظ الجلالة لكن بصورة كلية حتّى يشمل الآلهة الكاذبة والأصنام المزعومة.[٢]

٢. انّ للإلوهية درجات ومراتب أعلاها كونه خالقاً للكون بعامة أجزائه وهو من شؤون الله سبحانه وأدناها كون الموجود مالكاً مقام الشفاعة والمغفرة فالأصنام عند المشركين آلهة بالمعنى الثاني، لا بالمعنى الأوّل.

فكلّ خضوع نابع عن الاعتقاد بالوهية المخضوع له بمرتبة من مراتبها فهو عبادة سواء كان الاعتقاد بالإلوهية حقّاً أم باطلا.

وبعبارة أُخرى: انّ الإله هو الذي يكون بيده مصير العباد عاجلاً وآجلاً كما هو الحال في الإله الحقيقي المعبر عنه بلفظة الجلالة، فإذا خضع امام موجود بما انّه يملك شيئاً ممّا يرجع إلى الإلوهية من الحياة والموت والرزق والنعمة، وغفران الذنوب والشفاعة فيوصف خضوعه عبادة لانّه خضع امام موجود بما هو إله سواء أكان الهاً واقعياً أو إلهاً باطلاً.

وأمّا إذا خضع مجرداً عن هذا العنوان بل بما انّه عبد من عباد الله سبحانه وله مقام ومنصب في المجتمع أو انّ له حقاً عليه في الحياة فيوصف بالتكريم والتعظيم لا بالعبادة.

وممّا يدلّ على انّ خضوع المشركين امام أصنامهم كان مقروناً باعتقاد انّهم

---

١. الزخرف:٣.

٢. وقد بسطنا الكلام في هذا الموضوع في كتابنا«مفاهيم القرآن»:١/ ٤٩٢ـ٤٩٦.

آلهة يملكون لهم العزّة في الحياة والنصرة في الحرب قوله سبحانه:

﴿واتّخذوا مِنْ دُونِ الله آلِهَةَ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾.(١)

﴿واتّخذوا من دُونِ الله آلهة لعلّهُمْ ينصرون﴾.(٢)

فكان المشركون يرون العزة والنصر بيد الالهة مع انّهما من أفعاله سبحانه، فيخضعون امامها بما انّها آلهة، ولذلك يرد عليهم الذكر الحكيم ويقول:

﴿لا يَسْتَطيعُونَ لهُمْ نَصراً ولا أَنفسهُمْ نصرون﴾.(٣)

إنّ التأمّل في الآيات الّتي تتحدّث عن شرك عبدة الأصنام يكشف لنا عن هذه الحقيقة وهي أنّ شرك هؤلاء إنّما كان بسبب اعتقادهم بإلوهيّة أصنامهم المعبودة، وأنّ تلك الأصنام هي آلهة صغيرة قد خَوَّل الإله الأكبر بعضَ صلاحياته إليهم، وإن كانت مخلوقة ومعبودة في وقت واحد، ولهذا كانوا يرفضون دعوة التوحيد.

يقول القرآن الكريم:

﴿ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إذا دُعيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ للهِ الْعَلِيِّ الْكَبيرِ﴾.(٤)

هذا وللمفسّر القدير المرحوم آية الله الشيخ محمد جواد البلاغي تعريفاً رائعاً للعبادة في تفسيره القيّم «آلاء الرحمن» يقول:

العبادة: ما يرونه مستشعراً بالخضوع لمن يتّخذه الخاضع إلهاً، ليوفّيه بذلك ما يراه له من حقّ الامتياز بالإلهيّة.(٥)

إنّ المرحوم البلاغي قد صبّ نظريته العلميّة ـ بإيحاء من الفطرة ـ لكلمة

١. مريم:٨١.
٢. يس:٧٤.
٣. الأعراف:١٩٢.
٤. المؤمن:١٢.
٥. تفسير آلاء الرحمن:١/ ٥٧.

«العبادة» في قالب اللفظ، فجاء هذا التعريف الرائع الّذي ينسجم ـ بالكامل ـ مع الآيات القرآنية.

التعريف الثاني للعبادة

إنّ العبادة هي الخضوع بين يدي من يعتبره «ربّاً».

ويمكننا أن نعرفها كالتالي: العبادة هي الخضوع العملي أو القولي لمن يُعتقد بربوبيّته، فالعبوديّة تلازم الربوبيّة، فإذا اعتبر إنسان نفسه عبداً، لمن يعتقده ربّاً تكوينياً ـ سواء كان ذلك ربّاً واقعاً أو لا ـ وخضع له مع هذا الاعتقاد فقد عبَده.

وفي القرآن الكريم آيات يستفاد منها أنّ العبادة هي من شؤون الربوبيّة، وإليك بعضها:

﴿... وَقالَ الْمَسيحُ يا بَني إِسْرائيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبّي وَرَبَّكُمْ ...﴾.(١)

﴿إِنَّ اللهَ رَبّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ﴾.(٢)

وغيرها من الآيات.

وهناك آيات تعتبر العبادة من شؤون الخالق، كما في قوله تعالى:

﴿ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ فَاعْبُدُوهُ ...﴾.(٣)

ما معنى كلمة «الربّ»؟

تُطلق كلمة «ربّ» ـ في اللغة العربية ـ على من أُسند إليه تدبير شيء ما، وترك مصير ذلك الشيء بيده، فإذا أُطلقت هذه الكلمة على مالك الدار ومالك الإبل ومرضعة الطفل والفلاّح ـ و غيرهم ـ فإنّما هو بسبب امتلاكهم لإدارة ذلك

١. المائدة:٧٢. ٢. آل عمران:٥١.

٣. الأنعام:١٠٢.

الشيء وتكفّلهم لمسؤوليته.

ونحن إذ نعتبر الله تعالى «ربّاً» فإنّما هو بسبب أنّ شؤوننا وأُمورنا ومصيرنا ـ كالموت والحياة والرزق والصحّة والتقنين والتشريع والمغفرة والعفو وغير ذلك ـ بيد الله تعالى.

والآن... لو اعتقد إنسان أنّ أحد هذه الشؤون ــ أو كلّها ـ قد خوّلها الله تعالى إلى شخص ما، فإنّ هذا الاعتقاد يعني اعتبار ذلك الشخص «ربّاً والإيمان بهذا الربّ والخضوع له عبادة له.

وبعبارة أُخرى: إنّ العبادة تنبع من شعور الإنسان بكونه عبداً، مملوكاً والأعلى منه مالكاً للوجود والموت والحياة والرزق... أو ــ على الأقل ــ مالكاً لصلاحية المغفرة[1] والشفاعة[2] فيكون بذلك قد جعل المالك «ربّاً» له، وكلُّ من يُجسّد هذا الشعور في نفسه ويترجمه إلى قول أو فعل، فلا شكّ أنّه يَعبُد المالك الّذي اعتبره ربّاً.

التعريف الثالث للعبادة

«العبادة: خضوع أمام من نعتبره إله العالمين أو مفوَّضاً إليه أفعاله».

العبادة هي الخضوع أمام من نعتقد انّه إله العالم، أو من فوض إليه أعماله كالخلق والرزق والإحياء والإماتة التي تعد من الأفعال الكونية أو التقنين والتشريع وحقّ الشفاعة والمغفرة التي تعد من الأفعال التشريعية.

إنّ الموحد يعبد الله سبحانه بما انّه قائم بهذه الأفعال، من دون أن يفوِّض شيئاً منها إلىٰ مخلوقاته، ولكنّ المشركين مع اعتقادهم بأنّ آلهتهم وأربابهم مخلوقون

١. يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ الله﴾ (آل عمران: ١٣٥).

٢. يقول تعالى: ﴿قُل للهِ الشَّفاعَةُ جَميعاً﴾ (الزمر: ٤٤).

لله تبارك و تعالى، لكن كانوا على اعتقاد انّه فُوض إلى الآلهة أُمور التكوين والتشريع كلّها أو بعضها، فلذلك كانوا يستمطرون بالأنواء والأصنام ويطلبون الشفاعة منهم بتصور انّهم مالكون لحقّ الشفاعة، ويطلبون منهم النصرة والعزة في الحرب بزعم انّ الأمر بيدهم وانّه فوض إليهم.

وعلى ضوء هذه التعاريف الثلاثة يظهر الفرق الجوهري بين التوحيد في العبادة والشرك فيها، فكلّ خضوع نابع عن اعتقاد خاص بإلهية المخضوع له وربوبيته أو تفويض الأمر إليه فهو عبادة للمخضوع له سواء أكان الاعتقاد بالأُلوهية أو الربوبيّة في حقّ المعبود حقاً ـ كما في الله سبحانه ـ أم باطلاً كما في حقّ الأصنام. وعلى كلّ تقدير فالخضوع الناجم عن هذا النوع من الاعتقاد، عبادة للمخضوع له.

وأمّا لو كان الخضوع مجرداً عن هذه العقيدة فهو تعظيم وتكريم، وليس بعبادة، ولا يكون الخاضع مشركاً، ولا عمله موصوفاً بالشرك، غاية الأمر ربما يكون حلالاً كما في الخضوع أمام الأنبياء والأولياء ومن وجب له حقّ بالتعليم والتربية، وربما يكون حراماً كالسجود أمام النبي ﷺ والولي عليه السلام وغيرهما لا لأنّه عبادة للمسجود له، بل لانّه لا يجوز السجود لغيره سبحانه وانّ السجود خضوع لا يليق بغيره.

إيضاح للقول بالتفويض

لو أنّ إنساناً اعتقد بأنّ الله سبحانه قد فوّض أفعاله ـ من الإرزاق والإحياء وغيرهما ـ إلى بعض مخلوقاته ـ كالملائكة والأولياء ـ و أنّهم هم الذين يُديرون شؤون الكون و يدبّرون أُموره، ولا علاقة لله سبحانه بذلك، ودفعه هذا الاعتقاد إلى الخضوع لهم، فلا شكّ أنّ خضوعه هذا عبادة، وأنّ عمله هذا

شــرك بالله سبحانه.

وأمّا إذا كان خضــوعه عارياً عن هــذا الاعتقاد فلا يوصــف عمله بالشرك لأنّه لم يعتقد في المخضوع له وانّه مصدر لــلأفعال الشرعية أو مفوض إليه أفعاله سبحانه وإن أردت التفصيل فنقول:

لو اعتقد بأنّ الله قد فوَّض صلاحيّة تنفيذ هذه الأفعال إلى الملائكة والأولياء وبقي سبحانــه مجرّداً من كلّ صلاحيــة، والملائكة والأولياء ينفّذون تلــك الأفعال بالاستقلال و من دون إذنه سبحانه، فيكون هذا الإنسان ـ المعتقد هذا الاعتقاد ـ قد جعل لله مِثــلاً ونِدّاً ، ولا شكّ أنّ هذا الاعتقــاد هو الشِّرك بذاته، وأنّ التــوسّل والخضوع ـ النابعين من هذا الاعتقاد ـ هو عبادة، كما جاء في القرآن الكريم:

﴿وَمِــنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِــذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُــبِّ الله ... ﴾ .[1]

إنّ أيّ كائن وموجود لا يستطيع أن يكون مِثلاً لله ونِدّاً، إلاّ إذا صار يتصرّف في الكون بإرادتــه الشخصية ومن دون إرادة الله تعالى، وليس أحدٌ كــذلك، بل إنّ كلّ كــائن خاضــعٌ لإرادة الله سبحانــه ـ شــاء أو أبى ــ و عليه فــلا يكون نــدّاً لله فحسب بل يكون مطيعاً له يتصرّف وفق إرادته سبحانه.

والجدير بالذكــر أنّ المشركين كانوا يعتقدون بأنّ أصنامهــم المعبودة مستقلّة في التصرُّف في هذا الكون والشؤون الإلهية، وقــد كان أضعف درجات الشرك ـ في العهد الجاهلي ـ هو الاعتقاد بتفويــض التقنين والتشريع إلى الأحبار والرهبان، كما قال تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ... ﴾ .[2]

---

١. البقرة:١٦٥.

٢. التوبة:٣١ لاحظ في تفسير الآية مجمع البيان:٥ـ٦/ ٣٧، دار المعرفة، بيروت.

وكذلك كانوا يعتقدون بأنّ صلاحية الشفاعة والمغفرة ـ الّتي هي خاصّة بالله وحده ـ قد فُوِّضتْ إلى أصنامهم المعبودة، فهي تتصرّف بالاستقلال الكامل في تلك الصلاحيّات، ولهذا ترى الآيات القرآنية ـ الّتي تتحدّث عن الشفاعة ـ تؤكّد بأنّ الشفاعة لا تتحقّق إلاّ بإذن الله تعالى، كما في قوله سبحانه:

﴿... مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ ...﴾.[١]

ولو كان المشركون يعتقدون بأنّ أصنامهم المعبودة تملك الشفاعة بإذن الله سبحانه، لما كنت ترى هذا النفي القرآني القاطع للشفاعة بدون إذن الله تعالى.

إنّ بعض حكماء اليونان كانوا قد نحتوا ـ في أفكارهم ـ آلهة متعدّدة لكلّ شأن من شؤون العالَم، فالمطر له إله والزرع له إله والإنسان له إله وهكذا، وكانوا يزعمون أنّ التصرّف في شؤون الكون ـ الّذي هو خاصّ بالله سبحانه ـ قد فُوِّض إلى هذه الآلهة.

وفي العهد الجاهلي كان بعض العرب يعبدون الملائكة والنجوم الثابتة والمتحرّكة، ظنّاً منهم أنّ تدبير شؤون الكون والإنسان قد فُوّض إليها، فهي تتصرّف بالاستقلال والاختيار الكامل، وأنّ الله تعالى يعيش معزولاً مجرّداً عن كلّ هذه الصلاحيّات بصورة كاملة، تعالى الله عن هذا عُلوّاً كَبيراً.[٢]

ولهذا فإنّ كلّ نوع من الخضوع للملائكة والنجوم يُعتبر عبادة، لكونه نابعاً من هذا الاعتقاد الخاطئ.

والبعض الآخر من عرب الجاهلية لم يعتبروا الأصنام الخشبية والمعدنية آلهة وخالقة لهم ولا مدبّرة لشؤون الكون والإنسان، بل كانوا يعتبرونها أو ما يحكي صور هذه الأصنام عنه مالكة للشفاعة، وكانوا يقولون: هؤلاء ـ أي الأصنام ـ

١. البقرة: ٢٥٥.
٢. راجع الملل والنحل للشهرستاني: ٢/ ٢٤٤ ـ ٢٤٧، طبعة مصر.

شفعاؤنا عند الله.[١]

وعلى أساس هذا التصوّر الباطل كانـوا يعبدون هذه الأصنام، تقرّباً إلى الله تعالى وكانوا يقولون:

﴿... ما نَعْبُدُهُمْ إلاّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفىٰ ...﴾.[٢]

وخلاصـة القول: إنّ أيّ عمـل ينبثق من هـذا الاعتقاد ويـدلّ على الانقياد والخشوع، فهو عبادة، وفي المقابـل: إنّ أيّ فعل لا يستند إلى اعتقاد كهذا، لا يُعتبر عبادة ولا شركاً، فلو خضع إنسان أمام مـوجود وكرّمه وعظّمه، دون أن يعتقد بهذا الاعتقاد، فلا يُعتبر عمله شركاً ولا عبادة، حتّى لو فُرض عمله ذلك حراماً.

مثلاً: لا يُعتبر سجـود العاشـق لمعشوقه، والمأمـور لآمره، والمرأة لـزوجها... عبادة، بالرغـم من أنّه حرام شرعاً، لأنّ السجود خـاصّ بالله تعالى، ولا يجوز لأحد أن يأتي به ـ حتّى بصورته الظاهرية المجرّدة عن العقيدة ـ إلاّ بأمره سبحانه.

نتيجة البحث

إلى هنـا استطعنا ــ نوعـاً مّا ــ أن نوضّـح حقيقة «العبـادة» والآن يجب أن نستخلص النتيجـة من هـذا البحث ... فنقـول: لو أنّ إنسـاناً خضـع وتواضَـع لآخريـن، دون أن يعتبر أحدهـم «إلهاً» أو «ربّاً» أو «مصـدراً» مستقلاً لأفعـال الله تعالى، بل يحترمهم لأنّهم:

﴿... عِبادٌ مُكْرَمُونَ* لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.[٣]

---

١. قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤلاءِ شُفعاؤُنا عِنْدَ اللهِ﴾ (يونس:١٨).

٢. الزمر:٣.

٣. الأنبياء:٢٦ـ٢٧.

فإنّ عمله هذا ليس إلاّ تعظيماً وتكريماً لهم، ولا علاقة له بالعبادة أبداً.

إنّ الله تعالى قد ذكر بعض عباده ذكراً حسناً، ووصفهم بشكل يثير رغبة كلّ إنسان في تعظيمهم وتكريمهم... فمن ذلك قوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفىٰ آدَمَ وَنُوحاً وآلَ إِبْراهيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمينَ﴾ .(١)

كما يُصرِّح القرآن الكريم بأنّ الله تعالى قد اصطفى إبراهيم للإمامة فيقول:

﴿... قالَ إِنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِماماً ...﴾ .(٢)

وقد ذكر الله سبحانه في القرآن كلاً من النبيّ نوح وإبراهيم وداود وسليمان وموسى و عيسى ومحمّد ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ ذكرهم أحسن الذِّكر، ووصفهم بأسمى الصفات، بحيث إنّ كلّ صفة ـ بوحدها ـ تكفي لجذب القلوب واكتساب المحبّة في النفوس.

وترى القرآن الكريم يهتف بفضل آل محمّد في آيات عديدة منه فيقول:

﴿... إِنّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.(٣)

ويقول فيهم:

﴿... قُلْ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ ...﴾ .(٤)

ويقول فيهم:

﴿... وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلىٰ حُبِّهِ مِسْكيناً وَيَتيماً وَأَسيراً* إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاٰ نُريدُ مِنكُمْ جَزاءً وَلاٰ شُكُوراً* إِنّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يوماً عَبُوساً قَمْطَريراً* فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً* وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَريراً ...﴾(٥). وغيرها من الآيات.

---

١. آل عمران:٣٣.

٢. البقرة:١٢٤.

٣. الأحزاب:٣٣.

٤. الشورى:٢٣.

٥. سورة الإنسان.

فلـو قـام النـاس ـ تجاه هـؤلاء الأوليـاء المقـرَّبين ــ بما ينبغي مـن التعظيم والتجليل والتكريم والاحترام ـ سواء في حياتهم أو بعد وفاتهم ـ دون أن يعتبروهم آلهة أو أرباباً أو مصدراً مستقلاً لأفعال الله، فليس هناك من يعتبر هـذا العمل عبادة، ولا القـائم به مشركاً، بل بـالعكس يعتبرهم ذوي حضارة تقدميّـة يقدّرون أولياء الله ويخلّدون ذكرياتهم ويتّخذونهم قدوة وأُسوة لهم.

إنّ تعظيم أوليـاء الله تعظيـمٌ لشعائر الله ــ كما سبقـت الإشارة إليـه ــ وإنّ الإسلام يزخر بالشعائر الإلهية.

لقد كان رسول الله ﷺ يقف عند الحجر الأسود ويستلمه ويُقبّله، مع العلم أنّه ليس إلاّ حجراً.

ونحن كذلك نقتدي بهذا النبيّ العظيم فنقبّل الحجر الأسود، ونطوف حول بيت الله ـ الّذي ليس إلاّ مجموعة من الطين والحجر ـ و نسعى بين الصفا والمروة ـ وليسا إلاّ جَبَلين ـ أي أنّنا نفعل نفس ما كان يفعله عَبَدة الأصنام اتجاه أصنامهم ، ولكن لم يخطـر ببـال أحد ــ حتّى الآن ــ بأنّنـا نعبد الطين والأحجـار ... لماذا؟ لأنّ الأحجار لا تضرّ ولا تنفع، أمّـا لو أدّينا هـذه المناسك مع الاعتقـاد بأنّ هذه الأحجار والجبال هـي الإله ومصدر آثاره، لأصبحنـا ـ عند ذلك ـ في عـداد عَبَدة الأصنام.

وعلى هذا الأسـاس : فإنّ تقبيل يد النبـي أو الإمام أو المعلّم أو الوالـدين، وكذلك تقبيل القرآن الكريم والكتب الدينية وتقبيل الضريح وكلّ ما يتعلّق بعباد الله الأزكيـاء ليـس إلاّ تعظيماً وتكـريماً لهم لا غير، وتعظيمهـم ليـس إلاّ تعظيماً لله سبحانه.

لقد ورد في القرآن الكريم سجود الملائكة لآدم عليه السلام و سجود إخوة يوسف

ليوسف عليه السلام ولم يخطر ببـال أحدٍ بـأنّ هذا السجود كـان عبادة لآدم أو ليـوسف، والسبب في ذلك هـو أنّ الذيـن سجدوا لآدم وليـوسف لم يعتقدوا لهما بـالإلوهيّـة والربوبيّـة، ولم يعتبروهما مصدراً لأفعال الله تعالى، بل كان ذلـك من باب التعظيم والتكريم لا العبادة، كما هو واضح.

إنّ الوهّابيّين عندما يواجهون هذه الآيات القرآنية لا يُقرّون ولا يخضعون لها، بل تراهم يبحثون ـ هنا وهناك ـ عن تبرير وذريعة لها، فيقولون: إنّ سجود أُولئك لا يُعتبر عبادة، لأنّه كان بأمر الله تعالى.

والجواب: صحيح أنّ كلّ ذلك ـ حتّى سجود إخوة يوسف ـ كان بأمر الله أو رضاه، ولكن الشيء الّذي يتغافل عنه الوهّابيّون ويتجاهلونه هو أنّ حقيقة العمل أيضاً لم تكن عبادة، ولهذا أمر الله به، ولو كان سجودهم عبادة للمسجود له لما أمر الله بذلـك أبداً، لأنّ الأمر لا يُخرج العبـادة عن حقيقتها ولا يجعل الشرك تـوحيداً. قال تعالى:

﴿... قُلْ إِنَّ اللهَ لاٰ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مٰا لا تَعْلَمُونَ﴾.(١)

والخلاصة: أنّ حقيقة العمل يجب أن تكون غير عباديّة قبل صدور الأمر بها من الله تعالى، حتّى يتعلّق الأمر بها، ولا يُتصوّر ـ بأيّ وجه ـ أن يكون العمل عبادة فيتعلّق الأمر فيخرج عن العباديّة.

إنّ هـذا التبرير الّـذي يلجأ إليـه الـوهّابيّـون ـ والّذي طـالما سمعنـاه من مشـايخهم في مكّة والمدينـة ـ إنّما يدلّ على الجمـود الّذي يعيشـونه تجاه المعـارف القرآنيـة، وعدم معـرفتهم بأنّ العبادة لها حقيقـة مستقلّة، يطـرأ عليها الأمـر تارةً، والنهي تارةً أُخرى، أي أنّ الشيء ـ بذاته ـ عبادة، فيأمر الله تعالى به أو ينهى عنه،

١. الأعراف:٢٨.

كالصلاة والصـوم، حيث أمر الله المكلّفين بأدائهما، ونهى المرأة الحائض عنهما، أو كصوم عيد الفطر والأضحى حيث نهى الله عنه فيهما جميع الناس.

فإذا كان سجود الملائكـة لآدم وسجود إخوة يوسف ووالديـه له عبادة لهما، فإنّ الأمر بـه لا يُخرجه عن حقيقـة العبادة، فلابـدّ من القول بأنّ سجـود هؤلاء لم يكن عبادة قبل أمره سبحـانه، وذلك لأنّ الاعتقاد بالإلوهيّة أو الربـوبيّة هو الّذي يجعل الفعل عبادة، أو الاعتقاد بكون المخضوع له مصدراً لأفعاله سبحانه يصيّـر الخضوع عبادة ولم تكن ببال هؤلاء الساجدين تلك العقيدة.

كيف نَحسم الموقف؟

أيّهاالقـارئ الكـريم: يجب أن تعلم بـأنّ إزالـة الخلافات ــ الموجـودة بين المسلمين والوهّـابيّين في كثير من المسائل ــ تتوقّف على تحليل مفهـوم «العبادة». ومع عـدم الوقـوف على تعـريفٍ منطقي للعبـادة وعدم التفـاهم والإنصـاف بين الطّرفين، لا فائدة في البحث والمناقشة.

من هنـا... فلابـدّ للإنسـان المحقّق أن يقـوم بجولـةٍ تحقيقية في عمق هـذا الموضوع، وأن لا ينخـدع بالتعـريفات اللُّغويّـة المجملة ــ الناقصـة عن التحليل والتوضيح ـ و خيرُ مصدر يُرجع إليه هـي الآيات القرآنية، فهي الدليل المرشد في هذا المجال ـ و كلّ مجال ـ .

ومن المؤسف أنّ كـلّ الكُتّاب والمؤلّفين الوهّـابيّين ـ وكـذلك الذيـن كتبوا الردود على معتقداتهم ـ قد أطالوا البحث والتحقيق في نقاط أُخرى، ولم يُركّزوا على هذه النقطة المهمّة بالشرح والتحقيق.

فالوهّابيّون يقولون: إنّ كثيراً من الأعمال الّتي تقومون بها ـ أيّها المسلمون ـ

تجاه النبيّ ﷺ والأئمّة من أهل بيته عليهم السلام هي عبادة لهم، وذلك يستلزم الشرك في عبادة الله تعالى.

فيجب على المسلمين أن يُقدّموا توضيحاً وشرحاً دقيقاً للعبادة حتّى يُجرّدوا الوهّابيّين من هذا السيف الموهوم.

إنّ الوهّابيّة تعتبر كثيراً ممّا يقوم به المسلمون تجاه الميّت عبادة له، مثلاً:

١. الاستشفاع بالنبيّ والصالحين.

٢. الاستشفاء بأولياء الله.

٣. طلب قضاء الحوائج من قادة الدين.

٤. تكريم صاحب القبر وتعظيمه.

٥. الاستعانة بالنبيّ الأكرم، وغيره.

فهم يقولون: إنّ الشفاعة من أفعال الله، وكذلك الشفاء منه سبحانه، فطلب أحدهما من غيره يؤدّي إلى عبادته.

ما هي «أفعال الله تعالى»؟

نحن ــ في نظرة سريعة ــ نُقدّم بحثاً موجزاً عن أفعال الله ومعناها، كي يتّضح الموضوع ... فنقول: إذا كان الّذي يقوم بالشفاعة والشفاء يقوم بهما بقدرته الشخصيّة وبإرادته المستقلّة، من دون أن يكون قد اكتسب حقّ الشفاعة من أحد، ومن دون اعتماد على قدرةٍ تتفوّق عليه، فهذا من أفعال الله الخاصّة به سبحانه، والاستشفاع بأحد بهذا الاعتقاد معناه الإيمان بربوبيّته وإلوهيّته.

أمّا لو كان الاستشفاع والاستشفاء مجرداً وخالياً من هذا الاعتقاد، بأن يستشفع الإنسان بمن يعتقد بعبوديّته لله، وأنّه يتصرّف بالاستعانة بقدرة الله تعالى

وإذن منه سبحانه، فهذا الاستشفاع والاستشفاء لا يلازم الاعتقاد بالإلوهيّة والربوبيّة، ولا هو طلبُ فعل الله من غير الله.

يقول القرآن الكريم عن لسان النبيّ عيسى عليه السلام:

﴿... وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ وَالأبْرَصَ وَأُحِي الْمَوتىٰ بِإذْنِ الله ...﴾.[١]

ونفس هذا التوضيح يأتي بالنسبة إلى طلب قضاء الحاجة من أحد أولياء الله أو الاستعانة به، فطلب قضاء الحاجة له صورتان:

١. الطلب من العبد ـ مع الاعتقاد بقدرته المستقلّة ـ فهذا عبادة.

٢. الطلب من العبد ـ مع الاعتقاد بعبوديّته لله واستمداده منه سبحانه ـ فهذا لا يرتبط بالعبادة أبداً.

إنّ هذا التوضيح ليس فقط الحدّ الفاصل بين العبادة وغيرها، بالنسبة إلى هذه الأفعال، بل هو قاعدة عامّة تفصل بين التوحيد والشرك في كلّ المؤثّرات والأسباب.

إنّ الاعتقاد بتأثير «الاسپرين» ـ مثلاً ـ في تسكين الآلام، إذا كان نابعاً من قدرته المستقلة في ذلك، وأنّه لا يرتبط بقدرة أعلى ـ و هي الله تعالى ـ فهذا معناه الاعتقاد بإلوهيّته، أمّا الاعتقاد بأنّ الله تعالى هو الّذي جعل هذا الأثر في الاسپرين، وأنّ هذا الدواء ليس إلاّ سبباً لتسكين الآلام، وأنّه لا يُسكّن الألم إلاّ بإذن الله، فإنّ هذا الاعتقاد نابع من التوحيد ذاته، لأنّه «لا مؤثّر في الوجود إلاّ هو».

ولهذا قلنا: إنّ حسم الخلافات يتوقّف على تحديد معنى «العبادة» وفرز التوحيد من الشرك، وأفعال الله من غيرها، والإلوهيّة من العبوديّة.

وقد سبقت الإشارة إلى أنّ عرب الجاهليّة كانوا يعتقدون ذلك الاعتقاد الخاطئ، بأنّ الأصنام هي الّتي تدير بعض شؤون الكون إدارة مستقلّة وتملك

١. آل عمران: ٤٩.

الشفاعة وغيرها، وهذا هو الّذي صيّرهم مشركين.

هذا...ولزيادة في التفصيل راجع الكتب التالية:

١. معالم التوحيد في القرآن الكريم.

٢. التوحيد والشرك في القرآن الكريم.

٣. بحوث قرآنية في التوحيد والشرك.

٤. في ظلّ أُصول الإسلام.

كلامٌ للعلاّمة القضاعيّ المصريّ

ثمّ إنّي لمّا حرّرت ذلك وبيّنت حدود العبادة، وقفت على كلام لأحد المحقّقين من علماء الأزهر الشريف، أعني به: الأُستاذ الشيخ سلامة القضاعيّ العزاميّ الشافعيّ مؤلّف «فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان»[١] قال أنار الله برهانه:

فلننتقل بك إلى معنى العبادة شرعاً، وأرجو أن تعطي هذا المقام فضل تنبّه فإنّ الغلط فيه هو المزلقة الكبرى والمزلّة العظمى، الّتي استحلّت بها دماء لا

١. وهو من أنفس الكتب الكلامية المؤلّفة في العصور الأخيرة، والمؤلّف وزميله الأُستاذ المحدّث المحقّق محمد زاهد الكوثريّ المصري من الذين قاموا في وجه البدع اليهودية من القول بالتشبيه والتجسيم والجهة والمكان في حقّ الله سبحانه. فقد أخذت هذه البدع تنتعش من أوائل القرن الثامن بيد شيخ البدع والضلال: أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة الحرّاني، وبعده بيد تلميذه ابن القيم، وبعدهما بيد: الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب. فقام القضاعيّ بتأليف كتابه «فرقان القرآن» فردّ فيه على هذه البدع وغيرها، من منع التوسّل والاستغاثة وطلب الشفاعة عمّن جعله الله وسيلة ومغيثاً بإذنه وشافعاً بأمره. كما قام الكوثري بنشر كتاب «الأسماء والصفات» للحافظ أبي بكر البيهقي مع تحقيقه والتعليق عليه وتقديم مقدّمة نافعة عليه، وطبع الكتابان في مصر عام ١٣٥٨هـ في مجلّد واحد. شكر الله سعيهما وسعي ناشري كتب الحقّ ورافعي ألوية الهدى ـ آمين ـ.

تحصىٰ، وانتهكت بها أعراض لا تعدّ، وتقاطعت فيها أرحام أمر الله بها أن توصل، عياذاً بالله من المزالق والفتن، ولا سيّما فتن الشبهات.

فاعلم أنهّم فسرّوا العبادة بالإتيان بأقصى غاية الخضوع، وأرادوا بذلك المعنى اللغوي، أمّا معناها الشرعي فهو أخصّ من هذا كما يظهر للمحقّق الصبّار على البحث من استقراء مواردها في الشرع، فإنّه الإتيان بأقصى غاية الخضوع قلباً باعتقاد ربوبية المخضوع له، أو قالباً[1] مع ذلك الاعتقاد ـ و «أو» فيه للتقسيم ـ فإن انتفى ذلك الاعتقاد لم يكن ما أتى به من الخضوع الظاهري من العبادة شرعاً في كثير ولا قليل مهماكان المأتيّ به ولو سجوداً. ومثل اعتقاد الربوبية اعتقاد خصيصة من خصائصها كالاستقلال بالنفع والضرّ، وكنفوذ المشيئة لا محالة ولو بطريق الشفاعة لعابده عند الربّ الّذي هو أكبر من هذا المعبود. وإنّما كفر المشركون بسجودهم لأوثانهم ودعائهم إيّاهم وغيرهما من أنواع الخضوع لتحقّق هذا القيد فيهم، وهو اعتقادهم ربوبية ما خضعوا له، أو خاصّة من خواصّها كما سيأتيك تفصيله. ولا يصحّ أن يكون السجود لغير الله فضلاً عمّا دونه من أنواع الخضوع بدون هذا الاعتقاد عبادة شرعاً، فانّه حينئذٍ يكون كفراً، وما هو كفر فلا يختلف باختلاف الشرائع، ولا يأمر الله عزّ وجلّ به﴿ ... **قُلْ إِنَّ اللهَ لاٰ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ** ... ﴾[2]، ﴿ ... **وَلاٰ يَرْضىٰ لِعِبادِهِ الْكُفْر** ... ﴾[3] وذلك ظاهر إن شاء الله.

وها أنت ذا تسمع الله تعالى قد قال للملائكة: ﴿ ... **اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ أَبىٰ وَاسْتَكْبَرَ** ... ﴾[4] وقال: ﴿ ... **أَنَا خَيرٌ مِنْهُ** ... ﴾[5]. وقال: ﴿ ... **أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طيناً** ... ﴾.[6] والقول بأنّ آدم كان قبلة قول لا يرضاه

١. أي ظاهراً. ٢. الأعراف:٢٨. ٣. الزمر:٧.
٤. البقرة:٣٤. ٥. الأعراف:١٢. ٦. الإسراء:٦١.

التحقيق ويرفضه التدقيق في فهم الآيات كما ينبغي أن تفهم. فإن قصر فهمك عن هذا فهذا نبيّ الله يعقوب وامرأته وأولاده الأحد عشر قال الله فيهم: ﴿... **وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً**...﴾[1] أي ليوسف عليه السلام. قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: «أي سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلاً، وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرّم هذا في هذه الملّة، وجعل السجود مختصّاً بجناب الربّ تعالى. هذا مضمون قول قتادة وغيره. وفي الحديث «أنّ معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلمّا رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا معاذ؟ فقال: إنّي رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحقّ أن يسجد لك، قال: لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقّه عليها».

وفي حديث آخر: «أنّ سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة ـ وكان سلمان حديث عهد بالإسلام ـ فسجد للنبيّ ﷺ فقال: لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحيّ الّذي لا يموت» والغرض أنّ هذا كان جائزاً في شريعتهم» انتهى. وقال الإمام أبو جعفر في تفسيرها نحواً من هذا.

وقد علمت أنّ ما هو كفر لا يختلف باختلاف الشرائع ولا يأمر الله به في حين من الأحيان، فلم يكن سجود الملائكة لآدم ولا السجود ليوسف عليه السلام مع خلوّ الساجدين من اعتقاد خصيصة من خصائص الربوبيّة، بمن سجدوا له، كفراً بل هو من الملائكة عبادة لله الّذي أمرهم سبحانه، وممّن سجد ليوسف تحية جائزة، ونسخ الجواز في شريعتنا، وإنّما حكم العلماء بالكفر على من سجد لشمس أو قمر أو وثن من أجل أنّه أمارة على الكفر الّذي هو إنكار ما علم من الدين

---

١. يوسف: ١٠٠.

بالضرورة، كما حكموا بالإيمان ــ وهو معنى قلبي كما علمت ــ لمن نطق بالشهادتين من أجل أنّه دليل عليه، لا لأنّ الأوّل بمجرده كفر والثاني بمجرده إيمان.

فإن تعسّر عليك فهم هذا وهو ليس بعسير إن شاء الله تعالى، فانظر إلى نفسك فإنّه قد يقضي عليك أدبك مع أبيك واحترامك له أن لا تسمح بالجلوس أو الاضطجاع بين يديه، فتقف أو تقعد ساعة أو فوقها، ولا يكون ذلك منك عبادة له، لماذا؟ لأنّه لم يقارن هذا الفعل منك اعتقاد شيء من خصائص الربوبية فيه. وتقف في الصلاة قدر الفاتحة وتجلس فيها قدر التشهد وهو قدر دقيقة أو دقيقتين فيكون ذلك منك عبادة لمن صلّيت له، وسرّ ذلك هو أنّ هذا الخضوع الممثّل في قيامك وقعودك يقارنه اعتقادك الربوبية لمن خضعت له عزّ وجلّ. وتدعو رئيسك في عمل من الأعمال أو أميرك أن ينصرك على باغ عليك، أو يغيثك من أزمة نزلت بك وأنت معتقد فيه أنّه لا يستقلّ بجلب نفع أو دفع ضرّ، ولكن الله جعله سبباً في مجرى العادة يقضي على يديه من ذلك ما يشاء فضلاً منه سبحانه، فلا يكون ذلك منك عبادة لهذا المدعو وأنت على ما وصفنا.

فإنّ دعوته وأنت تعتقد فيه أنّه مستقلّ بالنفع أو الضرّ أو نافذ المشيئة مع الله، لا محالة كنت له بذلك الدعاء عابداً، وبهذه العبادة أشركته مع الله عزّوجلّ، لأنّك قد اعتقدت فيه خصيصة من خصائص الربوبية، فإنّ الاستقلال بالجلب أو الدفع ونفوذ المشيئة لا محالة هو من خصائص الربوبية، والمشركون إنّما كفروا بسجودهم لأصنامهم ونحوه لاعتقادهم فيها الاستقلال بالنفع أو الضرّ ونفوذ مشيئتهم لا محالة مع الله تعالى، ولو على سبيل الشفاعة عنده، فإنّهم يعتبرونه الربّ الأكبر ولمعبوداتهم ربوبية دون ربوبيّته، وبمقتضى ما لهم من الربوبية وجب

لهم نفوذ المشيئة معه لا محالة.

ويدلّ على ما قلنا آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هٰذَا الَّذي هُوَ جُندٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاّ فِي غُرُورٍ﴾ .(١)

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنّا يُصْحَبُونَ﴾ .(٢)

والاستفهام في الآيتين إنكاري على سبيل التوبيخ لهم على ما اعتقدوه. وحكى الله عن قوم هود قولهم له عليه السلام : ﴿إِنْ نَقُولُ إِلاّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ ...﴾(٣) وقوله لهم: ﴿... فَكِيدُوني جَميعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونَ* إِنّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ...﴾ الآية.(٤)

وكقوله تعالى موبّخاً لهم يوم القيامة ما اعتقدوه لها من الاستقلال بالنفع ووجوب نفوذ مشيئتها: ﴿... أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ* مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾.(٥)

وقولهم: وهم في النار يختصمون يخاطبون من اعتقدوا فيهم الربوبية وخصائصها: ﴿تَاللهِ إِنْ كُنّا لَفي ضَلالٍ مُبينٍ* إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمينَ﴾ .(٦)

فانظر إلى هذه التّسوية الّتي اعترفوا بها حيث يصدق الكذوب، ويندم المجرم حين لا ينفعه ندم.

فإنّ التسوية المذكورة إن كانت في إثبات شيء من صفات الربوبية فهو المطلوب. و من هذه الحيثية شركهم وكفرهم، لأنّ صفاته تعالى تجب لها الوحدانية

١. الملك:٢٠.
٢. الأنبياء:٤٣.
٣. هود:٥٤.
٤. هود:٥٥ـ٥٦.
٥. الشعراء:٩٢ـ٩٣.
٦. الشعراء:٩٧ـ٩٨.

بمعنى عدم وجود نظير لها في سواه عزّ وجلّ، كما مرّ مفصّلاً في المقصد.

وإن كانت التسوية في استحقاقها للعبادة فهو يستلزم اعتقاد الاشتراك فيما به الاستحقاق، وهو صفات الإلوهية أو بعضها، وإن كانت في العبادة نفسها فهي لا تكون من العاقل إلاّ لمن يعتقد استحقاقه لها كربّ العالمين، تعالى الله عمّا يشركون.

وكيف يُنفىٰ عنهم اعتقاد الربوبية بآلهتهم وقد اتّخذوها أنداداً وأحبّوها كحبّ الله كما قال تعالى فيهم: ﴿**وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ...**﴾.[1] والأنداد جمع ندّ وهو على ما قاله أهل التفسير واللغة المثل المناوي، فهذا ينادي عليهم أنّهم اعتقدوا فيها ضرباً من المقاومة للحقّ، تعالى الله عمّا يقولون.

أمّا قوله تعالى فيهم: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ...**﴾[2] ونحوه، فليس معناه أنّهم لا يثبتون لآلهتهم ربوبية ولا خاصّة من خواصّها، بل معناه أنّهم إذا نوقشوا اعترفوا بالحقّ الّذي فطر الله عليه النفوس، ودلّت عليه الكائنات، ثمّ ما أسرع ما يرجعون إلى اعتقاد الربوبية الباطلة في آلهتهم، فينتكسون ويرتكسون كما قال عنهم في آية أُخرى: ﴿**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ**﴾[3] وكقوله تعالى في طائفة منهم: ﴿... **كُلَّ ما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فيها...**﴾[4] وليس ذلك بعجيب ممّن اتّخذ إلهه هواه، وإنّك لتشاهد بين أهل الأهواء من تناقشه في بدعته ويصغي إليك فيقتنع بالحجّة وقت المناقشة ويعترف بمخالفته للحقّ وتظهر فيه مخايل الإنصاف، فإذا انقضى المجلس عاد إلى ما أَلِف من الهوى،

---

١. البقرة:١٦٥.
٢. الزخرف:٨٧.
٣. النحل:٨٣.
٤. النساء:٩١.

وارتكس في بـدعته كأن لم يكـن بينك و بينه نقـاش ـ إلاّ من رحـم الله ـ وقـد رأينا ذلك كثيراً في كثير ممّن لقينا من أهل الأهواء ـ نسأل الله العافية بفضله ـ.

على أنّه لو سلّم أنهّم لم يعتقدوا لآلهتهم خلقاً ولا رزقاً ولا تدبيراً للأمر، فهم يعتقدون فيها غير ذلك من خصائص الإلوهيـة وهو وجوب نفوذ مشيئتها، فإنّهم يـرون أنّ شفاعتهـا مقبـولـة لا تردّ وليسـت متوقّفـة على إذنـه، تعـالى عمّـا يقـول الجاهلـون بـه علوّاً كبيراً. ولـذلـك قال الله تعـالى في القـرآن ردّاً على هـذا الـزعم: ﴿ ... **مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاّ بِإذْنِهِ** ... ﴾.[1]

قال القاضي ناصر الدين البيضاوي في تفسيرها: «بيان لكبرياء شأنه، ولأنّه لا أحد يسـاويه أو يدانيه يستقلّ بـأن يدفع ما يريـده شفاعة واستكانـة فضلاً أن يعارضه عناداً ومناصبة»، فانظر إلى قوله: «يستقلّ بأن يدفع ما يريده شفاعة» تجده صريحاً في اعتقاد وجوب ملاحظة مشيئتها معه عزّ وجلّ، ووجوب نفوذ المشيئة من خصائص الـربوبيـة كما لا يخفى. وهذا النوع مـن الشفاعة هـو الشفاعـة الشركية وهي الّتي أبطلها القرآن، فإنّ اعتقـادها كفر، كما قال تعالى: ﴿**أمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ** ... ﴾[2] الآيتين. فانظر إلى قوله: ﴿**مِنْ دُونِ الله**﴾ وكما قال الله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ ذَا الَّذي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إنْ أرادَ بِكُمْ سُوءاً أوْ أرادَ بِكُمْ رَحْمَةً** ... ﴾.[3]

أمّا الشفاعة الّتي يعتقدها أهل التوحيد وجاء بها الكتاب والسنّة فهي بعيدة من هذا بُعد الإيمان عـن الكفر والنور عن الظلمة، وهي دعـاء الشافع للمشفوع فيه فيستجيب بفضله لمن شاء، وهو معنـى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿**إلاّ بِإذْنِهِ**﴾، والمراد هنـا بـالإذن الـرضا كما قـال في الآيـة الأُخـرى ﴿ ... **وَلا يَشْفَعُـونَ إلاّ لِمَـنِ**

---

١. البقرة:٢٥٥.

٢. الزمر:٤٣.

٣. الأحزاب:١٧.

ارتَضىٰ ... ﴾(١) وكقوله:

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰواتِ لاٰ تُغني شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إلاّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَيَرْضىٰ﴾ .(٢)

وبهذا يتبيّن لك الفرق بين ما أثبته القرآن من الشفاعة وبين ما نفاه منها، وهو ما كان بغير إذنه ورضاه. جلّ أن يكون في ملكه إلاّ ما يشاء أمّا الشفاعة بإذنه ورضاه من عباده المصطفين الأخيار لعصاة الموحّدين فهي جائزة بل واقعة لثبوتها بالتواتر وليس فيها محذور، واعتقادها من الدين، فإنّها من باب الدعاء وهو تعالى يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

وعسى أن يكون قد وضح لك إن شاء الله ما هو معنى العبادة شرعاً، وحينئذٍ تعلم أنّه ليس من عبادة غير الله في شيء أن يبتغي المسلم إلى الله الوسيلة.(٣)

هذا نصّ ما أفاده العلاّمة القضاعي، أتينا به لما فيه من فوائد جمّة، وقد أوضحنا حالها في كلامنا المتقدّم، فلاحظ أيّها القارئ المنصف.

١. الأنبياء:٢٨.

٢. النجم:٢٦.

٣. فرقان القرآن:١١١ـ ١١٥ . ولاحظ بقية كلامه فإنّها نافعة.

الفصل الثاني عشر

الاستعانة بأولياء الله تعالى في حياتهم

إنّ طلب شيء ما ـ من أولياء الله تعالى ـ يقع بأشكال مختلفة، نشير إليها فيما يلي:

١. أن نطلب من الإنسان الحيّ بأن يُعيننا في بناء دار أو سقي ماء.

٢. أن نطلب من الإنسان الحيّ بأن يدعو الله ويستغفره لنا.

هاتان الصورتان تشتركان معاً في كون المطلوب أمراً طبيعياً، والمطلوب منه قادراً على إنجازه، ويفترقان في أنّ الطلب الأوّل يرتبط بالدنيا والثاني بالآخرة.

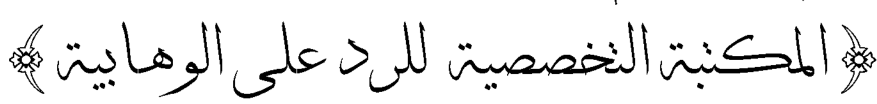
٣. أن نطلب من الإنسان الحيّ في الدنيا إنجاز عمل، بدون الاستعانة بالأسباب المادّية له، بأن نطلب منه ـ مثلاً ـ شفاء المريض بدون دواء، أو استرداد الشيء المفقود بدون البحث عنه، أو أداء الدّين بدون العمل على تحصيل المال.

وبعبارة أُخرى: نطلب منه إنجاز العمل عن طريق المعجزة أو الكرامة[1] من دون أن يستعين بالأسباب المادّية والطبيعية .

---

١. «المعجزة» تُطلق على ما يصدر من المعصوم ـ كالنبيّ والإمام ـ من خوارق العادة، لإثبات نبوّته أو إمامته.

و«الكرامة» تُطلق على ما يصدر من غيرهم من سائر أولياء الله الصالحين مثل ما ورد في حقّ السيّدة مريم عليها السلام في القرآن الكريم.



٤. أن نطلب من الإنسان الميّت أن يدعو الله لنا، ويكون الطلب منه نابعاً من الاعتقاد بأنّه حيٌّ يُرزَق في عالَم البرزخ.

٥. أن نطلب من الإنسان بأن يستعين بقدرة الله ـ الّتي مَنحَها إيّاه ـ على شفاء مريضنا أو إعادة مفقودنا، أو غير ذلك.

وهاتان الصورتان هما كالصورة الثانية والثالثة، لكن الفرق بينهما هو أنّ الطلب هناك كان من الإنسان الحيّ في عالم المادّة والطبيعة، وهنا من الإنسان الميّت في الظاهر، والحيّ في الواقع.

وعلى هذا فلا يمكن أن نطلب من الميّت بأن يُعيننا ـ في الشؤون الماديّة ـ بواسطة الأسباب والعوامل الماديّة، وذلك لأنّ المفروض انقطاع الميّت عن عالم المادة بارتحاله من هذه الدنيا.

أيّها القارئ الكريم: هذه خمسة أقسام من الاستعانة، ثلاثة منها تختصّ بالإنسان الحيّ في عالم المادّة، واثنان تختصّ بالإنسان الحيّ في العالم الآخر.

نحن الآن نتحدّث عن الصور الثلاث الأُولى، ونؤجّل الحديث عن الاستعانة بأولياء الله ـ الأحياء في عالم الآخرة ـ إلى الفصل القادم إن شاء الله.

وإليك البحث عن الأقسام الثلاثة:

الصورة الأُولى

إنّ الاستعانة بالأحياء للشؤون العاديّة ـ الّتي لها أسباب طبيعيّة ـ تُشكّل الحَجَر الأساس للحضارة البشريّة، حيث إنّ حياة البشر ـ في الكرة الأرضية كلّها ـ تقوم على أساس التعاون، وأنّ العقلاء في العالَم يتعاونون لأُمورهم الحيويّة.

إنّ حكم هذه الصورة واضحٌ جداً، لدرجة أنّه لم يستنكره أحد، ولم يعترض

عليه إنسان وبما أنّ بحثنا قائم على ضوء القرآن والأحاديث، فإنّنا ندرس هذه المسألة وإن كانت واضحة الحكم من الزاوية القرآنية أيضاً، ونكتفي بآية واحدة.

عندما أراد «ذو القرنين» أن يبني سدّاً يحول دون هجوم «يأجوج» و«مأجوج» التفت إلى سُكّان المنطقة وقال:

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾.(١)

الصورة الثانية

إنّ الاستعانة بالإنسان الحي ـ في هذا العالم الماديّ ـ للدعاء إلى الله تعالى بالخير والاستغفار منه، هي من الضرورات الواضحة الّتي لا يختلف فيها اثنان، والقرآن الكريم يؤكّد على ذلك في موارد متعدّدة، والقيام بجولةٍ خاطفة في رحاب الآيات الكريمة يُثبت لنا أنّ الأنبياء كانت عادتهم الدعاء لأُممهم بالخير والهداية والرشاد، أوّ أنّ الأُمم نفسها كانت تطلب من أنبيائها الدعاء لها با لمغفرة والخير.

والآيات كثيرة، وهي على أقسام، نذكرها على الأرقام التالية:

١. تارة يأمر الله تعالى نبيّه المصطفى ﷺ أن يستغفر لأُمّته، فيقول:

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِر لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾.(٢)

﴿... فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.(٣)

﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.(٤)

١. الكهف:٩٥.

٢. آل عمران:١٥٩.

٣. الممتحنة:١٢.

٤. التوبة:١٠٣.

وفي هذه الآية الأخيرة يأمر الله تعالى نبيّه محمّداً ﷺ بالدعاء لهم، وأنّ دعاءه يبعث السكينة والطمأنينة في قلوبهم.

٢. وأُخرى كان الأنبياء يعدون المذنبين والعاصين بالاستغفار لهم في الفرصة المناسبة، فمثلاً يقول تعالى:

﴿ ... إلاّ قَوْلَ إبْراهِيمَ لأبيهِ لأسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ... ﴾.[1]

﴿ ... سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبّي إنَّهُ كانَ بي حَفِيّاً ﴾.[2]

﴿وَما كانَ اسْتِغْفارُ إبْراهِيمَ لأبيهِ إلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيّاهُ ... ﴾.[3]

إنّ هذه الآيات الكريمة تدلّ على أنّ الأنبياء كانوا يبشّرون المذنبين بالاستغفار، حتّى أنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام وَعَدَ «آزر» بالاستغفار له، ولكنّه لمّا رأى آزر مُصرّاً على عبادة الأصنام تركه ولم يستغفر له، لأنّ من شروط استجابة الدعاء أن يكون المدعوّ له مؤمناً بالله تعالى.

٣. وثالثة يأمر سبحانه المؤمنين المذنبين بالحضور عند رسول الله ﷺ حتّى يستغفر لهم الرسول، لأنّ الله يغفر لهم ببركة استغفار النبيّ لهم، يقول سبحانه:

﴿ ... وَلَوْ أَنّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ جاءُوكَ فاسْتَغْفروا اللهَ واستَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً ﴾[4] فأيّة آيةٍ أوضح من هذه الآية الّتي يأمر الله المذنبين ـ من هذه الأُمّة ـ بالحضور عند رسول الله ﷺ وطلب الاستغفار منه لهم؟!

إنّ المجيء إلى رسول الله وطلب الاستغفار منه له فائدتان:

الأُولى: إنّه يبعث في الإنسان روح الطاعة والانقياد لرسول الله ﷺ وذلك

١. الممتحنة:٤.
٢. مريم:٤٧.
٣. التوبة:١١٤.
٤. النساء:٦٤.

بالانتباه والتوجّه إلى عظمة النبيّ ووجاهته عند الله، بحيث إنّ استغفاره له يوجب مغفرة الله له.

وبصورة عامّة... الحضور عند النبيّ وطلب الاستغفار منه يوجب الخضوع له، ويُهيّئ الإنسان نفسيّاً لامتثال قوله تعالى:

﴿ ... أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ... ﴾.[1]

الثانية: إنّ هذا يجسّد منزلة النبيّ ﷺ لدى الأُمّة، ويبينّ لهم أنّ الإفاضة المادّية كما أنّها متوقّفة على أسباب وعوامل طبيعية كذلك الإفاضة المعنوية ـ الّتي هي مغفرة الله لعباده ـ تأتي عبر أسباب خاصّة، مثل دعاء النبي وأولياء الله للإنسان.

إذا كانت الشمس منبعاً للإضاءة والطاقة والحرارة، وكانت هذه الخيرات تنزل على عباد الله بسببها، فإنّ الفيوضات الإلهيّة والخيرات الربّانيّة تنزل على عباد الله بسبب شمس النبوّة الساطعة وتشملهم بالخير والرحمة.

إنّ عالَم الوجود هو عالَم الأسباب والمسبّبات، وإنّ الخيرات المادّية والمعنوية تأتي عبر الأسباب المناسبة لها.

٤. ويستفاد من بعض الآيات الكريمة أنّ المسلمين كانوا يحضرون عند رسول الله ﷺ دوماً ويسألونه الدعاء والاستغفار لهم، ولمّا اقترح المسلمون على المنافقين بالحضور عند النبيّ الكريم وطلب الدعاء والاستغفار منه، رفضوا ذلك كما يقول سبحانه:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.[2]

---

١. النساء:٥٩.
٢. المنافقون:٥.

٥. وتشهد بعض الآيات الكريمة أنّ الناس كانوا يدركون ـ بفطرتهم النزيهة ـ بأنّ لدعاء النبي لهم تأثيراً خاصّاً، وأنّ الله تعالى يستجيب دعاءهم بلا تردّد، ولهذا كانوا يسألونه الدعاء والاستغفار لهم من الله سبحانه.

إنّ الناس كانوا يستلهمون من فطرتهم السليمة أنّ الفيض الإلهي والرحمة الربّانيّة تُدَرّ عبر دعاء الأنبياء، كما أنّ هداية الناس وإرشادهم يتمّ عبرهم، ولهذا كانوا يقصدونهم ويسألون منهم الاستغفار، كما جاء في القرآن الكريم ـ في قصّة إخوة يوسف بعد أن وقفوا على خطئهم وسوء تصرّفهم بالنسبة إلى أخيهم يوسف ـ قوله تعالى:

﴿قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِر لَنا ذُنُوبَنا إِنّا كُنّا خاطِئِينَ* قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.[1]

٦. هناك آيات كريمة يُحذّر فيها الله تعالى نبيّه ﷺ من الدعاء والاستغفار للمنافقين الذين لا زالوا على عبادة الأصنام، وذلك لأنّ عبادتهم لغير الله تمنع من مغفرة الله لهم، حتّى لو استغفر لهم النبيّ ﷺ ممّا يدلّ على أنّ استغفار النبيّ نافذ ومؤثّر إلاّ لمن يعكف على عبادة الأصنام، لأنّ عبادة الأصنام مانعة من الاستجابة، فمثل استغفار النبيّ لهم كمَثَل الماء الزلال الّذي يهطل على الأرض الصلبة المانعة من نفوذ الماء فيها، يقول تعالى:

﴿... إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾.[2]

﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ...﴾.[3]

﴿وَلَمّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ

١. يوسف: ٩٧ـ٩٨. ٢. التوبة: ٨٠.
٣. المنافقون: ٦.

كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾.(١)

إنّ المذنبين سألوا النبيّ موسى عليه السلام الدعاء لهم، وتدلُّ جملة: ﴿بِما عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ على أنّهم كانوا يعلمون بأنّ لله تعالى عهداً مع موسى.

أمّا قوله تعالى: ﴿ادعُ لَنا رَبَّك﴾ ففيه احتمالان:

الأوّل: أن يكون الدعاء لكشف العذاب عنهم عن طريق المعجزة، وذلك بإيمانهم بقدرة النبيّ موسى على ذلك ـ بالاستعانة بقدرة الله سبحانه ـ.

فلو صحّ هذا الاحتمال فالآية تدخل في البحث عن الصورة الثالثة ـ و هي الاستعانة بالإنسان الحيّ للقيام بعمل إعجازيّ خارق للأسباب المادّية ـ و سوف يأتي البحث عنها إن شاء الله تعالى.

الاحتمال الثاني: أن يكون طلب مجرّد الدعاء لكشف العذاب، لا المعجزة وخرق العادة.

والظاهر هو الاحتمال الثاني: لأنّ المفهوم من جملة ﴿ادعُ لَنا ربَّك﴾ هو مجرّد الدعاء لكشف العذاب.

نعم... ليس في الآية إشارة إلى أنّ الله تعالى لا يستجيب دعاء موسى في حقّ المشركين وعبدة العجل، وإنّما الإشارة سبقت في آيات أُخرى.

٧. يُستفاد من بعض الآيات القرآنية بأنّ بعض المؤمنين كان يستغفر للبعض الآخر، كما في قوله تعالى:

﴿وَالّذينَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلإخوانِنا الَّذينَ سَبَقُونا بِالإيمانِ ...﴾.(٢)

---

١. الأعراف: ١٣٤.

٢. الحشر: ١٠.

٨. وبالإضافة إلى أُولئك المؤمنين المستغفرين فإنّ حَمَلة العرش يستغفرون للمؤمنين أيضاً، كما في قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا واتَّبَعُوا سَبيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحيمِ﴾.[1]

بناءً على هذا فما أحسن أن نتّبع هؤلاء في هذه السيرة المرضية لله تعالى، ونستغفر الله للمذنبين.

إلى هنا تمّ البحث عن الصورة الأُولى والثانية ... وإليك البحث عن الصورة الثالثة:

الصورة الثالثة

وهي الاستعانة بالإنسان الحيّ ـ القادر على المعجزة وخرق العادة ـ من أجل تنفيذ عملٍ ما، عن طريق الإعجاز، ودون اللجوء إلى الأسباب المادّية، كشفاء المريض وتفجير الماء من عين يابسة، وما شابه ذلك.

إنّ بعض السادة الأعاظم يعتبرون هذه الصورة ـ من الاستعانة ـ داخلة في الصورة الثانية ويقولون: إنّ المقصود من المعجزة هو أن يسأل الإنسان ربّه بأن يشفي مريضه أو يُسدِّد دُيونه وغير ذلك، لأنّ هذه الأفعال خاصّة بالله تعالى، وما دعاء النبيّ والإمام إلاّ وسيلة إلى الله تعالى، ولهذا فإنّ نسبة هذه الأفعال إلى النبيّ والإمام هي من باب المجاز لا الحقيقة.[2]

---

١. المؤمن: ٧.

٢. كشف الارتياب: ٢٧٤.

إلاّ أنّ في القرآن آيات تدلّ ـ بوضوح ـ على أنّ طلب هذه الحوائج من الأنبياء والأولياء أمرٌ حقيقي وليس مجازاً، فإنّنا إذ نطلب من المعصوم نفسه ـ القادر على المعجزة ـ بأن يشفي المريض ـ الّذي صعب علاجه ـ فإنّ ذلك يتحقّق بحول الله وقوّته.

صحيح أنّ القرآن الكريم يعتبر الشفاء من اختصاص الله تعالى فيقول:

﴿وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.[1]

إلاّ أنّه في الوقت نفسه ينسب الشفاء إلى القرآن والعسل أيضاً فيقول:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ ...﴾.[2]

﴿... يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فيهِ شِفاءٌ لِلنّاسِ ...﴾.[3]

﴿... قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ ...﴾.[4]

والسؤال الآن: ما هو وجه الجمع والتوافق بين هذه الآيات؟

الجواب ـ إنّ النظر الصائب في الجمع بين هاتين المجموعتين من الآيات الّتي تجعل الشفاء من اختصاص الله تعالى، وتثبته للعسل والقرآن والمواعظ الإلهية ـ : هو أنّ الله سبحانه مؤثّرٌ في الأشياء بالاستقلال، ومعتمدٌ على ذاته المقدّسة في الأُمور كلّها، بينما العسل والقرآن والمواعظ الإلهية تترك تأثيرها في الأشياء بإذن الله وإرادته سبحانه.

إنّ النظرة الإسلامية ـ إلى الكون والحياة ـ تعتبر جميع العوامل والمؤثّرات تابعة لإرادة الله وقادرة على التأثير بإذنه سبحانه، وأنّ العلل والأسباب لا تملك أدنى استقلال لها أبداً من دون فرق بين الأسباب الطبيعية والروحية.

---

١. الشعراء: ٨٠.
٢. الإسراء: ٨٢.
٣. النحل: ٦٩.
٤. يونس: ٥٧.

وعلى هذا الأساس فلا مانع ـ على ضوء القرآن والعقل ـ أن يمنح الله ـ الّذي جعل الشفاء في العسل والأدوية النباتية والكيمياوية ـ أن يمنح نفس تلك القدرة للأنبياء والأئمّة عليهم السلام.

انظر إلى المرتاضين [١] كيف يتمكّنون من بعض التصرّفات الغريبة، فما المانع من أن يتفضّل الله على الأنبياء و الأئمّة عليهم السلام بقدرة الإشفاء، و يجعلهم قادرين على القيام بأعمال محيّرة للعقول وخارقة للأسباب المادّية والطبيعية؟!

إنّ قدرة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام على شفاء المريض والقيام بأعمال استثنائية لا تُنافي أن يكون الله هو السبب الحقيقي والعلّة الأساسية لها، وذلك بأن مَنَحهم القدرة على التصرُّف في الكون ـ بإذنه تعالى ـ عند الحاجة والمصلحة.

والجدير بالذكر أنّ في القرآن الحكيم آيات تصرّح بأنّ الناس كانوا يراجعون الأنبياء ـ وغير الأنبياء أيضاً ـ كي يقوموا بأعمال استثنائية خارقة للعادة الطبيعيّة.

وإليك بعض تلك الآيات:

﴿... وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ... ﴾.[٢]

يدلّ ظاهر هذه الآية على أنّ بني إسرائيل طلبوا من النبيّ موسى عليه السلام في وقت الجفاف وعدم توفّر الماء أن يهيّئ لهم الماء بالطُّرق الغيبية والمعجزة، لا بالأسباب المادّية الطبيعية.

وترى واضحاً ـ في الآية ـ أنّ بني إسرائيل لم يطلبوا من النبيّ موسى أن

---

١. المرتاض: هو الّذي يقوم بالرياضة الروحيّة والتمارين الشاقّة، ليمنح روحه شفّافيّة خارقة، تمكّنه من بعض التصرّفات الغريبة، طبعاً تلك الشفّافيّة شيطانيّة وليست رحمانيّة، ولهذا فهي تزول مع ترك تلك التمارين.

٢. الأعراف: ١٦٠.

يدعو الله ويسأله توفير الماء بل طلبوا منه أن يوفّر لهم الماء فجأة ومن دون سبب مادّي، ولهذا أمره الله بأن يضرب بعصاه الحجر كي ينفجر منه الماء ، بطريقة إعجازيّة، قال سبحانه:

﴿ ... فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً ... ﴾.[1]

وأوضح من هذه الآية هي الآية الّتي تحكي قصّة النبيّ سليمان عليه السلام عندما طلب من الحاضرين عنده بإحضار عرش بلقيس، على الرغم من الحواجز والموانع الّتي كانت في طريقه[2] يقول تعالى ـ حاكياً قول سليمان لمن حولَه ـ:

﴿ ... أَيُّكُمْ يَأْتيني بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُوني مُسْلِمينَ﴾.[3]

لقد كان هدف سليمان عليه السلام إحضار عرش بلقيس بطريقة غير عادية، ولقد تحقّق ذلك فعلاً بطريق خرق الطبيعة، كما قال سبحانه:

﴿قالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ ... ﴾.[4]

إنّ روح الموضوع وبيت القصيد هو تصوّر البعض بأنّ الأعمال العادية هي من صلاحيات الإنسان، وأنّ الأعمال الاستثنائية ــ الّتي يعجز الناس عنها عادة ـ خاصّة بالله سبحانه، وهذا هو الخطأ، لأنّ المقياس في تمييز أفعال الله عن غيره هو الاستقلال وعدم الاستقلال فيها.

إنّ الأعمال الإلهية هي الّتي ينفّذها الفاعل ـ وهو الله ـ دون تدخّل الغير فيها ودون الاستعانة بقدرة الآخرين.

---

١. البقرة:٦٠.

٢. كان النبيّ سليمان في الأُردن وكان عرش بلقيس في اليمن، وبينهما مئات الفراسخ والكيلومترات.

٣. النمل:٣٨.

٤. النمل:٤٠.

وبعبارة أُخرى: إنّ الأعمال الإلهيــة هي الّتي يكون الفاعــل مستقلاً تماماً في تنفيذها، ولا يحتاج إلى الغير في إنجازها أبداً.

أمّا الأعمال غير الإلهية ـ سواء كانت بسيطة وعادية أو صعبة وغير عادية ـ فهي الّتي لا يكـون الفاعـل مستقلاً في تنفيـذها، بل يتـمّ التنفيذ تحت ظلّ قـدرة مستقلّة وبالاستمداد منها، وهي قدرة الله تعالى.

بناءً على هذا فليـس هناك أيُّ مانع من أن يتفضّل الله على أوليـائه بالقدرة على إنجاز الأعمال الخارقة للعـادة والطبيعة، والّتي يعجز البشر عـادة عن القيام بها.

يقول الله تعالى للنبيّ عيسى عليه السلام:

﴿ ... تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتىٰ بِإِذْنِي ... ﴾.[1]

فما أصرح من هذه الآية في الدلالة على الموضوع؟!

إنّ هذه المجمـوعة من الآيـات تدلّ على أنّ أولياء الله كـانوا يملكـون هذه القدرة، وأنّ طلب النـاس منهم القيام بالأعمال الاستثنـائية والإعجازية كـان أمراً مُتداولاً معروفاً.

أيُّها القارئ الكريم: لقد تحدّثنا ـ حتّى الآن ـ عن الصور الثلاث للاستعانة بأوليـاء الله في حياتهم، على ضـوء القرآن الكـريم، وقد عـرفتَ بأنّ القـرآن يُصرّح بصحّة تلك الصور ويؤكّد عليها في آيات متعدّدة.

أمّا التحدّث عـن الصورتين الأخيرتين اللّتين تتعلّقان بالاستعـانة بالأرواح المقدّسة فسيأتيك في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

---

١. المائدة: ١١٠.

الفصل الثالث عشر

الاستعانة بأولياء الله بعد رحيلهم

إنّ مسألة الاستعانة بأولياء الله ـ بعد وفاتهم وغيابهم عن هذه الحياة المادّية ـ هي أهمّ مسألـة في بحث الاستعانة بـأولياء الله، ولا فرق بين أن تكون الاستعـانة بصورة الدعاء أو طلب المعجزة.

أمّا السبب في أهميّة هذه المسـألة ـ عـن الّتي سبقَتها ـ فهو لأنّ المسلمين اليـوم ليسوا في محضر نبـيّ أو إمام كي يستعينـوا بـه بصورة مبـاشرة[1] ولهذا فهم يستعينون بأرواحهم المقدّسة.

من هنا كان هذا البحث أكثر أهميّة من الّذي سبقه.

أيّها القارئ الكريم: إنّ البحث في هذا الموضـوع يتوقّف على التحدّث عن أربعـة أُمـور، ومن خـلال التحدّث عنهـا والاطّـلاع عليهـا تعرف جيّـداً صحّـة الاستعانة والاستغاثة بالأرواح المقدّسة، والأُمور الأربعة هي:

١. بقاء الروح بعد الموت.

٢. حقيقة الإنسان هي روحه.

---

١. إنّما عبرنا بـ«مَحضر» ولم نعبّر بـ«عصر» نظراً لأنّ الزمـان لا يخلو من حجّـة لله تعالى، ونحن الآن في عصر الإمام الثاني عشر المهـدي المنتظر عليه السلام ولكنّه غـائب عن الأبصـار، ولهذا فلسنا في محضره الشريف، نسأل الله تعالى أن يعجّل في ظهوره ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً.



٣. الاتّصال بعالَم الأرواح ممكن.

٤. الأحاديث الصحيحة الّتي رواها المحدّثون، وهي تنادي بصحّة الاستعانة بأولياء الله، بعد رحيلهم وأنّ سيرة المسلمين كانت جارية على ذلك.

وإليك الآن تفصيل هذه الأُمور الأربعة:

١. موت الإنسان لا يعني فناءه

إنّ الآيات القرآنية تدلّ ـ بوضوح ـ على أنّ الموت ليس هو النهاية للحياة، بل هو محطّة انتقال إلى حياة جديدة، وبالموت يدخل الإنسان في عالَم جديد أسمى من عالم المادّة والطبيعة.

إنّ كلّ من يعتقد بأنّ الموت فناءٌ وعدم، وأنّ الإنسان يفقد كلّ شيء بالموت ولا يبقى منه أثر، سوى جسد لا روح فيه، ثمّ يتحوّل ذلك الجسد ـ بعد فترة من الزمن ـ إلى التراب والعناصر الأُخرى: إنّ كلّ من يعتقد هذا الاعتقاد فهو ـ في الحقيقة ـ يُقلّد الفلسفة المادّية ـ القائمة على إنكار ما وراء المادّة ـ تقليداً لا شعوريّاً.

إنّ أصحاب هذه النظرية لا يعتبرون الحياة إلّا نتيجة مادّية لسلسلة تفاعلات كيميائية وعمليات فيزيائية تحصل في المخّ والأعصاب، وعندما يفقد الجسم حرارته وتتوقّف الخلايا عن الحركة والإنتاج، تتوقّف حياة الإنسان أيضاً ويتحوّل إلى جسد جامد هامد.

وتذهب هذه النظرية إلى أنّ الروح ليس إلّا انعكاساً للمادّة وآثارها وخواصّها، ومع فقدان هذه الآثار والخواص تبطل الروح وتفنى تبعاً للمادّة.

ولهذا فهؤلاء لا يعتقدون بوجود عالم آخر باسم عالم الأرواح.

إنّ نظرية كهذه تستلهم أفكارهـا من «الفلسفة الماديّة» الّتي تعتبر الإنسان كماكنة مركّبة من قِطَع وأجزاء مختلفة، وأنّ تأثير هذه الأجزاء على بعضها يولّد قدرة التفكير والإدراك في المخ، فإذا تعطلت هـذه الأجـزاء عن الحركـة انعـدمت آثـار التفكير وتفنى الحياة فناءً كاملاً.

إنّ كبـار الفلاسفـة والعلماء الإلهيّين يُفنّدون تمامـاً نظـريات المادّيين حـول الروح ويقـولون بـأنّ للإنسـان ـ بـالإضافـة إلى النظام المادّي الحاكم في جسمـه، والتفاعـلات المتبادلة وسلسلـة الأعصاب ـ جوهـراً أصيلاً اسمه «الـروح»، وهذا الجوهـر يُلازم البَـدن فترة من الـزمان ثـمّ ينفصل عنـه ويُحلّق في عـالم آخر اسمـه «البرزخ» ليلتحق بجسم لطيف هناك.

إنّ التحدّث عن بقـاء الروح بعد الموت يستدعـي كتاباً مستقلاً حـوله، ولا يمكن البحـث عنـه ـ بـالتفصيل ـ في هـذه الصفحـات المحـدودة، وذلك لأنّ الآيات القرآنية والأدلّة الفلسفية وتجارب الروحيّين الثابتة قد برهنت اليوم على بقاء الروح الإنسانية بعد الموت.

وهنا نكتفي فقط بذكر بعض الآيات الّتي تثبت بقاء الروح بعد الموت.

القرآن وبقاء الأرواح

إنّ الآيات القـرآنية تدلّ ـ بوضـوح كامـل ـ على بقـاء الروح بعـد الجسد، ولمراعاة الاختصار نذكرها ذكراً عابراً، على أمل أن نُقدّم تحليلاً لها في فرصة أُخرى:

أ: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾.[1]

---

١. البقرة: ١٥٤.



ب: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فِي سَبيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ ... * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ ... ﴾.(١)

ودلالة الآيتين على المقصود واضحة.

ج:﴿إِنّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ* قيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمُونَ* بِما غَفَرَ لي رَبّي وَجَعَلَني مِنَ الْمُكْرَمينَ﴾.(٢)

إنّ المقصود من الجنّة الّتي أُمر أن يدخل فيها هي الجنة البرزخية لا الجنة الأُخروية بدليل قوله تعالى: ﴿يا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمُونَ* بِما غَفَرَ لي رَبّي وَجَعَلَني مِنَ الْمُكْرَمينَ﴾. إنّ تمنّي معرفة قومه على مكانه لا يتّفق مع عالَم الآخرة الّتي «تُبلى السرائر» فيها وتُرفع فيها الأستار أمام الأنظار، ولا تخفى ـ يومئذٍ ـ أحوال بعض الناس عن بعضهم، بل إنّه ينسجم مع الحياة الدنيا الّتي يعيش الناس فيها منقطعين عن البرزخ وقضاياها وما يجري على الناس فيها، وهذا ما يشهد به القرآن الكريم.

بالإضافة إلى ذلك... إنّ الآية الأُخرى التالية ـ بعد الآية المذكورة ـ تدلّ بأنّ قوم ذلك الرجل فارقوا الحياة ـ بعد ذلك ـ إثر صيحة سماوية عنيفة، يقول تعالى:

د: ﴿وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنّا مُنْزِلينَ* إِنْ كانَتْ إِلاّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ﴾.(٣)

يُستفاد من هاتين الآيتين بأنّ قوم الرجل ـ الذي دخل الجنّة ـ كانوا يعيشون في هذه الحياة، ثمّ فاجأهم الموت بغتة، فهذه الجنّة ليست إلاّ جنّة البرزخ.

١. آل عمران:١٦٩ـ ١٧١.
٢. يس:٢٥ـ ٢٧.
٣. يس:٢٨ـ ٢٩.

هـ: ﴿النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ العَذابِ﴾.(١)

إنّ هذه الآية تظهر لنا حياة آل فرعون في عالَم البرزخ، حيث إنّهم يُعرضون على النار غدوّاً وعشيّاً، إلى قيام الساعة، فإذا قامت القيامة أدخلوهم في أشدّ العذاب الذي هو عذاب جهنم.

ولولا قوله تعالى: ﴿وَيَومَ تَقُومُ السّاعَةُ﴾ لما ظهر المقصود من الآية، وهو دليل على أنّ ما قبلها يعود إلى عالَم البرزخ.

أضف إلى ذلك: أنّ موضوع الصباح والمساء يدلّ على أنّ المقصود ليس يوم القيامة، وذلك لأنّه لا صباح ولا مساء في ذلك اليوم.

أيّها القارئ الكريم: كان هذا بحثاً موجزاً عن حياة الإنسان بعد الموت، والآن جاء دور التحدُّث عن الأمر الثاني وهو:

٢. حقيقة الإنسان هي روحه

يبدو للإنسان ـ في الوهلة الأُولى ـ أنّه مركّب من الروح والجسد معاً، ولكن حقيقة الإنسان هي روحه الّتي تلازم جسده.

نحن الآن لسنا في مقام التحدُّث عن هذا الموضوع من الوجهة الفلسفية، بل إنّ هدفنا هو دراسة الموضوع على ضوء كتاب الله الّذي لا ريب فيه.

إنّ التأمّل في الآيات الّتي تتحدّث عن الإنسان، يكشف لنا ـ بكلّ وضوح ـ أنّ حقيقة الإنسان هي روحه، اقرأ هذه الآية:

﴿قُلْ يَتَوفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الّذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبّكُم تُرْجَعُونَ﴾.(٢)

---

١. المؤمن:٤٦. ٢. السجدة:١١.

إنّ كلمة«توفّىٰ» لا تعني الإماتة ـ كما هو معروف ـ بل تعني الأخذ والقبض، ولهذا فإنّ قوله تعالى: ﴿يَتَوفّاكم﴾ معناه: يأخذكم ويقبضكم، وإنّما يكون هذا التعبير صحيحاً إذا كانت الروح هي الوجود الحقيقي للإنسان، فهي الّتي «تُقْبَض» و «تؤخَذ».(١)

أمّا لو كانت الروح تُشكّل جزءاً من شخصية الإنسان والجزء الثاني هو جسمه، فإنّ هذه العبارة تكون مَجازاً، لأنّ المفروض أنّ مَلَك الموت يقبض أحد الجزءين ـ وهو الروح ـ وأمّا الجزء الثاني ـ وهو الجسد المادّي ـ فهو يتركه باقياً في الدنيا، ثمّ يودَع في القبر ولا علاقة لَمَلَك الموت به.

إنّ هذه الآية التي تدلّ على أنّ ملك الموت يأخذ الإنسان كلّه وهو محفوظ عند الله إلى يوم القيامة تكشف عن أنّ الروح هي واقع الإنسان ومصدر تكامله النفسي والمعنوي، كما أنّ الجسد بمثابة الرداء الّذي يغطّي الروح ويكسوها.

والقرآن الكريم لا يعتبر الموت فناءً للإنسان وخاتمةً لحياته، بل إنّه يؤكّد ـ وخاصّة للشهداء والصالحين، والمجرمين أيضاً ـ أنّ لهم حياة أُخرى تسبق يوم القيامة، وأنّ تلك الحياة مصحوبة بالفرح والبشرىٰ أو بالعذاب الأليم.

فإذا كانت حقيقة الإنسان كامنة في جسده، فلا شكّ أنّ جسده سوف يتلاشىٰ بعد أيّام من موته ودفنه، ويتحوّل إلى عناصر أُخرى، فأين الإنسان الباقي بعد موته وتلاشي جسده الذي أخبر عنه الذكر الحكيم في الآيات السابقة؟

٣. الاتصال بعالَم الأرواح

هل يمكن الاتصال بعالَم الأرواح؟

١. لقد أجرى المرحوم العلاّمة البلاغي بحثاً قيّماً حول كلمة «توفّىٰ» في مقدّمة تفسير آلاء الرحمن: ٣٤.

إنّ إثبات بقاء الروح مجرّداً عن المادّة، لا يكون كافياً في صحّة الاستعانة والاستغاثة بها إلاّ إذا ثبت إمكان الاتصال بذلك الروح من عالَم الدنيا.

إنّ في القرآن الكريم آيات متعدّدة تُثبت أنّ اتصال الإنسان بعالم الأرواح أمرٌ ممكن، بل تحقّق ذلك فعلاً، فمثلاً:

أ: النبيّ صالح عليه السلام تحدّث إلى أرواح قومه

يقول تعالى:

﴿فَعَقَرُوا النّاقَةَ وَعَتَوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ* فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ* فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النّاصِحِينَ﴾.[1]

تأمّل هذه الآيات:

الآية الأُولى: تشير إلى أنّهم ـ يوم كانوا على قيد الحياة ـ طلبوا منه العذاب الإلهي الموعود.

الآية الثانية: تشير إلى نزول العذاب عليهم وموتهم جميعاً.

الآية الثالثة: تُشير إلى مقالة النبيّ صالح عليه السلام بعد موتهم وفنائهم، حيث تأسّف على المصير الأسود الذي اختاروه لأنفسهم وقال ـ مخاطباً لهم ـ : ﴿يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النّاصِحِينَ﴾. والدليل

---

١. الأعراف:٧٧ـ٧٩. لقد ذُكر في بعض الآيات أنّ العذاب الّذي نزل عليهم كان صيحة سماوية ـ كما في سورة هود: آية ٦، وفي بعضها أنّ العذاب كان صاعقة ناريّة ـ كما في سورة فُصّلت: آية١٧ ـ و في بعضها أنّه كان زلزلة ورجفة، ووجه الجمع بين هذه الآيات هو أنّ الصيحة السماوية والصاعقة كانت مصحوبة بالزلزلة.

على أنّ هذا الخطاب من النبيّ صالح كان بعد موتهم هو كالتالي:

١. تنظيم وتنسيق الآيات بالشكل الّذي سبقت الإشارة إليه.

٢. حرف «الفاء» في كلمة «فتَوَلّىٰ» الّذي يدلّ على الترتيب، وقد جاءت بعد قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا في دارِهِمْ جاثِمين﴾ ممّا يدلّ على أنّ خطاب النبيّ صالح لقومه كان بعد نزول العذاب عليهم.

ويُفهم من قوله: ﴿وَلٰكِنْ لا تُحِبُّونَ النّاصِحينَ﴾ أنّ أُولئك كانوا على حدٍّ من العناد والشقاء بحيث إنّ أرواحهم ـ حتّى بعد مماتهم ـ كانت رافضة للموعظة والنصيحة.

ب: النبيّ شعيب عليه السلام تحدَّث إلى أرواح قومه أيضاً

اقرأ هذه الآيات:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دارِهِمْ جاثمينَ* الّذينَ كَذَّبُوا شُعَيباً كَأنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها الّذينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانوا هُمُ الْخاسِرينَ* فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسىٰ عَلىٰ قَومٍ كافِرينَ﴾.[1]

إنّ الاستدلال بهذه الآيات هو كالاستدلال السابق بالآيات المرتبطة بالنبيّ صالح وقومه.

ج: النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم يتّصل بالأنبياء

يقول تعالى:

﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.[2]

---

١. الأعراف: ٩١ـ ٩٣.

٢. الزخرف: ٤٥.

إنّ ظاهر هذه الآية يدلّ على أنّ بإمكان النبيّ ﷺ الّذي يعيش في هذه النشأة الطبيعية أن يتّصل بالأنبياء الذين يعيشون في النشأة الأُخرى، كي يثبت للمشركين أنّ جميع الأنبياء ــ و في كلّ العصور ـ كانوا يدعون إلى توحيد الله وعبادته.

د: سلام القرآن على الأنبياء

إنّ القرآن الكريم يُسلّم على الأنبياء، في مواضع متعدّدة، ولا شكّ أنّ هذا السلام ليس سلاماً سطحياً أجوف، بل هو سلام حقيقيّ وتحية جدّية يوجّهها القرآن إلى أنبياء الله ورسله.

ومن غير الإنصاف أن يحاول أحدٌ تفسير آيات القرآن الكريم تفسيراً سطحياً سَخيفاً، يتحوّل إلى مجموعة ألفاظ فارغة جوفاء.

نعم إنّ المادّيين ـ الذين لا يعتقدون بالروح والمعنويّات ـ يبعثون السلام والتحية إلى قادتهم وشخصيّاتهم، في عبارات جوفاء.

لكن لا يصحّ لنا أن نفسِّر المفاهيم القرآنية ـ النابعة من الحقيقة والواقع ـ تفسيراً مادّياً، بأن نقول: إنّ كافّة التحيّات في القرآن ـ والتي نتلوها في آناء الليل وأطراف النهار ـ ليست إلاّ مُجاملات جوفاء و في مستوى تحيّات المادّيين.

انظر إلى القرآن كيف يُسلّم على الأنبياء:

١. ﴿سَلامٌ عَلىٰ نُوحٍ فِي العالَمينَ﴾ .

٢. ﴿سَلامٌ عَلىٰ إبراهيمَ﴾ .

٣. ﴿سَلامٌ عَلىٰ مُوسىٰ وَهارُونَ﴾ .

٤. ﴿سَلامٌ عَلىٰ آلِ ياسينَ﴾ .

٥. ﴿سَلامٌ عَلى الْمُرسَلينَ﴾.[١]

إنّها تحيّات واقعية تصل إلى أصحابها بإذن من الله سبحانه.

هـ: السلام على النبيّ عند ختام الصلاة

إنّ جميع المسلمين في العالم ـ بالرغم من الخلافات المذهبية بينهم في فروع الدين ـ يُسلّمون على رسول الله ﷺ في الصلاة عند ختامها فيقولون:

﴿السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها النَّبيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ﴾.

وقد أفتى الشافعي وآخرون ـ بوجوب هذا السلام بعد التشهّد في التشهد الأخير خاصة، وبه قال أحمد في إحدى الروايتين و إسحاق وأبو مسعود الأنصاري وأفتى الآخرون باستحبابه، لكن الجميع متّفقون على أنّ النبي ﷺ علّمهم السّلام[٢] وأنّ سنّة النبي ثابتة في حياته وبعد وفاته.

والسؤال الآن: إذا كانت صِلتنا وعلاقتنا بالنبيﷺ قد انقطعت بوفاته، فما معنى مخاطبته والسّلام عليه يومياً؟!

وقد روي عن رسول اللهﷺ أنّه قال:

«مَنْ صَلّى عليَّ عِنْدَ قَبْري سَمِعْتُهُ، وَمَنْ صَلّىٰ عَلَيَّ مِنْ بُعْدٍ أُبْلِغْتُهُ».[٣]

هذا وقد تحدّثنا بالتفصيل عن موضوع الاتصال بالأرواح في العالم الآخر في كتاب مستقل، وذكرنا هناك آيات متعدّدة حوله، ونكتفي هنا بهذه الآيات مراعاة للاختصار.

---

١. الصافات:٧٩، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٠، ١٨١.

٢. راجع كتاب تذكرة الفقهاء:٣/ ٢٣٢، وكتاب الخلاف للشيخ الطوسي: ١/ ٤٧ لمعرفة أقوال المذاهب والفقهاء في هذا المجال.

٣. كتاب حقّ اليقين للسيد عبد الله شُبَّر:٢/ ٧٣.

وختاماً تجدر الإشارة إلى أنّنا أوردنا الاستدلال بالسلام عند التشهد في خلال البحث عن الآيات المذكورة، بسبب قطعيّته وثبوته الأكيد.

وإليك الآن نموذجين ـ من التاريخ ـ حول التحدّث مع الأرواح.

١. روي عن النبي ﷺ أنّه وقف على قليب [١]«بَدْر» وخاطب المشركين ـ الذين قُتلوا وأُلقيت أجسادهم في القليب ـ:

«لقد كنتم جيرانَ سُوءٍ لرسُولِ اللهِ، أخرجتُمُوهُ مِنْ مَنزِلِهِ وَطردتمُوهُ، ثُمَّ اجْتَمعْتُمْ عليهِ فَحارَبْتُمُوهُ، فقدْ وَجَدْتُ ما وَعَدَني رَبّي حَقّاً».

فقال له رجل: يا رَسُول الله ما خطابُك لهامٍ قَد صُديَتْ؟[٢]

فقال ﷺ:

«والله ما أنت بأسمع منهم، وما بينَهم وبين أن تأخذهم الملائكةُ بِمَقامِعَ من حَديد إلاّ أن أُعرضَ بِوَجهي ـ هكذا ـ عَنْهُمْ».[٣]

٢. وروي أنّ الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ركب دابّته ـ بعد انتهاء حرب الجَمل في البصرة ـ و صار يتخلّل القتلى، حتّى مرّ على كعب بن سور ـ وكان قاضي البصرة منذ أيّام عمر وفي أيّام عثمان، ولمّا وقعت الفتنة بالبصرة خرج لحرب خليفة رسول الله و إمام زمانه، مع أهله وولده فقُتلوا جميعاً ـ فوقف عليه أمير المؤمنين عليه السلام وهو صريع بين القتلى:

فقال ـ لمن حوله ـ:

«أجْلِسُوا كَعْبَ بن سُور».

---

١. القليب: البئر.

٢. الهام ـ جمع هامة ـ: الرأس. صُديت: تفسّخت، والمعنى: كيف تخاطب رؤوساً قد تفسّخت.

٣. صحيح البخاري: ٥/ ٧٦ـ ٧٧ باب قتل أبي جهل؛ سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩٢؛ حقّ اليقين للسيّد عبد الله شُبّر: ٢/ ٧٣.

فأجلسوه بين شخصين يمسكانه، فقال عليه السلام:

«ياكعب بن سُور! قَد وَجَدْتُ ما وَعَدَني ربّي حَقّاً، فهل وجدتَ ما وَعَدَكَ رَبُّكَ حَقّاً»؟!

ثمّ قال: «أضجِعُوهُ».

وسار قليلاً حتّى مرّ بطلحة بن عبد الله صريعاً فقال:

«أجلِسوا طلحة».

فأجلسوه، فقال عليه السلام:

«يا طلحة! قد وجدتُ ما وَعَدَني رَبّي حقّاً، فهل وجدتَ ما وَعدَكَ رَبُّكَ حَقّاً»؟!

ثمّ قال:

«أضْجِعُوا طَلَحَة».

فقال له رجل:

يا أمير المؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك؟!

فقال عليه السلام:

«يا رجل والله لقد سمعا كلامي، كما سمع أهلُ القليبِ كلامَ رسول الله».[1]

نتيجة البحث

بصورة خاطفة نستنتج ممّا سبق من البحث ما يلي:

١. لقد أثبتنا ـ في الموضوع الأوّل ـ أنّ الموت ليس هو النهاية للحياة، ولا يعني فناء الإنسان، إنّما هو معبَر ينتقل الإنسان به إلى عالم آخر.

---

١. الشيخ المفيد: حرب الجمل: ١٩٥.

٢. كما أثبتنا ـ في الموضوع الثاني ـ أنّ حقيقة الإنسان هي روحه، وأنّ الجسد ليس إلاّ رداء يُغطّي الروح، وبقاء الروح يعني بقاء المعنويّات والكمالات والشخصية الإنسانية ـ باستثناء القدرات الماديّة الّتي تزول بزوال الجسد ـ.

وعلى هذا الأساس... لو كانت لنفس الإنسان وروحه القدرة على الدعاء أو إنجاز أعمال إعجازية ـ عندما كان على قيد الحياة ـ فلروحه أيضاً القدرة على إنجاز كلّ تلك الأعمال بعد موته بإذن الله تعالى.

٣. وفي الموضوع الثالث أثبتنا إمكان الاتّصال بالعالم الآخر، بل وقوعه وحدوثه وأنّ الأرواح قادرة على سماع كلامنا وخطابنا لها، ولا فرق بين أرواح الصالحين أو المجرمين، كما مرّ عليك ذلك في القصص القرآنية والتاريخية.

بعد الانتباه إلى هذه الأُمور الثلاثة، ثبت أنّ أولياء الله تعالى يسمعون كلامنا وخطابنا، و إذا أذن الله لهم فإنّهم يردّون علينا الجواب.

والسؤال الآن: هل يجوز لنا ـ شرعاً ـ مخاطبة أرواح أولياء الله والاستعانة بها؟ الجواب يأتيك في الأمر الرابع إن شاء الله تعالى.

٤. المسلمون وطلب الحاجة من الأرواح المقدّسة

لقد تسرّع ابن تيميّة ـ و أتباعه ـ في الحكم ، فأنكروا أن يكون الصحابة والتابعون قد طلبوا حاجة من النبيّ ﷺ فهم يقولون:

ولم يكن أحد من سلف الأُمّة ـ في عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين ـ يتخيّرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء ويسألونهم، ولا يستغيثون بهم لا في مغيبهم ولا عند قبورهم.[1]

١. رسالة الهدية السَّنيّة: ١٦٢ طبعة المنار في مصر.

لعلّ الإنسـان الجاهـل بتاريـخ الصحـابـة والتابعين ينخـدع بهذا الكـلام ويتصوّر صدقه وصحته، ولكن سرعان ما يثبت له كذب هذا الادّعاء وبطلانه إذا نظـر إلى التاريـخ بنظرة خـاطفـة، وقرأ بعينـه تـوسُّل الصحـابـة وغيرهم بـالنبي، والاستغاثة به ﷺ.

وإليك بعض النماذج من ذلك:

١. أصاب الناس قحطٌ في عهد عمر بن الخطاب، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله استسق الله لأُمّتك فإنّهم قـد هلكوا. فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: ائت عمر، فاقرأه السلام وأخبره إنّهم مسقَون».[١]

ثمّ يقول السمهودي ـ بعد ذكر هذه القضية ـ :

«ومحلُّ الاستشهاد طلب الاستسقاء منه عليه السلام وهو في البرزخ، ودعاؤه لربّه في هذه الحالـة غير ممتنع، وعلمه بسؤال من يسألـه، فلا مانع من سـؤال الاستسقاء وغيره منه، كما كان في الدنيا».[٢]

٢. ويروي السمهـودي أيضاً عن الحافظ أبي عبـد الله محمد بن مـوسى بن النعمان، بسند ينتهي إلى الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام :

«أنّ أعرابياً جـاء إلى المدينة بعد ثلاثة أيّـام من دفن النبي ﷺ فرمى بنفسه على قبر النبي وحثا من تـرابه على رأسه وقال: «يا رسول الله قلـت فسمعنا قولك، ووعيتَ عن الله سبحانـه ما وعينا عنك، وكـان فيما أُنزل عليك: ﴿ ... **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً**﴾[٣] وقد ظلمتُ نفسي وجئتك تستغفر لي».[٤]

١و٢. وفاء الوفا: ٤/ ١٣٧١. ٣. النساء: ٦٤.
٤. وفاء الوفا: ٤/ ١٣٦١ وقد سبق ذكر هذا الحديث في فصلٍ سابق.

أيّها القارئ الكريم: إنّ السمهودي يذكر ـ في كتابه وفاء الوفا، الباب الثامن ـ قضايا ووقائع كثيرة وكلّها تدلّ على أنّ الاستغاثة برسول الله ﷺ كانت سيرة مستمرة للمسلمين، حتّى أنّه يقول: إنّ الإمام محمّد بن نعمان كتب كتاباً حول هذا الموضوع بعنوان: مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام.

٣. يقول محمّد بن المنكدر:

«أودع رجلٌ أبي ثمانين ديناراً، وخرج للجهاد وقال لأبي: إن احتجت أنفقها إلى أن أعود، وأصاب الناس جُهدٌ من الغلاء، فأنفق أبي الدنانير، فقدم الرجل وطلب ماله، فقال له أبي: عُد إليَّ غداً. وبات في المسجد يلوذ بقبر النبيّ ﷺ مرّة وبمنبره مرّة، حتّى كاد أن يُصبح، يستغيث بقبر النبيّ، فبينما هو كذلك وإذا بشخص ـ في الظلام ـ يقول: دونكها يا أبا محمّد، فمدّ أبي يده فإذا هو بصُرّة فيها ثمانون ديناراً، فلما أصبح جاء الرجل فدفعها إليه».(١)

٤. يقول أبو بكر المقري:

«كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ في حرم رسول الله ﷺ وكنّا على حالة وأثّر فينا الجوع، وواصلنا ذلك اليوم، فلمّا كان وقت العشاء حضرتُ قبر النبيّ ﷺ فقلت: يا رسول الله: الجوع...

فحضر بالباب علويٌّ فدقَّ ففتحنا له، فإذا معه غلامان مع كلّ واحد زنبيل فيه شيء كثير، فجلسنا، وأكلنا، وظننّا أنّ الباقي يأخذه الغلام، فولّى و ترك عندنا الباقي، فلمّا فرغنا من الطعام قال العلوي: يا قوم أشكوتم إلى رسول الله؟ فإنّي رأيت رسول الله في المنام فأمرني أن أحمل بشيء إليكم».(٢)

---

١. وفاء الوفا: ٤/ ١٣٨٠.
٢. المصدر السابق.

٥. يقول ابن الجلّاد:

«دخلتُ مدينة النبيّ ﷺ وبي فاقة، فتقدّمتُ إلى القبر وقلت: ضيفُك. فغفوتُ فرأيت النبي فأعطاني رغيفاً، فأكلتُ نصفه، فانتبهتُ وبيدي النصف الآخر».(١)

نحن الآن لسنا في مقام مناقشة هذه القضايا المذكورة، وبيان صحيحها من سقيمها، وإنّما الكلام هو أنّ هذه الوقائع ـ بمجموعها ـ تشهد بأنّ الاستغاثة برسول الله ﷺ كانت سُنّة جارية بين المسلمين، ولو كانت بدعة ومحرّمة، أو شركاً وكفراً، لما ذكرها حتّى وُضّاع الحديث، خوفاً من تشويه سمعتهم بين الناس.

والجدير بالذكر، أنّنا قد أفردنا كتاباً مستقلاً بعنوان «أصالة الروح» وتحدّثنا فيه ـ بالتفصيل ـ عن كلّ ما يرتبط بهذا الموضوع، وأوردنا أحاديث وروايات كثيرة فيه، وكلّها تدلّ على صحّة طلب الدعاء والحاجة من الأرواح المقدّسة وصحّة طلب إنجاز عمل إعجازي خارق للطبيعة منهم.

وفي ختام هذا الفصل نجلب الانتباه إلى الأُمور التالية:

١. إنّ طلب الحوائج من أولياء الله ليس عبادة لهم أبداً، وخاصّة بعد أن تحدّثنا ـ بالتفصيل ـ عن معنى العبادة ومواردها، وأنّ الاعتقاد بالإلوهيّة والربوبيّة هو الّذي يصبغ العمل بصبغة العبادة، ومن الواضح أنّ المتوسّل بأولياء الله لا يعتقد بإلوهيّتهم ولا بربوبيّتهم، ولا بتدبيرهم لشؤون الكون ولا بقيامهم بأفعال الله ـ بالاستقلال والاختيار ـ بل يعتبرهم عباداً مكرمين، أطهاراً طيّبين، وُجهاء عند الله، مطيعين له، غير مرتكبين لأدنى ذنب ومعصية.

---

١. وفاء الوفا: ٤/ ١٣٨١.

٢. إنّ الأُمـور الأربعة المذكـورة أثبتت ـ بالـدليل والبرهـان ـ أنّ أوليـاء الله يملكون القدرة على قضاء حاجة المتوسّل، نظراً لحياتهم عند الله، وأنّ كلّ ما يصدر منهم إنّما هو بإذن الله تعالى، فهم من مصاديق قوله تعالى:

﴿وَما تَشاءُونَ إِلاّ أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾.

فمثلاً: كما أنّ النبـيّ عيسى عليه السلام كان في حيـاته المادّية في الـدنيا يسأل الله تعـالى الخير لمن يريـد، أو يُبرئ الأكمه والأبـرص[1] بإذن الله كـذلك يملك هـذه القدرة بعد الانتقال إلى عالم الأرواح «البرزخ» لأنّ روحه ـ الّتي هي حقيقته ـ باقية.

٣. إنّ التواضع والخضوع أمـام قبور أولياء الله هو ـ في الحقيقـة ـ تواضعٌ لله وخضوعٌ لـه، وإن كان في ظاهره تـواضعاً لذلك الـوليّ الصالح، إلاّ أنّه لـو كشفنا الستار عـن قلب ذلك المتواضع لـرأينا أنّه يتـواضع لله من خـلال تواضعه لـوليّه الصالح، وأنّه يطلب حاجته من الله بواسطـة هذا الوليّ الصالح وبسببه، فالتوسُّل بالأسباب هو عين التـوسُّل بمسبِّب الأسباب ـ و هو الله سبحانـه ـ و هذا واضح لأهل البصيرة والمعرفة.

وأنت لو سألت المتوسّل بأولياء الله عن الّذي دعاه إلى التوسُّل به، لأجابك ـ فوراً ـ بأنّه «وسيلة» إلى الله سبحانه، كما قال تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وابْتَغُوا إِليـهِ الْوَسيلَةَ وَجاهِدُوا فِي سَبيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.[2]

فكما أنّ الإنسان يتـوسّل إلى الله بـالصلاة والصـوم والعبادات والطـاعات، كذلك يتوسّل إليه سبحانه بأوليائه الصالحين المكرَّمين لديه.

---

١. الأكمه: الّذي وُلد أعمىٰ. البرص: مرض جلدي يكون بظهور بُقَع بيضاء في الجسم.
٢. المائدة: ٣٥.

والخلاصة أنّ المؤمن يعتقد ــ في قرارة نفسه ـ بأنّ توسُّله بالنبيّ وغيره من المعصومين والصالحين يدفع المتوسِّل به إلى السؤال من الله تعالى لقضاء حاجة من توسَّل به، سواء كانت الحاجة غفران ذنب، أو أداء دَين، أو شفاء مريض، أو رفاهيّة عيش، أو غير ذلك.

الفصل الرابع عشر

طلب الشفاعة من أولياء الله تعالى

إنّ «الشفاعـة» كلمة معـروفة بيننـا جميعاً، وهي تتردّد على ألسنتنـا في وقتها المنـاسب، فمثـلاً: إذا دار الحديث عن إنسـان ارتكـب جريمـة وحكمت عليـه المحكمة بالإعدام أو السجن أو غيرهما، ثمّ تدخَّل إنسان آخر وتوسّط له وأنقذه ممّا حُكم عليه عندها نقول: إنّ فلاناً «تشفَّع » لفلان.

معنى الشفاعة

«الشفاعة» مشتقّة من مادة الشفع ـ بمعنى الزوج ـ ويُقابله : الوتر ـ بمعنى الفرد ـ و السبب في إطلاق «الشفاعة» على الوساطة و«الشفيع» على الوسيط هو أنّ جهود الوسيط ومسـاعيه تَزْدَوج مع عوامل الإنقاذ والجهـود والمساعي الأُخرى الموجودة في المشفوع له، فتنقذ المذنب أو المتَّهم من ورطته.

إنّ شفـاعـة أوليـاء الله للمـذنبين تأتي بسبـب قـرب هـؤلاء من الله تعـالى، ومكانتهم وجاههم عنده سبحانه، فهم يشفعون ـ بإذن الله وضمن شروط خاصّة ـ للمذنبين والمجرمين كي يغفر الله لهم أو يقضي حوائجهم.

وبعبارة أُخـرى: إنّ الشفاعة إعانـة من أولياء الله ـ بإذن الله ـ لأشخاص لم يقطعوا روابطهم المعنـوية مع الله وأوليائه، بالـرغم من أنّهم مذنبون، هـذا تعريف

دقيق يجب الانتباه إليه دائماً.

وبتعبير ثالث: إنّ الشفاعة هي إعانة موجود عال لموجود دان، بشرط أن تكون في الداني القابلية والاستعداد لشمول الشفاعة له، من حيث صلاحيّته للتكامل والرقي إلى مرتبة عالية ودرجة سامية، وتُحوّله إلى إنسان صالح نزيه.

بعد هذه التعاريف المتعدّدة نقول: إنّ التاريخ الإسلامي يُثبت أنّ المسلمين منذ عهد رسول الله ﷺ وما بعده كانوا يطلبون الشفاعة من أولياء الله الصالحين، سواء في حياتهم أو بعد وفاتهم، ولم يعتبر أحدٌ من علماء الإسلام بأنّ هذه الشفاعة معارضة للمبادئ والأُصول الإسلامية.

حتّى جاء ابن تيميّة ـ في القرن الثامن الهجري ـ بأفكار شاذّة وآراء سقيمة، فاستنكر كثيراً من سُنن المسلمين.

وبعده بثلاثة قرون جاء محمّد بن عبد الوهّاب النجدي، فرفع راية الخلاف مع المسلمين وأحدث الفتنة والشقاق بينهم، وأحيا مبتدعات ابن تيميّة بأشدّ ممّا كان عليه.

إنّ الوهّابيّة تعتقد بالشفاعة ـ من حيث المبدأ ـ و لكن نقطة الخلاف بينها و بين المسلمين هي أنّها تُحرِّم الاستشفاع بأولياء الله في الدّنيا، وقد عبّر الوهّابيّون عن عقيدتهم هذه بعبارات قاسية متضمِّنة للإهانة والاستخفاف بالأنبياء والأولياء ونحن نتورّع حتّى ذكر تلك العبارات.

وممّا يقولون في الشفاعة: إنّ نبيّ الإسلام ﷺ وسائر الأنبياء والأولياء والملائكة، لهم حقّ الشفاعة في الآخرة فقط، لكن طلب الشفاعة يجب أن يكون من الله لا منهم، بأن يقال:

«اللّهمّ شَفِّع نبيّنا محمّداً فينا يوم القيامة. أو: اللّهمّ شَفِّع فينا عبادك

الصالحين. أو ملائكتك أو نحو ذلك ممّا يُطلَب من الله لا منهم، فلا يُقال: يا رسول الله ـ أو ـ يا وليّ الله أسألُك الشفاعة أو غيرها ممّا لا يقدر عليه إلاّ الله، فإذا طلبتَ ذلك في أيام البرزخ كان من أقسام الشرك».(١)

وهكذا ترى الوهّابيّين يرمون المسلمين بالشرك، لأنّهم يسألون الشفاعة من النبيّ ﷺ وأولياء الله الصالحين في الدنيا والآخرة.

نحن قبل أن نتطرّق إلى مناقشة أدلّة الوهّابيّين نبدأ أوّلاً بدراسة المسألة على ضوء القرآن الكريم والسُّنّة الشريفة وسيرة المسلمين، ثمّ نتناول أدلّة الوهّابيّين بالبحث والمناقشة.

الأدلّة على جواز طلب الشفاعة في الدنيا

إنّ دليلنا على جواز طلب الشفاعة في الدنيا يتركّب من أمرين، ومع ثبوتهما يتّضح الموضوع بالكامل، أمّا الأمران فهما:

١. إنّ طلب الشفاعة هو طلب الدعاء بالضبط.

٢. إنّ طلب الدعاء من الصالحين أمرٌ مستحبٌّ في الإسلام.

وإليك البحث عن هذين الأمرين:

١. طلب الشفاعة هو طلب الدعاء بالضبط

إنّ شفاعة النبي ﷺ وسائر الشفعاء الصالحين ليست سوى الدعاء إلى الله تعالى، إذ أنّهم ـ لمنزلتهم الوجيهة عند الله وكرامتهم عليه ـ يبتهلون إليه سبحانه بالدعاء وطلب المغفرة للمذنبين، والله تعالى يستجيب دعاءهم فيشمل عباده العاصين برحمته ومغفرته ويغسل ذنوبهم ويكفّر سيّئاتهم.

---

١. الهديّة السنيّة، الرسالة الثانية: ٤٢.

إنّ طلب الدعاء من الأخ المؤمن هو أمرٌ مُسْتَحسن ولم يتردّد في حُسنه أحدٌ من علماء الإسلام والمذاهب المتعدّدة ـ حتّى الوهّابيّة ـ فكيف بدعاء النبيّ والأولياء الصالحين؟!

طبعاً... لا يمكن القول بأنّ حقيقة الشفاعة لا تتجاوز الدعاء في مواقف يوم القيامة، ولكن يمكن القول بأنّ من المعاني الواضحة للشفاعة هو الدعاء، وأنّ مَن يخاطب أحد أولياء الله ويقول:«يا وَجيهاً عِنْدَ الله إشْفَعْ لَنا عِنْدَ الله» لا يقصد إلاّ هذا المعنى.

يروي نظام الدين النيشابوري في تفسير قوله تعالى:

﴿... مَنْ يَشْفَعْ شَفاعةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها﴾.(١)

يروي عن مقاتل أنّه قال:

الشَّفاعة إلى الله إنّما هي الدَّعوة لِمُسلم.

وقد روي عن النبيّ ﷺ أنّ دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلّما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكّل به: آمين ولك بمثل.(٢)

إنّ ابن تيميّة هو من الّذين يعتبرون طلب الدعاء من الإنسان الحيّ صحيحاً، وعلى هذا الأساس فانّ طلب الشفاعة لا يختصّ بالنبيّ وأولياء الله، بل يجوز ذلك من كلّ مؤمنٍ يحظىٰ بالوجاهة والمنزلة عنده سبحانه.

والفخر الرازي هو أحد الذين يُفسّرون «الشفاعة» بالدعاء والتوسُّل إلى الله تعالى، فقد قال ـ في تفسير قوله سبحانه:

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً ...﴾.(٣)

---

١. النساء:٨٥. ٢. صحيح مسلم:٨/ ٨٦، دار الفكر، بيروت. ٣. غافر:٧.

قال: هذه الآية تدلّ على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين.(١)

وإذا ثبتت هذه في حقّ الملائكة فكذلك في حقّ الأنبياء، لانعقاد الإجماع على أنه لا فرق.

وقال أيضاً:

وأيضاً قال تعالى لمحمّد ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ فأمر محمّداً أن يذكر ـ أوّلاً ـ الاستغفار لنفسه، ثمّ بعده يذكر الاستغفار لغيره، وحكى عن نوح عليه السلام أنّه قال: ﴿رَبِّ اغْفِر لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنينَ وَالمُؤْمِناتِ﴾.(٢)

إنّ هذا التوضيح من الفخر الرازي شاهدٌ على أنّه يرى معنى الشفاعة هو دعاء الشفيع للمذنب، وطلب الشفاعة هو طلب الدعاء منه.

وقد ورد في الأحاديث الشريفة أنّ دعاء المسلم لأخيه المسلم هو شفاعة له، فعن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ أنّه قال:

«ما مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ علىٰ جَنازَتِهِ أرْبَعُونَ رَجلاً لاٰ يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيئاً إلاّ شَفَّعَهُمُ اللهُ فيهِ».(٣)

لقد جاء في هذا الحديث ـ تعبير «شفّعهم الله فيه» للّذين يدعون لأخيهم المسلم.

وانطلاقاً من هذا الحديث فلو أنّ رجلاً أوصى في حياته إلى أربعين رجلاً

١. لأنّ في نهاية الآية قوله تعالى: ﴿وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحيمِ﴾.

٢. تفسير الفخر الرازي: ٧/ ٣٣ـ ٣٤. أقول: لقد ثبت بالأدلّة القطعية أنّ النبيّ ﷺ وغيره من الأنبياء معصومون عن كلّ خطأ وذنب، مطهّرون من كلّ معصية، ولهذا فالمقصود من قوله تعالى: ﴿لذنبك﴾ ليس هو المعصية المصطلحة، والتفصيل يطلب من محلّه.

٣. صحيح مسلم: ٣/ ٥٤.

من أصدقائه الأوفياء بأن يقوموا على جنازته بعد وفاته ويدعوا له، فهو بذلك قد طلب الشفاعة منهم، وهيّأ أسباب شفاعة عباد الله لنفسه.

وقد أفرد البخاري ـ في صحيحه ـ باباً بعنوان «إذا استشفعوا إلى الإمام ليستسقي لهم، لم يردّهم» وأفرد أيضاً باباً آخر بعنوان «إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط».(١)

وتدلّ الأحاديث الّتي ذكرها في هذين البابين أنّ طلب الشفاعة هو طلب الدعاء بذاته، ولا يجوز تفسير ذلك بمعنى آخر.

إلى هنا ننتهي من الاستدلال الأوّل، وقد ثبت أنّ طلب الشفاعة ليس إلاّ طلب الدعاء لا غير.

والآن نبدأ البحث عن الموضوع الثاني وهو أنّ طلب الدعاء من المؤمن مستحب، فكيف من الأنبياء وأولياء الله تعالى؟!

٢. القرآن و طلب الدعاء من الصالحين

إنّ الآيات القرآنية تشهد بأنّ طلب النبيّ ﷺ المغفرة من الله لبعض عباده مُفيدٌ ونافع جدّاً... يقول تعالى:

١. ﴿ ... وَاسْتَغْفِرِ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾.(٢)

٢. ﴿ ... وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾.(٣)

فمادام دعاء النبيّ ﷺ يترك هذا الأثر الكبير والنتيجة الحسنة لمن دعا له، فما المانع من أن يطلب الإنسان من أن يدعو له، مع العلم أنّ طلب الدعاء ليس إلاّ طلب الشفاعة منه، قال تعالى:

١. صحيح البخاري:٢/ ٣٧، باب الاستسقاء. ٢. محمّد:١٩. ٣. التوبة:١٠٣.

٣. ﴿... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً﴾.[1]

إنّ معنى قوله تعالى:﴿جاءُوك﴾ أي: جاءوا إلى النبي وطلبوا منه الدعاء والاستغفار لهم، ولولا هذا لكان مجيئهم لغواً وباطلاً.

إنّ تشرُّفهم بالحضور عند النبيّ ﷺ وطلبهم الدعاء والاستغفار منه دليلٌ على حدوث ردّ فعلٍ في نفوسهم، وحصول تغيير يُمهِّدْ الأرضية المناسبة لاستجابة الدعاء.

٤. يروي القرآن الكريم عن أولاد يعقوب عليه السلام أنّهم طلبوا من أبيهم أن يستغفر الله لهم، فلبّى النبيّ يعقوب طلبهم، ووفى بوعده، قال تعالى:

﴿قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنا إِنّا كُنّا خاطِئينَ* قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّي ...﴾.[2]

إنّ كلّ هذه الآيات تدلّ على أنّ طلب الدعاء من الأنبياء والصالحين ـ الّذي هو طلب الشفاعة أيضاً ـ لا يتنافى مع الأحكام الشرعية والقواعد والموازين الإسلامية.

أيّها القارئ الكريم: هناك أحاديث كثيرة بشأن طلب الدعاء من الأولياء الصالحين، وقد صرفنا النظر عن ذكرها مراعاةً للاختصار.

٣. الأحاديث النبوية وسيرة الصحابة

روى الترمذي ـ في صحيحه ـ عن أنس أنّه قال:

«سَأَلتُ النّبيّ أن يَشْفَعَ لي يَوْمَ القِيامَةِ فَقالَ: أنا فاعِلٌ، قُلْتُ : فأينَ

١. النساء:٦٤. ٢. يوسف:٩٧ـ٩٨.

أطْلُبُكَ؟ قال: عَلى الصِّراط».(١)

ويأتي سواد بن قارب إلى رسول الله ﷺ ويطلب منه الشفاعة في أبياتٍ أنشدهن... ومنها:

فكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعةٍ ... بمُغنٍ فتيلاً عن سواد بن قارِب(٢)

وجاء في التاريخ: أنّ رجلاً اسمه «تُبَّع» كان قبل النبيّ ﷺ بأكثر من ألف سنة، وكان قد بلغه أنّ نبيّ آخر الزمان سوف يظهر من مكّة، فكتب كتاباً ودفعه إلى بعض أقربائه، كي يُسلّموه إلى رسول الله ﷺ وذكر فيه إسلامه و إيمانه وأنّه من أُمّة رسول الله، وجاء فيه:

«فَإنْ لَمْ أُدْرِكْكَ فاشْفَعْ لي يَوْمَ الْقِيامَة ولا تَنْسني».

ومات الرجل وكان الكتاب ينتقل من واحد لآخر حتّى بُعث النبيّ ﷺ فلما وَصل الكتاب بيده قال ـ ثلاث مرّات ـ:

«مَرحَباً بالأخِ الصّالحِ».(٣)

فإذا كان طلب الشفاعة شركاً بالله، لما عبّر النبيﷺ عن تُبّع بـ«الأخ الصالح» ولما قال ثلاثاً: «مرحباً».

هذه بعض الأحاديث الّتي تثبت جواز طلب الدعاء والشفاعة من رسول الله ﷺ في حياته الكريمة.

٤. طلب الشفاعة بعد الموت

ويُستفاد من مجموعة من الروايات أنّ الصحابة كانوا يطلبون الشفاعة من

١. سنن الترمذي:٤/ ٤٢، باب ما جاء في شأن الصراط.
٢. الدرر السَّنيّة لزيني دحلان:٢٩.
٣. المناقب لابن شهر آشوب:١/ ١٦؛ بحار الأنوار:١٥/ ٢٢٤.

رسول الله ﷺ بعد وفاته، وإليك بعض النماذج:

١. قال ابن عبّاس: لمّا فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من تغسيل النبيّ ﷺ قال: «بأبي أنتَ وأُمّي ... طِبْتَ حَيّاً وطِبْتَ مَيّتاً ... واذْكُرْنا عِنْدَ رَبِّك». [1]

٢. ويُروىٰ أنّه لمّا توفّي رسول الله ﷺ كشف أبو بكر عن وجهه ثمّ أقبل عليه فقبّله ثمّ قال:

«بأبي أنتَ وأُمّي أمّا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذُقتها، ثمّ لن تصيبك بعدها موتة أبداً». [2]

إنّ هاتين الروايتين ـ وأمثالهما ـ تدلّ على أنّه لا فرق بين طلب الشفاعة من الشفيع في حياته وبعد وفاته، وقد كان الصحابة يطلبون الدعاء من النبيّ ﷺ بعد وفاته، فلو كان طلب الدعاء منه صحيحاً بعد وفاته فأنّ طلب الشفاعة ـ الّذي هو نوع من طلب الدعاء ـ سيكون صحيحاً أيضاً. [3]

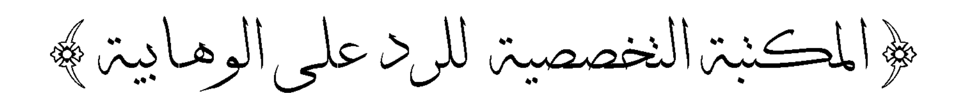
والخلاصة: بالاستناد إلى ما سبق من الآيات والروايات وسيرة المسلمين ـ على مرِّ العصور والقرون ـ يُعتبر جواز طلب الشفاعة أمراً بديهيّاً لا يترك أيّ مجال للشكّ فيه أبداً.

---

١. نهج البلاغة: رقم الخطبة: ٢٣٠.

٢. السيرة النبوية: ٢/ ٦٥٥ ـ ٦٥٦.

٣. لقد أفردنا كتاباً حول الشفاعة وذكرنا فيه مائة حديث، أربعة وأربعين منها من كتب أهل السنّة والباقي منها من كتب الشيعة، فراجع لمزيد الاطّلاع.


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الفصل الخامس عشر

أدلّة الوهّابيّين على حرمة طلب الشفاعة

لقد ذكرنا في الفصل السابق أدلّة جواز طلب الشفاعة ـ من آيات وأحاديث ـ والآن جاء دور ذِكر أدلّة الوهّابيّين على حرمة ذلك، ومناقشتها مناقشة موضوعية ﴿لِيُحِقَّ الله الحقَّ بِكَلماته﴾.

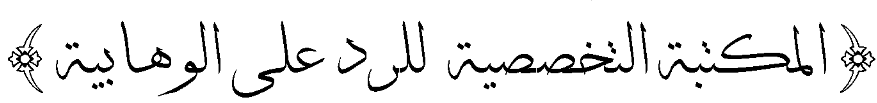
لقد استدلّ الوهّابيّون على حرمة طلب الشفاعة بأُمور نذكرها فيما يلي:

١ . طلب الشفاعة شرك بالله

إنّ ما تعنيه الوهّابيّة من الشرك هو الشرك في العبادة، حيث إنّها تزعم أنّ طلب الشفاعة من الشفيع هو عبادته.

لقد تحدّثنا ـ في فصل سابق وبالتفصيل ـ عن العبادة ومعناها، وذكرنا بأنّ أيّ طلب من الإنسان ـ حتّى طلب الشفاعة ـ إنّما يكون عبادة إذا كان مقروناً بالاعتقاد بأنّه: «إلهٌ وربٌّ» أو «مصدر لأفعال الله ومدبِّر مستقلّ لشؤون الكون وقائم بما يرجع إليه سبحانه».

إنّ طالب الشفاعة من الشفعاء الصالحين ـ الذين أذن الله لهم بالشفاعة ـ إنّما يعتبرهم عباداً لله، مقرَّبين لديه، وُجهاء وكُرماء عنده،وليس هناك أيّ اعتقاد بإلوهيّتهم وربوبيّتهم أو كونهم مصدراً مستقلاً لأفعال الله تعالى أو أنّ الشفاعة



والمغفرة قد فُوِّضت إليهم تفويضاً مطلقاً لا يحتاج إلى إذن الله سبحانه.

كلاّ ، إنّ الشفعاء الصالحين إنّما يشفعون في إطار «إذن الله سبحانه» لمن يستحقّ الشفاعة ويليق بها، بأن تكون علاقاتهم المعنوية متّصلة بالله، غير مقطوعة عن الشفعاء.

ومن الواضح أنّ طلب الشفاعة من الميّت لو كان معناه عبادته، لكان الطلب من الشفيع الحيّ عبادة له أيضاً.

وقد ذكرنا ـ في فصلٍ سابق ـ أنّ القرآن يدعو المسلمين إلى الحضور عند رسول الله ﷺ وطلب الاستغفار لهم من الله سبحانه، وليس هذا الطلب سوى طلب الشفاعة من النبيّ ﷺ في حياته، ولا يمكن أن يكون هذا العمل شركاً في زمان، وتوحيداً في زمان آخر.

كما ذكرنا أيضاً ـ في فصل الاستعانة بأولياء الله ـ أنّ الاستشفاع بالوليّ الصالح إذا لم يكن باعتقاد إلوهيّته وربوبيّته فلا يُعتبر شركاً أبداً، فمثلاً يقول تعالى:

﴿... وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.[1]

فيحصر الاستعانة بذاته المقدّسة، ثمّ يقول سبحانه أيضاً:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاة ...﴾.[2]

فهل يقول قائل: إنّ الاستعانة بالصبر شركٌ بالله؟!

طبعاً... لا، لأنّ الاستعانة المحرّمة هي المقرونة بالإيمان بربوبيّة غير الله سبحانه، وهذا ما لا يؤمن به أحد من المسلمين.

١. الفاتحة:٥.

٢. البقرة:٤٥.

٢. المشركون والتشفّع بالأصنام

بعد إبطال الدليل الأوّل للوهّابيّة على حرمة طلب الشفاعة من الأولياء، يأتي دور إبطال الدليل الثاني وهو: أنّ الله تعالى إنّما اعتبر عَبَدة الأصنام مشركين، لأنّهم كانوا يطلبون الشفاعة من أصنامهم، وكانوا يبكون أمامها ويطلبون الوساطة منها، كما قال تعالى:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَاللهِ ... ﴾.[1]

وعلى هذا الأساس فإنّ مطلق طلب الشفاعة من غير الله يُعتبر شركاً بالله وعبادة للشفيع.

الجواب

أوّلاً: ليست في هذه الآية أيّة دلالة على ما ترتئيه الوهّابيّة أبداً، لأنّ القرآن عندما يعتبر أُولئك مشركين فليس لأجل طلبهم الشفاعة من الأصنام، بل بسبب عبادتهم لها، عبادة تؤدّي بهم إلى الاستشفاع بها أيضاً.

ولو كان مجرّد طلب الشفاعة من الأصنام عبادة لها وموجباً للشرك، لما كانت هناك حاجة إلى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هٰؤلاءِ شُفَعاؤُنا﴾ بل كان قوله سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ كافياً لنسبة الشرك إليهم، فعطف الجملة الثانية على الأُولى دليل على أنّهما شيئان مستقلّان، وأنّ موضوع عبادة الأصنام يفترق عن موضوع طلب الشفاعة منهم.

فعبادتهم الأصنام دليل على كونهم مشركين بالله تعالى، واستشفاعهم

---

١. يونس:١٨.

بالحجر والخشب دليل على جهلهم وحمقهم وعدم معرفتهم.

والحاصل انّ المشركين كانوا يقومون بعملين مستقلّين: ١. يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم.٢. يطلبون الشفاعة منهم عند الله وليست في الآية دلالة على أنّ طلب الشفاعة من الأصنام كان عبادة لها، فكيف يمكن اعتبار الاستشفاع بأولياء الله دليلاً على عبادتهم؟!!

فالآية لا ترتبط بالبحث إطلاقاً.

ثانياً: لنفرض ـ جدلاً ـ أنّ علّة الشرك في أُولئك هو استشفاعهم بالأصنام، ولكن بين استشفاع المشركين بالأصنام واستشفاع المسلمين بأولياء الله فرقٌ كبير وبُعدٌ واسع كما بين السماء والأرض، لأنّ المشركين كانوا يعتبرون الأصنام مالكة للشفاعة والمغفرة، ومشيئتهم نافذة بلا ريب، فمن الواضح أنّ هذا النوع من الاستشفاع يعدّ عبادة للأصنام، لأنّه مقرون مع الاعتقاد بربوبيّتها وإلوهيّتها ومصدريّتها لأفعال الله وشؤون الكون.

هذا... في حين أنّ الإنسان المسلم يطلب الشفاعة والدعاء من الشفيع باعتباره عبداً مقرَّباً إلى الله، وعبداً وجيهاً، مأذوناً من عند الله في الشفاعة إذا رضي وأذن.

بالله عليك أيّها القارئ: ألا يكون القول بعدم الفرق بين هذين مخالفاً للعقل ومنافياً للمنطق وبعيداً عن الإنصاف؟!!

ألا تُدرك الفرق جيّداً بينهما كما تدرك الفرق بين ظلام الليل ونور النهار؟!!

٣. دعاء غير الله عبادة له

بعد إبطال الدليل الثاني للوهّابيّة على حرمة الاستشفاع من أولياء الله تعالى،

يأتي الدليل الثـالـث وهو انّ دعوة الغير وطلب الحاجة منه، عبـادة له بنصّ القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿... فَلاٰ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ [١]. وليس للنهيّ وجه سوى كون دعاء الغير عبادة له.

والدليل على أنّ دعاء غير الله عبادة للمدعوّ، هو قوله تعالى:

﴿... ادْعُونـي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّـذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبـادَتي سَيَـدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ . [٢]

فلو تأمّلنا في الآية لرأينا أنّها بُدئتْ بلفظ «الدعوة» وخُتمتْ بلفظ «العبادة» و هذا دليل على أنّ مفهوم الكلمتين واحد، وقد روي عن النبيّ ﷺ: «الدُّعاء مُخُّ العِبادَة». [٣]

الجواب

أوّلاً: ليس المقصـود من النهي عن دعـوة غير الله ـ في قـوله سبحـانه: ﴿فلا تدعوا﴾ـ الدعوة المطلقة، بل المقصود هو الدعاء الخاص الذي يعادل العبادة، إذ من المعلـوم أنّ مطلق دعاء الغير ليـس عبادة لـه، فقولك: يـا زيد اسقنـي، ليس عبادة للساقي، والدليل على هذا هو بداية الآية حيث قال تعالى:

﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ للهِ فَلاٰ تَدْعُوا ... ﴾ .

فالآية ـــ بمجموعها ـ تدلّ على أنّ الدعـوة المحرّمة هي الدعـوة النابعة عن

١. الجن:١٨.

٢. غافر:٦٠.

٣. سفينة البحار: مادة «الدعاء».

الاعتقاد بإلوهيّة ذلك المدعوّ وربوبيّته وتصرُّفه في شؤون الخلق والكون[١] وأين هذا من طلب الشفاعة من النبي النابع من الاعتقاد بأنّه عبد صالح عزيز عند الله؟!

ثانياً: إنّ ما تُحرّمه الآية وتنهى عنه أن ندعو مع الله أحداً، ونجعله مساوياً في الدعاء كما تدلّ على هذا جملة «مع الله» فإذا طلب إنسان من النبيّ ﷺ أن يبتهل إلى الله بالدعاء والتوسّل لقضاء حاجته وغفران ذنوبه، فليس معناه أنّه دعا مع الله أحداً، بل إنّ هذا الدعاء ـ في الحقيقة ـ ليس إلاّ دعاء الله سبحانه.

وإذا كانت بعض الآيات تعتبر طلب الحاجة من الأصنام شركاً فإنّما هو بسبب أنّهم كانوا يعتبرون الأصنام آلهة صغاراً تملك الاختيار الكامل لأفعال الله تعالى، كلّها أو بعضها، ولهذا ترى القرآن الكريم ينتقد هذه الأفكار الباطلة فيقول:

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَسْتَطيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاٰ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.[٢]

ويقول أيضاً:

﴿إِنَّ الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ ... ﴾.[٣]

وخلاصة القول: إنّ المشركين كانوا يعتبرون أصنامهم آلهة صغاراً، وأنّ أفعال الله تعالى مفوّضة إليها بشكل مطلق، لكن طلب الشفاعة والدعاء من إنسان منحه الله الكرامة والمنزلة فاقد لهذه الخصائص والشروط. فأين اعتقاد المشركين في حقّ أصنامهم من اعتقاد المسلمين في حقّ أوليائهم؟!!

قليلاً من الإنصاف والموضوعيّة!

---

١. فقوله تعالى: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ معناه فلا تعبدوا مع الله أحداً، كما يقول سبحانه في آية أُخرى: ﴿وَالَّذينَ لاٰ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخر﴾ سورة الفرقان، آية٦٨: أي لا يعبدون مع الله إلهاً آخر.

٢. الأعراف:١٩٧.

٣. الأعراف:١٩٤.

«أفلا تعقلون»؟!

ثالثاً: إنّ كلمة «الدعـوة» لها معنىً واسع، حتّى أنّها تُستعمل ـ أحيـاناً ومن باب المجاز ـ في العبادة أيضاً، كما استدلّـوا به في الآية [1] والحديث[2] مع العلم أنّ هذه الاستعمالات الجزئيـة المجازية لا تكفي، دليلاً على أن نُفسّر «الـدعوة» في جميع الموارد بمعنى العبادة دائماً، وأن نعتبر طلب الحاجة والدعاء من أحدٍ شركاً.

٤. الشفاعة حقٌّ خاصٌّ بالله سبحانه فقط

أيّها القارئ الكريم: بعد إبطال الدليل الثالث للوهّابيّة نذكر الدليل الرابع وهو قوله تعالى:

﴿أَمِ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَـاءَ قُـلْ أَوَ لَـوْ كـانُـوا لاٰ يَمْلِكُـونَ شَيئـاً وَلاٰ يَعْقِلُونَ* قُل للهِ الشَّفاعَةُ جَميعاً ... ﴾.[3]

ووجه الاستدلال بهذه الآية هو تصريحها باختصاص الشفاعة بالله سبحانه.

إذن : ماذا يعني طلب الشفاعة من غير الله؟

الجواب

ليس معنى قوله تعالى: **﴿لله الشَّفاعة جَميعاً﴾** أنّ الشفاعة خاصّة بالله ولا يحقّ لغيره أن يشفع، لأنّـه لا شكّ أنّ الله لا يشفـع لأحدٍ عنـد آخـر، بل يعني أنّـه تعالى مالك أصل الشفاعـة لا الأصنام، وذلك لأنّ الشفيع يجب أن يكون ذا عقلٍ وشعورٍ أوّلاً ومالكاً للشفاعة ثانياً، في حين أنّ الأصنام تفقد هذين الوصفين، ولهذا

---

١. وهي **﴿ادعوني أستجب لكم﴾**.

٢. وهو: الدعاء مُخّ العبادة.

٣. الزمر:٤٣ـ ٤٤.

قال سبحانه:

١. ﴿ أَوَلَو كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾.

٢. ﴿وَلا يَعْقِلُونَ﴾.

إذن تركيز الآية إنّما هو على أنّ الله تعالى هو مالك الشفاعة لا الأصنام، وأنّ الله يمنح هذه الصلاحية لمن تتوفّر فيه اللياقة والأهليّة ليستشفع لعباده، لا لمثل الأصنام والأوثان، فلا علاقة لهذه الآية مع الموضوع الّذي نتحدّث عنه، لأنّ المسلمين يعتبرون الله وحده «مالك الشفاعة» لا أولياؤه،ويعتقدون أنّ من أذن الله له في الشفاعة قادرٌ على الاستشفاع دون غيره.

كما أنّ المسلمين يعتقدون ـ بالاستناد إلى الآيات والأحاديث ـ بأنّ الله تعالى قد أذن للنبي وآله الأطهار عليهم السلام بالشفاعة، ولذلك فنحن نستشفع بهم.

وهكذا ظهر لك ـ أيّها القارئ ـ عدم العلاقة بين تلك الآية وهذا البحث، وعدم العلاقة أيضاً بين الحديث الذي ذكروه وهذا البحث.

٥. لَغْوية الاستشفاع بالميّت

إنّ آخر دليل ذكره الوهّابيّون ـ على حرمة الاستشفاع بالأولياء ـ هو أنّ طلب الشفاعة من أولياء الله في هذه الحياة هو طلب الحاجة من الميّت الفاقد للسمع، وقد استدلّوا على ذلك بآيتين:

١. ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوتىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوا مُدْبِرِينَ﴾.[١]

ووجه الاستدلال بها: أنّ القرآن الكريم شبّه المشركين بالأموات، وهي تخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنّك لا تستطيع أن تُفهم هؤلاء، لأنّهم كالموتى لا يسمعون،

---

١. الروم:٥٢.

فلو كان الموتى قادرين على التكلّم والسماع لما صحّ تشبيه المشركين بالموتى.

٢. ﴿... إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.[١]

والاستدلال بهذه الآية كالاستدلال بالآية السابقة، في عدم قدرة الموتى على السماع والتكلّم، وعلى هذا فطلب الشفاعة منهم كطلب الشفاعة من الجمادات.

الجواب

إنّ الوهّابيّة تلجأ دوماً إلى مسألة الشرك في ردّ الفِرق والمذاهب الإسلامية، وتتّهم المسلمين بالكفر تحت ستار الدفاع عن التوحيد واختصاص العبادة به.

ولكنّها ـ في هذا الاستدلال ـ غيّرت اسلوبها وتشبّثت بالقول: إنّ الاستشفاع بالأولياء لغوٌ ولا فائدة فيه، لكونهم موتى.

ولكن هذه الشرذمة ـ الغريبة عن القرآن ـ تجاهلت وتغافلت عن الأدلّة العقلية والشرعية الّتي تُثبت حياة الأولياء بعد الموت.

لقد أثبت فلاسفة الإسلام أنّ الروح ـ بعدما تتجرّد عن هذا الجسم المادّي وتستغني عنه ـ تظلّ باقية إلى ما لا نهاية، وتتمتع بحياة وإدراك خاصّ، وقد ذكر الفلاسفة الإلهيّون عشرة أدلّة عقلية على هذا الموضوع، ممّا لم يترك مجالاً للشكّ والتردّد فيه، لأهل الإنصاف والوجدان.

وبالإضافة إلى الأدلّة العقلية ... فهذا كتاب الله يُنادي ـ بأعلى صوته ـ بالحياة بعد الموت[٢] وكذلك عشرات الأحاديث الشريفة المرويّة في هذا المجال.

---

١. فاطر:٢٢.

٢. راجع آية ١٦٩ ـ ١٧٠ من سورة آل عمران، و آية ٤١ من سورة النساء، وآية ٤٥ من سورة الأحزاب،و آية ١٠٠ من سورة المؤمنون، وآية ٤٦ من سورة غافر، كلّها تدلّ على الحياة بعد الموت، وقد تحدّثنا عن هذا الموضوع في فصل سابق.



فما هذا الدليل العليل أيّها الوهّابيّون؟!

وتسأل: فما معنى تلك الآيتين؟

الجواب

أوّلاً: المراد ـ بملاحظة الآيات السابقة الدالّة على سماع الموتى بعد رحيلهم ـ هو نفي الإسماع المفيد، فإنّ سماع الموتى أو من في القبور لا يجدي نفعاً بعدما ماتوا كافرين، فهكذا المشركون لا يفيد إسماعهم، فوجه الشبه في تشبيه إسماع المشركين بإسماع الموتى هو عدم فائدة الإسماع لا عدم تحقّقه، وإلاّ فهذا هو النبي ﷺ، يقول: «الميت يسمع قرع النعال» في حديث أخرجه البخاري عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: إنّ العبد إذا وضع في قبره وتولّى عنه أصحابه حتّى أنّه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيُقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمّد ﷺ فيقول: أشهد انّه عبد الله ورسوله إلى آخر ما نقل.[1]

وقد مرّ انّ النبيّ ﷺ كان يزور القبور، ويخرج آخر الليل إلى البقيع، فيقول: السّلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون وانّا إن شاء الله بكم لاحقون، اللّهمّ اغفر لأهل بقيع الغرقد.[2]

اتّفق المسلمون على تعذيب الميت في القبر، أخرج البخاري عن ابنة خالد ابن سعيد بن العاص انّها سمعت النبي ﷺ وهو يتعوّذ من عذاب القبر، وأخرج عن أبي هريرة كان رسول الله ﷺ يدعو: اللّهمّ إنّي أعوذ بك من عذاب القبر و من عذاب النار.[3]

---

١. البخاري: الصحيح: ٢/ ٩٠، باب الميت يسمع خفق النعال.

٢. صحيح مسلم: ٣/ ٦٣، باب ما يقال عند دخول القبور من كتاب الجنائز.

٣. البخاري: الصحيح: ٢/ ٩٩، باب التعوذ من عذاب القبر من كتاب الصلاة.

كلّ ذلك يدلّ على أنّ المراد من نفي الإسماع هو الإسماع المفيد تحقيقاً لقوله سبحانه: ﴿حَتىٰ إذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوتُ قـالَ رَبِّ ارْجِعُون* لَعَلّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاّ إنّها كَلِمَةٌ هُوَ قـائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرزَخٌ إِلىٰ يَوم يُبْعَثُون﴾[1] حيث إنّ الآية صريحة في ردّ دعـوة الكفّار حيـث طلبوا من الله سبحـانه أن يُـرجعهم إلى الدنيـا حتّى يعملوا صـالحاً، فيأتيهم النداء «بكـلا» فيكون تمنّيهم بـلا جدوى ولا فائدة كما أنّ سماع الموتى كذلك، لا انّهم لا يسمعون أبداً، إذ هو مخالف لما مرّ من صريح الآيات والروايات.

وثانياً: إنّ الأجساد الراقدة تحت التراب غير قادرة على الفهم والإدراك، وهذا طبيعي، إذ أنّ الجسد عندما يتجرّد عن الروح يبقى جماداً لا فهم له ولا إدراك.

ولكن النقطة المهمّة ـ هنا ـ هو أنّ الذين نُخاطبهم ونستشفع منهم ـ و كما يؤكّـد القرآن الكـريم ــ ليس هـو الجسد المدفـون تحت التراب، وإنّما هي الـروح الطاهرة والحيّة التي تعيش في الجسد البرزخي في عالم البرزخ.

فلو لم تتمكّن الأجساد المدفونة في الأرض من الإدراك والفهم، فهذا لا يدلّ على أنّ أرواحها الطاهرة ونفوسها الطيّبة ـ التي هي حيّة تُرزَق في العالَم الآخر ـ غير قادرة على الإدراك والفهم.

وأنّ السلام والتحيّـة والزيـارة هي لتلك الأرواح النـورانيّة الخالـدة، وطلب الشفاعة منها أيضاً.

وهكذا ظهر لك ـ أيّها القارئ الكريم ـ أنّ الأدلّة الّتي يستدلّ بها الوهّابيّون على حرمـة الاستشفاع من أوليـاء الله أدلّة واهية ضعيفـة، وأنّ الحقّ هو ما يقـوم به المسلمون تبعاً للقرآن والأحاديث الشريفة.

---

١. المؤمنون:٩٩ـ١٠٠.


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الفصل السادس عشر

الاعتقاد بالقدرة الغيبيّة لأولياء الله تعالى

هل الاعتقاد بالقدرة الغيبية لأولياء الله شرك بالله؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ الإنسان لا يطلب حاجته من أحدٍ إلاّ إذا تأكّد من قدرته على قضاء حاجته وتلبية طلبه.

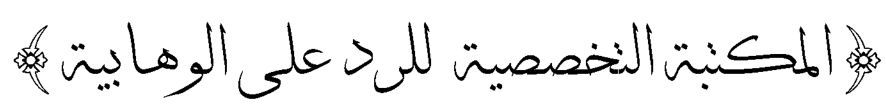
وهذه القدرة على قسمين:

١. القدرة المادّية الظاهرية، بأن تطلب الماء من إنسان، فيملأ لك الإناء ماءً ويُناولك.

٢. القدرة الغيبية الخارجة عن المجاري الطبيعية، كأن يعتقد الإنسان ـ مثلاً ـ بأنّ الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام قادر بإذنه سبحانه على قلع باب خيبر ـ الّذي يعجز الإنسان عن قلعه عادة ـ بقوّة غيبية تفوق قدرة البشر.

أو يعتقد بأنّ النبيّ عيسى عليه السلام قادر على شفاء المريض الذي يصعب علاجه، بإذن الله سبحانه من دون استعمال دواء أو إجراء عملية جراحية.

إذا عرفت هذا... فاعلم أنّ الاعتقاد بهذه القدرة الغيبية ـ إذا كان مُستنداً إلى قدرة الله وإذنه وإرادته ـ هو كالاعتقاد بالقدرة المادّية الطبيعية، وليس شركاً بالله سبحانه، لأنّ الله الّذي وهب القدرة المادّية لشخص قادر على أن يهب القدرة الغيبية لشخص آخر، دون الاعتقاد بكون المخلوق خالقاً أو مستغنياً عن الله تعالى.



الرأي الوهّابي

يعتقد الوهّابيّون بأنّه لو طلب إنسان حاجة من أحد أولياء الله ـ حيّاً كان أم ميّتاً ـ كأن يشفي مريضه أو يُعيد عليه مفقوده أو يقضي ديونه أو غير ذلك، فقد آمن بوجود قدرة غيبية عند من دعاه وسأله، بحيث يستطيع أن يخرق بها القوانين الطبيعية الحاكمة في هذا الكون، والاعتقاد بهذه القدرة لغير الله اعتقاد بإلوهيّة ذلك الغير، وطلب الحاجة منه مع هذا الاعتقاد شرك بالله سبحانه.

مثال ذلك: لو طلب الإنسان ـ العطشان في الصحراء ـ ماءً من خادمه، فإنّ طلبه هذا ليس طلباً لخرق القوانين الطبيعية، فهو جائز وليس شركاً.

أمّا لو طلب نفس هذا الطلب من نبيّ أو إمام يرقد تحت التراب، أو يعيش في بلدة أُخرى ومكان آخر، أو كان غائباً عن الأبصار، فقد أشرك بالله تعالى، لأنّه يعتقد بأنّ ذلك النبيّ أو الإمام يستطيع أن يُهيّئ الماء، خارج نطاق القوانين والأسباب الطبيعية، أي: بالقدرة الغيبية، وهذا اعتقاد بإلوهيّة ذلك المدعو: النبيّ أو الإمام.

وقد صرّح بهذا الرأي الكاتب الوهابي «أبو الأعلى المودودي» حيث قال:

إنّ التصوّر الّذي لأجله يدعو الإنسان الإله ويستغيثه ويتضرّع إليه هو ـ لاجرم ـ تصوُّر كونه مالكاً للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة.[1]

رأينا حول هذا الكلام

إنّ الخطأ الّذي ارتكبه المودودي ـ و نظراؤه ـ تصوَّر، بأنّ الاعتقاد بالسلطة الغيبيّة لغير الله شرك به سبحانه مطلقاً، ولم يُفرِّق ـ أو لم يرد أو يُفرِّق ـ بين الاعتقاد

١. المصطلحات الأربعة:١٨.

بالقدرة الغيبية المستمدّة من الله والمعتَمد عليه، وبين القدرة المستقلّة عنه سبحانه، حيث إنّ الشرك هو الاعتقاد الثاني لا الأوّل.

إنّ القرآن الكريم يذكر ـ بصراحة تامّة ـ أسماء أشخاص كانت لهم القدرة الغيبية، وكانت إرادتهم تتحكّم على قوانين الطبيعة وتُغيّر مجراها.

وإليك أسماء بعض من أشار إليهم القرآن:

١. القدرة الغيبية للنبيّ يوسف عليه السلام

قال يوسف عليه السلام لإخوته:

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذا فَأَلْقُوهُ عَلىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً ...﴾.

﴿... فَلَمّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾.(١)

إنّ ظاهر هذه الآية يدلّ على أنّ النبيّ يعقوب عليه السلام استعاد بصره الكامل بالقدرة الغيبية الّتي استخدمها يوسف عليه السلام من أجل ذلك، ومن الواضح أنّ استعادة يعقوب بصره لم يكن من الله بصورة مباشرة، بل تحقّقت بإذنه سبحانه، بواسطة النبيّ يوسف عليه السلام.

إنّ النبيّ يوسف كان السبب في عودة بصر أبيه كاملة، ولولا ذلك لما أمر إخوانه بأن يذهبوا بقميصه ويلقوه على وجه أبيه، بل كان يكفي أن يدعو الله تعالى لذلك فقط.

إنّ هذا تصرُّفٌ غيبيّ صدر من أحد أولياء الله ـ يوسف ـ و غيّر المجرى الطبيعي بإذنه سبحانه، ولا يقدر على هذا التصرُّف إلاّ من منحه الله السلطة الغيبية. ولم يقم بهذا العمل اعجازاً و إثباتاً لنبوته.

---

١. يوسف: ٩٣ و ٩٦.

٢. السلطة الغيبية للنبيّ موسى عليه السلام

لقد منح الله سبحانه القدرة الغيبية للنبيّ موسى عليه السلام فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، بعدد قبائل بني إسرائيل، كما قال سبحانه:

﴿ ... قُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ .(١)

واستخدم موسى عليه السلام قدرته الغيبية مرّة أُخرى عندما ضرب بعصاه البحر ليفتح ـ في عمق البحر وعلى أرضه ـ اثني عشر طريقاً يابساً لبني إسرائيل، كي يمرّوا فيه ويعبروا البحر، فتراكمت المياه كالجبال على أطراف هذه الطرق من دون أن تتدحرج أو تسيل قطرةٌ منها في الطريق!

قال تعالى:

﴿فَأَوحَيْنا إِلىٰ مُوسىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ الْعَظيمِ﴾ .(٢)

في هذين الموقفين لا يمكن أن نتجاهل دور النبيّ موسى عليه السلام في تفجير العيون وفتح الطرق على أرض البحر، وأنّه استفاد من قدرته الغيبية، فتحقّق كلّ ذلك بإذن الله و إرادته سبحانه.

٣. السلطة الغيبية للنبيّ سليمان عليه السلام

لقد كان النبيّ سليمان عليه السلام يتمتع بقدرات غيبية متعدّدة، وقد عبّر عن تلك المواهب والمنح الإلهية العظيمة بقوله ـ كما في القرآن الكريم ـ :

﴿ ... وَأُوتينا مِنْ كُلِّ شَيءٍ ... ﴾ .(٣)

وقد جاء تفصيل الحديث عن تلك المواهب والقدرات الإلهية الممنوحة له،

---

١. البقرة:٦٠. ٢. الشعراء:٦٣. ٣. النمل:١٦.

في كلّ من سورة النمل من آية ١٦ إلى ٤٤، وسورة سبأ آية ١٢، وسورة الأنبياء آية ٨١، وسورة ص من آية ٣٦ إلى ٤٠.

إنّ التأمّل في هذه الآيات يكشف لنا عن جانب من المواهب العظيمة والقدرات الغيبية الّتي مَنَحها الله لعبده ونبيّه سليمان عليه السلام.

وها نحن نذكر لك الآن بعض تلك الآيات، كي تتجلّى لك عظمة تلك السُّلطة الغيبية وترى بعينك أنّ القرآن الكريم يُثبت القدرة الغيبية لبعض عباد الله تعالى.

لقد كانت للنبي سليمان السُّلطة على الجنّ والطيور، وكان يعرف منطق الطير ولغات الحشرات، يقول الله تعالى:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النّاسُ عُلِّمنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتّى إِذا أَتَوا عَلىٰ وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقالَ رَبِّ أَوزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلىٰ والِدَيَّ﴾ إلى آخر الآيات.[1]

أيّها القارئ الكريم: ولو قرأت ـ في القرآن الحكيم ـ قصّة «الهُدهُد» الذي أرسله سليمان عليه السلام مبعوثاً إلى ملكة سبأ، حاملاً رسالة منه إليها، لاستولت عليك الدهشةُ والحيرة من القدرة الغيبية التي كانت له، لهذا نرجو منك التأمّل في الآيات ٢٠ إلى ٤٤ من سورة النمل، كي تتأكّد أكثر من بُطلان مذهب الوهّابيّة وتناقضه مع القرآن.

١. النمل:١٦ـ١٩ وما بعدها.

هذا وقد كان للنبي سليمان ـ بتصريح القرآن الكريم ـ السلطة على الريح، تجري بأمره حيث يشاء قال تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الأَرْضِ الَّتي بارَكْنا فيها وَكُنّا بِكُلِّ شَيءٍ عالِمينَ﴾.[١]

إنّ ما يُلفت الانتباه ـ في هذه الآية ـ هو قوله سبحانه: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ حيث يدلّ على سلطة سليمان الغيبية على الريح، وتحكُّمه في مسيرها ومجراها.

٤. النبيّ عيسى عليه السلام والقدرة الغيبية

يمكننا أن نتعرّف على جانب من القدرة الغيبية التي كانت للنبيّ عيسى عليه السلام من خلال التأمّل في الآيات القرآنية التي تتحدّث عنه وعنها، ومنها قوله تعالى ـ عن لسان عيسى ـ.

﴿... أَنّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحيي الْمَوتىٰ بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ في بُيُوتِكُمْ إِنَّ في ذٰلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ﴾.[٢]

لقد تكرّر قوله «بإذن الله» مرّتين في هذه الآية، تأكيداً على أنّ التصرُّفات الغيبيّة التي يقوم بها أولياء الله إنّما هي بالاستمداد من قدرة الله تعالى وإرادته، ولهذا ترى عيسى عليه السلام يعتبر تصرُّفاته كلّها رهينة بإذن الله تعالى، وهكذا غيره من الأنبياء والأولياء قال تعالى:

﴿... وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِي بآيَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللهِ ...﴾.[٣]

ولكنّك ترى في الوقت نفسه أنّ النبيّ عيسى ينسب كلّ أعماله الغيبية إلى

---

١. الأنبياء:٨١. ٢. آل عمران:٤٩. ٣. الرعد:٣٨.

نفسه الشريفة فيقول: «أخلق»، «أنفخ» ، «أُبرئ»، «أَحيي»، «أُنبّئكُمْ» بصيغة المتكلّم وحده.

هذا وليس النبيّ يوسف وموسى وعيسى وسليمان هم فقط الذين كانت لهم القدرات الغيبية، بل هناك مجموعة من الأنبياء الذين كانوا يملكون تلك القدرة، وهذا البحث يتطلب كتاباً مستقلاً، وقد تحدّثنا حوله بالتفصيل في كتاب «القدرة المعنوية للأنبياء» وقد طُبع عدّة مرّات.

٥. الملائكة و القدرة الغيبية

إنّ الملائكة يتمتّعون بالسلطة الغيبية أيضاً، فهذا القرآن الكريم يصف جبرئيل بقوله:

﴿... شَديدُ الْقُوىٰ﴾ .[١]

ويصف بعض الملائكة بقوله:

﴿فَالْمُدبِّراتِ أَمْراً﴾ .[٢]

وغيرهما من الآيات الّتي تصرّح ـ أو تُشير ـ بأنّ الملائكة تتولّى إدارة شؤون العالم، من قبض الأرواح وحراسة الناس والمحافظة عليهم وكتابة الأعمال «كراماً كاتبين» ومُبيدات الأُمم الطاغية، وغير ذلك من مسؤوليات هذا الكون.

إنّ كلّ من له إلمام بالقرآن الكريم ـ حتّى لو كان قليلاً ـ يعلم بأنّ للملائكة قدرات غيبيّة، وأنّها تقوم بتصرّفات إعجازية بإذن الله وقوّته.

فلو كان الاعتقاد بالسلطة الغيبية يستلزم الاعتقاد بالإلوهية، لكان كلّ

---

١. النجم:٥.

٢. النازعات:٥.



واحـدٍ من الأنبيـاء والملائكـة إلهاً مستقـلاً مـن دون الله سبحـانـه، وهـذا واضح البطلان.

فما هو الحلّ؟

ما هو الحلّ والقول الفصل؟

الجواب: لقد ذكرنـا أنّ الحلّ والقول الفصل هو الفـرق والتمييز بين القدرة المستقلّة والقدرة المكتسبة، فالاعتقاد بالقدرة المستقلّة ـ لغير الله ـ يستلزم الشرك به سبحانه، بينما الاعتقاد بالقدرة المكتسبة ـ في أيّ مجال ـ هو التوحيد بذاته.

إلى هنا تبيّن لك ـ أيّها القارئ ـ أنّ الاعتقاد بالقدرة الغيبية لدى أولياء الله تعالى لن يُرافقـه الشرك بل هو التوحيد بعينـه، بشرط أن تعتبر تلك القدرة مسنَدة إلى القدرة الأزلية لله تعالى.

كما تبيّن لـك بأنّـه ليس معنى الـوحيـد أن تسنـد الأفعـال الطبيعيـة إلى الإنسان، وتسند الأفعال الغيبية إلى الله تعالى، بل إنّ حقيقة التوحيد هي أن تسند كلّ الأفعال إليـه تعالى، وتعتبر القوى والطاقات والقـدرات نابعة منه وتـابعة إليه جلّ جلاله.

والآن... آن الأوان كي نتحـدّث عن الركـن الثاني في هـذا الفصل ـ و هـو جواز طلب الأعمال الإعجازية الغيبية من أولياء الله تعالى.

طلب الأعمال الغيبية من الأولياء

هل يجوز أن تطلب من أحد أولياء الله عملاً إعجازياً؟

وهل يُعتبر هذا الطلب شركاً؟

في البدايـة نقول: ممّـا لا يختلف فيـه اثنان هـو أنّ «لكلّ معلول علّـة ولكلّ

مسبِّب سبب» فكلّ شيء لا يمكن أن يكون له وجود إلاّ بسبب، فالحياة حياة الأسباب والمسبّبات، وبالتالي: لا توجد في العالم ظاهرة دون أن يكون لها سبب.

كذلك معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء لا تحدث بدون سبب، بيدَ أنّ السبب ليس سبباً مادّياً طبيعياً، بل هو غيبيّ ما ورائيّ فوق التصوّر.

فمثلاً: إذا تحوّلت عصا موسى إلى ثعبان، وأحيا عيسى الموتى، وانشقّ القمر لرسول الله ﷺ وسبَّحتْ حبّات الرمال في يده، وغير ذلك من معجزات الأنبياء... فإنّ كلّ هذه لم تحدث بلا سبب، ولكن السبب ـ كما قلنا ـ ليس مادّياً ملموساً نراه بأعيينا، لا أنّها حدثت بلا سبب أبداً.

بعد هذه الكلمة الخاطفة نتحدّث الآن عن الموضوع المطروح على بساط التحقيق وهو: طلب الأعمال الاستثنائية والإعجازية من أولياء الله تعالى.

إنّ الوهّابيّة تدّعي أنّ طلب الأعمال الخارقة للطبيعة شرك بالله سبحانه، ولكن طلب الأعمال المادّية الطبيعية ليس كذلك، فما هو رأي الإسلام حول هذا الادّعاء؟

الجواب: هذا القرآن الكريم خير دستور نتحاكم إليه، ترى في مواضع متعدّدة منه التصريح بأنّه قد طلب من الأنبياء ـ و غيرهم القيام بأعمال إعجازية خارجة عن إطار قوانين الطبيعة المادّية.

فمثلاً: طلب قوم موسى عليه السلام منه أن يوفّر لهم الماء والمطر ويُنقذهم من الجفاف الذي كانوا يُعانون منه، وصدر الأمر من الله تعالى بتلبية طلبهم، قال سبحانه:

﴿ ... وَأَوْحَيْنا إِلىٰ مُوسىٰ إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ ﴾.[1]

---

١. الأعراف: ١٦٠.

فإن قال قائل: لا مانع من طلب المعجزة من الإنسان الحي، والبحث إنّما هو حول الطلب من الميّت.

فالجواب: أنّ الحياة بعد الموت لا يُغيّران حقيقة التوحيد والشرك، بأن يكون الشيء توحيداً في حال الحياة وشركاً في حال المات، أو بالعكس، بل تبقى الحقيقة ثابتة على كلّ حال.

نعم... يمكن أن يكون للحياة والموت أثر في فائدة الطلب أو عدمها، أمّا حقيقة التوحيد والشرك فلا تؤثّران فيهما.

النبيّ سليمان عليه السلام يطلب عرش بلقيس

يحدّثنا القرآن الكريم أنّ النبيّ سليمان عليه السلام طلب من الحاضرين عنده أن يحضر أحدهم عرش بلقيس، بقدرة ماورائية غيبية وخارقة للطبيعة، فقال لهم ـ كما في القرآن الكريم ـ:

﴿ ... أَيُّكُمْ يَأْتيني بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُوني مُسْلِمين* قالَ عِفْريتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنّي عَلَيْهِ لَقَويٌّ أَمينٌ* قالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِنْدَهُ قالَ هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبّي ... ﴾.[1]

فإذا صحّ مذهب الوهّابيّين ـ في حرمة طلب الأعمال الخارقة من أحدٍ إلاّ الله ـ لكان طلب النبيّ سليمان من الحاضرين ـ إحضار عرش بلقيس بقوّة ماورائية ـ كفراً وشركاً!!

وكان طلب المعجزة ممّن يدّعي النبوّة ـ في أيّ عصر ومصر ـ كفراً وشركاً،

---

١. النمل:٣٨ـ ٤٠.

وقد كان الناس يُطالبون كلَّ من يدّعي النبوّة ـ صادقاً كان أم كاذباً ـ بالمعجزة الخارقة للطبيعة، دليلاً على صدق دعواه واتّصاله بالعالم الأعلى، ولم يطلبوا ذلك من الله الّذي بعثه، بل كانوا يقولون:

﴿ ... إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقينَ﴾ .(١)

وهذه عادة كلّ الشعوب والأُمم في العالم، حيث تريد التمييز بين النبيّ الصادق والمتنبّئ الكاذب، فتُطالبه بالمعجزة الدالّة على قدرته الغيبية، وكان الأنبياء ـ بدَورهم ـ يدعون الناس لمشاهدة معجزاتهم الدالّة على صدقهم.

وقد سجّل القرآن الكريم بعض ما دار بينهم وبين الأُمم من حوار حول هذا الموضوع، دون أن ينتقدهم على طلبهم المعجزة من الأنبياء، ممّا يدلّ على موافقته لهذا الطلب.

ولنذكر مثالاً: لو أنّ أُمّة ـ تبحث عن الحقّ ـ جاءت إلى النبيّ عيسى عليه السلام وقالت له: «إن كنت صادقاً في دعوى النبوّة فأبرئ هذا الأعمى ورُدّ إليه بصره، واشفِ هذا الأبرص» فإنّ هذه الأُمّة لا تُعتبر مشركة، بل تُعَدُّ من الأُمم الراقية التي تبحث عن الحقيقة، وتمدَح على ذلك.

والآن، لو فرضنا وفاة النبيّ عيسى عليه السلام (٢) وطلبت أُمّته من روحه الطاهرة أن يُبرئ الأكمه والأبرص، فلماذا تُعتبر مشركة، مع العلم أنّ موت النبيّ وحياته لا يؤثّران في التوحيد والشرك؟!(٣)

---

١. الأعراف:١٠٦.

٢. بالرغم من أنّه حيٌّ كما قال تعالى: ﴿وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ... بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إليه ...﴾ وتقول الأحاديث الصحيحة إنّ النبيّ عيسى سوف يعود إلى الأرض عصر ظهور الإمام المهديّ المنتظر ـ عجّل الله ظهوره ـ ليكون ردءاً له وظهيراً.

٣. للاطّلاع على بعض معجزات النبيّ عيسى راجع آية ٤٩ من سورة آل عمران و آية ١٠٠ـ ١٠١ من سورة المائدة.

خلاصة القول

وخلاصة القول: إنّ القرآن الكريم يصرِّح بأسماء بعض الأولياء الذين اصطفاهم الله ووهبهم القدرة الغيبية لتنفيذ الأعمال الماورائية الخارقة للطبيعة، وكان هؤلاء يستخدمون هذه القدرة في الأوقات المناسبة، كما كان هناك أشخاص يأتون إليهم ويطلبون منهم الاستفادة من هذه القدرة.

وهكذا ظهر لك ـ أيّها القارئ الكريم ـ إنّ آيات القرآن الكريم صريحة في ردّ مذهب الوهّابيّة و إبطال آرائها الشاذّة.

فلو قال الوهّابيّون: إنّ طلب المعجزة من أولياء الله شرك.

قلنا: لماذا طلب سليمان ـ و غيره ـ ذلك؟!

فإن قالوا: إنّ طلب الحاجة من أولياء الله ـ بطريقة إعجازية ـ يستلزم الاعتقاد بسلطتهم الغيبية.

قلنا: إنّ الاعتقاد بالسُّلطة الغيبية على نوعين: أحدهما: توحيد بعينه، والثاني: يستلزم الشرك.

فإن قالوا: إنّ طلب الكرامات من أولياء الله في حياتهم ليس شركاً، ولكن طلبها من الموتى شرك.

قلنا: إنّ الموت والحياة ليسا ملاكاً للتوحيد والشرك، ولا يُغيِّران حقيقة أحدهما.

فإن قالوا: إنّ طلب الشفاء للمريض وتسديد الدِّين ـ بطريقة غير عادية ـ هو طلب فعل الله من غير الله.

قلنا: إنّ شرط الشرك هو أن تعتقد إلوهيّة من تدعوه أو بكونه مصدراً لأفعال الله بالاستقلال، وأنّ طلب فعلٍ غير عادي ليس معناه طلب فعل إلهي

من غير الله، إذ ليس مقياس أفعال الله هو خروجه عن إطار القوانين الطبيعية، حتّى يكون هذا الطلب طلب فعل الله من عبده، كلاّ... بل إنّ مقياس أفعال الله هو أن يكون فاعله مستقلاً في إنجازه.

أمّا لو كان فاعله يُنجّز ذلك الفعل بالاعتماد على قدرة الله تعالى فإنّ الطلب منه ليس طلب فعل الله من غير الله.

ولا فرق بين أن يكون الفعل عادياً أو غيبياً.

ونفس هذا القول يأتي بالنسبة إلى الاستشفاء من أولياء الله، فإنّ البعض يُنكرون ذلك ويقولون: إنّ طلب الشفاء خاصّ بالله سبحانه بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.[1]

فكيف يصحُّ أن يقال: يا رسول الله اشفني؟! وهكذا الأمر بالنسبة إلى كلّ عمل خارق للعادة.

والجواب: أنّ الذين يعتقدون هذا الاعتقاد لم يميّزوا ـ و مع الأسف ـ بين الأفعال الإلهيّة والأفعال البشريّة، ولهذا يتصوّرون بأنّ أيّ فعلٍ يخرج عن مجراه المادّي الطبيعي فهو من أفعال الله، وأيّ فعلٍ يأخذ مجراه المادّي الطبيعي فهو من أفعال البشر.

إنّ هؤلاء لم يفهموا ـ أو تجاهلوا ـ المقياس المُمَيِّز لأفعال الله عن غيرها، ولو كان كلّ فعل يخرج عن مجراه الطبيعي يعتبر من أفعال الله لكانت أفعال المرتاضين ـ في الهند ـ أفعالاً إلهيّة، وكانوا جميعاً «آلهة».

وقد ذكرنا أكثر من مرّة أنّ المقياس ـ في الأفعال الإلهيّة ـ هو الاستقلال في الفعل، وعدم الاعتماد على أيّة قدرة أُخرى، والفعل البشري هو عكس ذلك.

١. الشعراء: ٨٠.

إنّ الإنسان يعتمد على الله ويستعين بقدرته في كلّ عمل ــ سواء كان مادّياً أو خارجاً عن حدود المادّة ـ والكثيرون يحصلون على قدرات اكتسابية ويستغلّونها للوصول إلى أهدافهم المنشودة، فهل أنّ طلب الفعل من هؤلاء شرك بالله؟!

إنّ نقطة الانحراف عن التوحيد تكمن في الاعتقاد المقرون بالطلب، فإذا كان طالب الحاجة ــ من أحد أولياء الله ـ يعتقد باستقلال ذلك الوليّ فقد اعتبره مستغنياً بالذات، ومعنى ذلك أنّه اعتبره مُستغنياً عن الله، وهذا هو الشرك، لأنّه لا مستغني بالذات سوى الله الواحد الأحد سبحانه، وقد كان كثير من المشركين ـ في العهد الجاهلي وعند طلوع الإسلام ـ يعتقدون هذا الاعتقاد بالنسبة إلى الملائكة والنجوم وأنّ الله خلقها وفوّض إليها إدارة الكون وتدبيره، تفويضاً مستقلاً تماماً[1] أو ـ على الأقل ـ أنّها تملك الشفاعة والمغفرة، وتتصرّف كما تشاء حيث تشاء.

المعتزلة والشِّرك

أمّا فرقة المعتزلة[2] فهي تعتبر الإنسان من حيث الوجود مخلوقاً لله تعالى، ولكنّها ــ في الوقت نفسه ـ تعتبره مستقلاً من حيث التأثير في الأشياء وإنجاز الأفعال، ولو أنّ المعتزلة تأمّلوا قليلاً في قولهم هذا، لأدركوا بأنّ في هذه العقيدة نوعاً من الشرك الخفي، ولكنّهم في غفلة منه.

١. ولذلك عند ما سأل عمرو بن لحي أهل الشام عن علّة عبادتهم للأصنام؟ قالوا ـ في جوابه ـ: إنّنا نطلب المطر من هذا الأصنام فتسقينا، ونستعين بها فتُعيننا، وبهذا الاعتقاد اصطحب عمرو معه «هُبَل» وجاء به إلى مكّة. راجع سيرة ابن هشام: ١/ ٧٧.

٢. كما أنّ مذاهب السُّنَّة تنقسم ـ في فروع الأحكام ـ إلى المذاهب الأربعة كذلك تنقسم في الأُصول والمعارف إلى قسمين: الأشاعرة والمعتزلة.

طبعاً هذا الشرك الخفي لا يصل إلى درجة شرك المشركين، والفرق بين الشركَين هو أنّ المشركين يدّعون استقلال أصنامهم في إدارة شؤون الكون وأفعال الله تعالى، وهؤلاء يدّعون استقلال الإنسان في أعماله.

ومن حاول التفصيل في عقيدة المعتزلة فليرجع إلى كتاب «بحوث في الملل والنحل، الجزء الثالث».


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الفصل السابع عشر

الحلف على الله تعالى بحقّ الأولياء

إنّ من نقاط الخلاف بين الوهّابيّين وسائر المسلمين هي أنّها تدّعي حرمة :

١. الحلف على الله بحقّ الأولياء.

٢. الحلف بغير الله.

وتعتبر ـ أحياناً ـ هذين القَسَمين شركاً بالله في العبادة.

وفيما يلي نضع هذا الموضوع على طاولة البحث والتشريح لاستخراج الحكم الشرعي الصحيح.

الحلف على الله تعالى بحقّ الأولياء

إنّ القرآن الكريم يَصف بعض عباد الله بقوله:

﴿الصّابرِينَ وَالصّادِقينَ وَالْقانِتينَ وَالْمُنْفِقينَ وَالْمُسْتَغْفِرينَ بِالأَسْحارِ﴾ .[1]

فلو أنّ إنساناً قام في جوف الليل وصلّى لربّه ركعات، ثمّ تضرّع إلى الله قائلاً:

«اللّهُمَّ إِنّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ الْمُسْتَغْفِرينَ بِالأَسْحار إِغْفِر لي ذَنْبي».

فكيف يمكن أن نعتبر قوله هذا شركاً في العبادة؟!

---

١. آل عمران:١٧.



إنّ الشرك في العبادة معناه عبادة غير الله، أو اعتبار غيره سبحانه إلهاً أو ربّاً أو مصدراً للأفعال الإلهية.

أمّا في هذا المجال فإنّ المصلّي يتوجّه إلى الله تعالى ولا يطلب شيئاً إلاّ منه سبحانه، فإذا كان هذا العمل حراماً فلابدّ أن يكون له سبب آخر غير الشرك.

نحن هنا نجلب انتباه الوهّابيّين إلى أنّ القرآن الكريم قد ذكر مقياساً ومحكاً للفصل والتمييز بين المشرك ـ في العبادة ـ و بين الموحِّد، وبهذا المقياس سدّ القرآن الطريق أمام كلّ تفسير بالرأي لمعنى المشرك، وهذا المقياس هو قوله تعالى:

﴿وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .(١)

وفي آية أُخرى يصف القرآن المجرمين ـ هم المشركون ـ بقوله:

﴿إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قيلَ لَهُمْ لاإِلـهَ إِلاّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ* وَيَقُولُونَ ءَإِنّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ .(٢)

إذن : إنّ المشرك ـ وفقاً لهاتين الآيتين ـ هو ذاك الذي يشمئزّ قلبه إذا ذُكر الله الواحد الأحد، ويفرح إذا ذكرت الآلهة الباطلة، أو يستكبر عن الاعتراف بوحدانيّة الله سبحانه.

بعد هذا المقياس القرآني نتساءل: هل الّذي يقوم في ظلال الليل ويقضي ساعات في العبادة والمناجاة والدعاء، ويصلّي بين يدي الله بكلّ إخلاص وخضوع، ويقسم على الله بمنزلة أوليائه الصالحين ويسأله بعباده المتّقين...هل أنّ هذا الإنسان يكون مشركاً بعمله هذا؟!

---

١. الزمر:٤٥.

٢. الصافّات:٣٥ـ٣٦.

وكيف تمرّد على ذكر الله واستكبر عن الاعتراف بوحدانيته سبحانه؟!

لماذا ترى المؤلّفين الوهّابيّين يستندون إلى أُسس خيالية وأدلّة أوهن من بيت العنكبوت ويتّهمون المسلمين بالشرك ويعتبرون أنفسهم فقط «شَعبَ الله المختار»؟!!

وكيف يجوز أن يعتبروا تسعة وتسعين بالمائة من أهل القبلة مشركين، ويعتبروا «النجديّين» هم الموحّدون فقط، مع ما سبق من المقياس القرآني؟!

وهل خَوَّل القرآن تفسير «الشِّرك» إلى الوهّابيّين حتّى يُفسّروه كيفما يشاءون، ويعتبروا جماعة مشركين وأُخرى موحّدين؟!!

بل ﴿طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾.

أمير المؤمنين والحلف على الله سبحانه بحقّ الأولياء

إنّنا نلاحظ القَسم على الله في أدعية أوليائه المقرَّبين، فمثلاً: هذا إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ عليه السلام تراه يقول في دعائه بعد صلاة الليل:

«اللّهُمَّ إنّي أسألُكَ بِحُرْمَةِ مَنْ عاذَ بِكَ مِنْكَ، ولجأ إلى عِزِّكَ، واسْتَظَلَّ بِفيئِكَ، واعْتَصَمَ بِحَبْلِكَ وَلَمْ يَثِقْ إلاّ بِكَ ...». [1]

ويقول عليه السلام في دعاء علّمه لأحد أصحابه:

«... وَبِحَقِّ السائِلينَ عَلَيْكَ، والرّاغِبينَ إلَيْكَ وَالْمُتَعَوِّذينَ بِكَ، والمُتَضرِّعينَ إلَيْكَ، وَبِحَقِّ كُلِّ عَبْدٍ مُتَعَبِّدٍ لَكَ في كُلِّ بَرٍّ أو بَحْرٍ أو سَهْلٍ أو جَبَلٍ أدعُوكَ دُعاء مَنِ اشتدَّت فاقَتُهُ ...». [2]

---

١. الصحيفة العلوية: ٣٧٠.

٢. الصحيفة العلوية: ٥١.

فهل لهذه المناجاة المنشِّطة للروح والباعثة على العبادة، وهذا التذلُّل أمام الله... هل لذلك كلّه نتيجة أُخرى سوى ترسيخ وحدانيّة الله وأنّه لا معاذ إلاّ به، وإظهار المحبّة والمودّة لأولياء الله وأحبّائه الّذي هو توجُّهٌ إلى الله في الوقت ذاته؟!!

من هذا المنطق... يجب الكفّ عن توجيه تهمة الكفر والشرك ـ الرائجة في سوق الوهّابيّة أكثر من أيّ شيء ـ و ينبغي دراسة الموضوع من زاوية المنطق والبرهان.

لذلك ترى بعض الوهّابيّين ـ المعتدلين نوعاً ما ـ عالجوا مسألة ـ «القَسَم على الله بحقّ الأولياء» في إطار الحرمة أو الكراهة، بعكس «الصنعاني» ـ الوهّابيّ المتطرّف ـ الذي بحث عن هذه المسألة في نطاق الشرك.

والآن ... وبعد ما تبيّن محور الحديث، يجب دراسة الموضوع في إطار الحرام والمكروه وبيان الدليل الواضح حول صحّة هذا الموضوع وجوازه فنقول:

حقيقة هذا القَسَم في الإسلام وواقعيّته

لقد ورد «القَسَم على الله بحقّ الأولياء» في أحاديث شريفة متواترة، بعضها مرويّة عن رسول الله ﷺ وبعضها عن أئمّة أهل البيت المعصومين عليهم السلام ، وبناءً على هذه الأحاديث لايمكن القول بحرمته ولا بكراهته.

وإليك نماذج من ذلك:

١ . لقد سبقت الإشارة إلى أنّ النبيّ ﷺ علّم ذلك الأعمى الذي جاء يطلب منه أن يردّ الله عليه بصره، علّمه أن يقول:

«اللّهمّ إنّي أسألُكَ وَ أتوجَّهُ إليكَ بِنبيِّكَ مُحمّدٍ نَبيّ الرَّحْمَة».(١)

٢. وروى أبو سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ هذا الدعاء:

«اللّهُمَّ إنّي أسألُكَ بِحَقِّ السّائلينَ عَلَيكَ،وأسألُكَ بِحَقِّ مَمْشايَ هذا...».(٢)

٣. وقد تاب النبيّ آدم عليه السلام إلى الله بقوله:

«أسْألُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إلاّ غَفَرْتَ لي».(٣)

٤. وبعدما دفن النبيّ ﷺ السيّدة فاطمة بنت أسد والدة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام دعا لها بقوله:

«اغْفِرْ لأُمّي فاطِمَةَ بِنْتِ أسَد، ووسِّع عَلَيْها مَدْخَلَها، بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَالأَنْبياء الَّذينَ مِنْ قَبْلي».(٤)

إنّ هذه الأدعية ـ و إن خلت من لفظ القَسم بعينه ـ إلاّ أنّ مضمونها هو ذلك، لوجود «باء» القَسم فيها جميعاً، فعندما يقول: «**اللّهمّ إنّي أسألُكَ بِحَقِّ السائلينَ عَلَيْكَ**».

أي: أُقسم عليك بحقّهم.

٥. يقول سيّد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام في دعاء له:

«اللّهُمّ إنّي أسألكَ بِكَلماتِكَ وَمَعاقِدِ عَرشِكَ وَسُكّانِ سَماواتِكَ وَأرْضِكَ، وَأنبيائِكَ وَرُسُلِكَ، أنْ تَسْتَجيبَ لي فَقَدْ رَهَقَني مِنْ أَمْري عُسْرٌ،

١. سنن ابن ماجة:١/ ٤٤١؛ مستدرك الصحيحين:١/ ٣١٣؛ مسند أحمد:٤/ ١٣٨ وغيرها.

٢. سنن ابن ماجة:١/ ٢٦١، مسند أحمد:٣/ ٢١.

٣. تفسير الدرّ المنثور: ١/ ٥٩؛ مستدرك الحاكم:٢/ ٦١٥؛ روح المعاني: ١/ ٢١٧. وقد مرّت بعض هذه الأحاديث في فصل التوسّل بأولياء الله.

٤. الفصول المهمّة:٣١ لابن الصبّاغ المالكي (المتوفّى سنة ٨٥٥هـ).

فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّي عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّد وَأَنْ تَجْعَلَ مِنْ عُسْري يُسراً» .(١)

وإذا ألقيتَ نظرة على الصحيفة السجّادية المرويّة عن رابع أئمة أهل البيت: الإمام زين العابدين عليه السلام لرأيت القَسَم فيها كثيراً جدّاً، فهو خير دليل على صحّة هذا النوع من التوسّل... وإليك نموذجاً منه:

٦. يقول عليه السلام في دعائه يوم عَرَفة، وهو يُناجي ربَّه الكريم:

«بِحَقِّ مَنِ انْتَخَبْتَ مِنْ خَلْقِكَ، وَبِمَنِ اصْطَفَيْتَهُ لِنَفْسِكَ، بِحَقِّ مَنِ اخْتَرْتَ مِنْ بَرِيَّتِكَ، وَمَنِ اجْتَبَيْتَ لِشَأْنِكَ، بِحَقِّ مَنْ وَصَلْتَ طاعَتَهُ بِطاعَتِكَ، وَمَنْ ينطْتَ(٢) مُعاداتَهُ بِمُعاداتِكَ».(٣)

٧. وعند ما زار الإمام الصادق عليه السلام مرقد جدّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام دعا في ختام الزيارة بقوله:

«اللّهُمَّ اسْتَجِبْ دُعائي وَاقْبَل ثَنائي وَاجْمَعْ بَيْني وَبَيْنَ أَوليائي، بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَعَليٍّ وَفاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالحُسَيْنِ» .(٤)

أيّها القارئ الكريم: لقد ورد هذا النوع من الأدعية ـ المتضمّنة للقَسَم على الله بحقّ أوليائه ـ كثيراً جدّاً عن الأئمّة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام ولا يسع المجال لذكر أكثر ممّا سبق... وكلّ هذه الأدعية تدلّ على جواز القسم على الله بحقّ أوليائه الصالحين.

---

١. بحار الأنوار:٣٦/ ٢٠٥ ح٨.

٢. ينطْت ـ من أناط ينيطه: الوصل والربط.

٣. الصحيفة السجادية: الدعاء ٤٧.

٤. زيارة أمين الله المعروفة.

أدلّة الوهّابيّين على الحرمة

لقد ذكر الوهّابيّون بعض الأدلّة على حرمة القَسَم على الله بحقّ أوليائه، وهي أدلّة واهية ضعيفة، لاتصلح للحُجِّيَّة والاعتبار، والآن نذكرها مع التحليل فيما يلي:

الدليل الأوّل

قالوا: اتّفق علماء الإسلام على أنّ القَسم على الله بالمخلوق ــ أو بحقّ المخلوق ـ حرام.[1]

الجواب

إنّ معنى الإجماع هو اتّفاق علماء الإسلام ــ في عصرٍ واحد، أو في كلّ العصور ـ على حكم من الأحكام الشرعية.

هذا هو الإجماع، وهو حجّة شرعية عند السُّنّة، نظراً لاتّفاق العلماء على ذلك الحكم، وحجّة شرعية عند الشيعة لكونه يكشف عن موافقته لرأي الإمام المعصوم الذي يعيش بين الناس ـ غائباً كان عن أعينهم أم حاضراً ـ.

والآن لنرى: هل قام إجماع العلماء على الحرمة في هذه المسألة أم لا؟ نحن نصرف النظر ـ الآن ـ عن رأي علماء الشيعة وعلماء السُّنّة في هذا المسألة، ونكتفي بذكر فتاوى أئمّة المذاهب الأربعة، ونتساءل: هل أفتى أئمّة المذاهب الأربعة بالحرمة في هذه المسألة؟

وإذا كانوا قد أفتوا بالحرمة، فنرجو أن تذكروا لنا نصّ الفتوى مع اسم الكتاب الّذي جاء فيه ورقم الصفحة الّتي تشتمل عليه.

---

١. كشف الارتياب: ٣٢ نقلاً عن «الهدية السنيّة».

إنّ كتب الفقه والحديث عند علماء السنّة لم تتعرّض إطلاقاً لهذه المسألة، حتّى نعرف نظرتهم الشخصية فيها.

إذن: أين ذلك الإجماع والاتّفاق الذي يدّعيه مؤلّف كتاب «الهدية السّنيّة»؟!

إنّ الشخص الوحيد الّذي نقل المؤلّف التحريم عنه هو« العزّ بن عبد السلام»، فهل انصهرتْ المؤلّفات كلّها في كتاب الهدية السنيّة وانصهر علماء الإسلام كلّهم في «العز بن عبد السلام»؟!!

والجدير بالذكر أنّ المؤلّف يروي في الكتاب نفسه أنّ أبا حنيفة وتلميذه أبا يوسف قد أفتيا بكراهة القَسَم بحقّ المخلوق، لا بحرمته.

ثمّ ما قيمة فتوى إنسان في مقابل الأحاديث الصحيحة المرويّة عن رسول الله وآله الأئمّة الأطهار الذين اتّفق علماء السنّة على أنّهم الثِّقل الأصغر بعد القرآن وأنّ أقوالهم حجّة شرعية؟![1]

بالإضافة إلى أنّ ما ذكره عن أبي حنيفة غير ثابت.

وخلاصة القول: ليس هناك دليل باسم الإجماع في المسألة إطلاقاً.

الدليل الثاني

بعد إبطال الدليل الأوّل للوهّابيّة وبيان عدم صحّته نذكر الدليل الثاني وهو قول أحدهم:

---

١. حديث الثقلين متواتر عن رسول الله ﷺ وقد ذكره أصحاب الصحاح و السنن والمحدّثون والمؤرّخون، ولا ينكره إلاّ جاهل أو معاند، والحديث هو: قال رسول الله ﷺ:«إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، وانّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما».

«إنّ المسألة بحقّ المخلوقين لا تجوز، لأنّه لا حقّ للمخلوق على الخالق».[١]

الجواب

إنّ هذا الاستدلال ليس إلاّ اجتهاداً في مقابل النصّ الصريح، إذ لو لم يكن للمخلوق حقٌّ في ذمّة الخالق سبحانه، فلماذا أقسم النبيّ آدم عليه السلام والنبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم على الله بهذه الحقوق، وسألا من الله الحاجة بسببها كما ورد في الأحاديث السابقة؟!

وبالإضافة إلى ذلك... ماذا يقول هؤلاء بشأن الآيات القرآنية التي تُثبت لعباد الله الصالحين حقوقاً في ذمّته سبحانه، وكذلك الأحاديث الشريفة؟!

إقرأ هذه الآيات:

﴿... وَكانَ حَقّاً عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنينَ﴾.[٢]

﴿... وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوراةِ وَالإنْجيلِ ...﴾.[٣]

﴿... كَذٰلِكَ حَقّاً عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنينَ﴾.[٤]

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ﴾.[٥]

وبالإضافة إلى ما سبق من الآيات الكريمة ... هناك مجموعة كبرىٰ من الأحاديث الشريفة في هذا المجال، وإليك نماذج منها:

١. «حقٌّ على الله عَوْن من نَكَحَ التِماسَ العِفاف مِمّا حَرَّم الله».[٦]

٢. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ: الغازي في سَبيل الله،

---

١. كشف الارتياب: نقلاً عن القدوري.

٢. الروم:٤٧.

٣. التوبة:١١١.

٤. يونس:١٠٣.

٥. النساء:١٧.

٦. الجامع الصغير للسيوطي: ٢/ ٣٣.

والمُكاتَب الّذي يُريدُ الأداء، والناكحُ الّذي يُريد التَّعَفُّفَ».[١]

٣. «أَتَدْري مٰا حَقُّ الْعِبادِ عَلَى اللهِ...».[٢]

نعم... من الواضح أنّه ليس لأحدٍ بذاته حقٌّ على الله تعالى، حتّى لو عبد الله قروناً طويلة، خاشعاً خاضعاً لله، لأنّ كلّ ما للعبد فهو من عند الله تعالى، فلم يبذل العبد شيئاً من نفسه في سبيل الله كي يستحقّ بذاته الثواب.

ونسأل: فما معنى «الحقّ»؟

الجواب: أنّ المقصود من الحقّ ـ في هذه العبارات ـ هو الجزاء والمنزلة الّتي يمنحها الله لعباده مقابل طاعتهم وانقيادهم له سبحانه، فهو مزيدٌ من التفضُّل والعناية منه تعالى، ويدلّ على ألطافه وعظمته.

فهذا «الحقّ» الّذي نُقسِم به على الله، حقٌّ جعله الله، لا أنّ العبد له حقٌّ على الله، وقد أُشير إلى هذا المعنى بالذات في بعض الأحاديث الشريفة.

وهذا مثل القرض الّذي يستقرضه الله من عباده في قوله سبحانه:

﴿مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ... ﴾.[٣]

إنّ هذه التعهدات الإلهية ـ ومَنْح الحقّ لعباده ـ نابعة من ألطاف الله وعنايته الفائقة بعباده الصالحين حيث يعتبر ذاته المقدّسة مديونة لعباده، ويعتبر عباده أصحاب الحقّ، وفي هذا الأمر من الترغيب والتشجيع إلى طاعة الله ما لا يخفى.

---

١. سنن ابن ماجة: ٢/ ٨٤١.

٢. النهاية لابن الأثير: مادّة «حق».

٣. البقرة: ٢٤٥.

الفصل الثامن عشر

الحلف بغير الله تعالى

إنّ الحلف والقَسَم بغير الله تعالى هو من المسائل الحسّاسة عند الوهّابيّين، والتي يُهرِّجون ضدّها في أبواقهم وأقلامهم المنحرفة.

فهذا «الصنعاني» ـ من مؤلّفي الوهّابيّة ـ يعتبر الحلف بغير الله شركاً!![1]

كما يعتبره مؤلّف «الهدية السنية» شركاً صغيراً.[2]

نحن الآن نقوم ـ بحول الله وقوّته ـ بدراسة المسألة ـ دراسة موضوعية بعيدة عن التعصُّب ـ متّخذين من كتاب الله وسنّة رسوله والأئمّة المعصومين عليهم السلام مصباحاً منيراً يضيء لنا الدرب في هذا المجال ـ و كلّ مجال ـ.

الأدلّة على جواز الحِلف بغير الله

الدليل الأوّل

إنّ القرآن الكريم هـو الثقل الأكبر والقائد الأعلى والمثَل الحيّ لكلّ مسلم، وترى فيه الحلف بغير الله في عشرات المواضع منه، بحيث يؤدّي ذكرها بالتفصيل إلى إطالة البحث.

---

١. تطهير الاعتقاد للصنعاني: ١٤.

٢. الهدية السنية: ٢٥.





فمثلاً: أقسم الله تعالى ـ في سورة الشمس وحدها ـ بثمانية أشياء من مخلوقاته وهي: الشمس، ضُحى الشمس، القمر، النهار، الليل، السماء، الأرض، النفس الإنسانية.[١]

كما أقسم سبحانه في سورة «النازعات» بثلاثة أشياء[٢] وأقسم بشيئين في سورة «المرسلات»[٣] وكذلك ورد الحلف بغير الله في سورة «الطارق» و «القلم» و«العصر» و «البلد».

وإليك نماذج من آيات الحلف بغيره سبحانه، من سور أُخرىٰ:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ* وَطُورِ سينينَ* وَهٰذا الْبَلَدِ الأمينِ﴾ .[٤]

﴿وَ الَّيْلِ إِذا يَغْشىٰ* وَالنَّهارِ إِذا تَجَلّىٰ﴾ .[٥]

﴿وَالْفَجْرِ* وَلَيالٍ عَشْرٍ* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ* وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ﴾ .[٦]

﴿وَالطُّورِ* وَكِتابٍ مَسْطُورٍ* في رَقٍّ مَنْشُورٍ* وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ* وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ* وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ .[٧]

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .[٨]

فكيف يجوز الحكم بأنّ الحلف بغير الله شرك وحرام، مع هذه الآيات القرآنية الزاخرة بذلك؟!

فإن قال قائل: إنّ هذا القَسم خاصٌّ بالله سبحانه.

فالجواب كلاّ... إنّ القرآن كتاب هداية للبشر، والناس يتّخذونه قدوة

١. الشمس: ١ـ٧.
٢. النازعات: ١ـ٣.
٣. المرسلات: ١ و٣.
٤. التين: ١ـ٣.
٥. الليل: ١ـ٢.
٦. الفجر: ١ـ٤.
٧. الطور: ١ـ٦.
٨. الحجر: ٧٢.

وأُسوة، فلو كان هذا النوع من الحلف حراماً على عباد الله، لكان المفروض أن يُحذّر منه القرآن ويـذكر بأنّ هذا القَسم هـو من خصائص الله تعالى، وعـدم ذكر ذلك دليلٌ على عدم اختصاصه به سبحانه.

وقد قـال بعض من لا ذوق له ـ ممّن يجهـل أهداف القرآن ـ بـأنّه يمكن أن يكون ما يصدر من الله جميلاً، وصدور نفس ذلك الشيء من غيره قبيحاً؟!

والجواب على هذا واضح، لأنّ الحلـف بغير الله لو كان شركـاً وتشبيهاً لغير الله بالله.

فلماذا صدر هذا الشِّرك ـ الصغير أو المطلق ـ من الله تعالى؟!

أيصـحّ أن يجعل الله لنفسـه شريكـاً، ويمنـع غيره من ارتكـاب مثـل هـذا الشِّرك؟!

الدليل الثاني

لقد حلف النبيﷺ بغير الله في موارد عديدة منها:

١. روى مسلم في صحيحه:

«جاءَ رَجُلٌ إلَى النَّبِيِّ فَقالَ: يٰا رَسُولَ الله أيُّ الصَّدَقَة أعظَمُ أَجْراً؟ فقال: أما ـ و أبيك ـ لتُنَبَّئَنَّهُ أن تَصَدَّقَ وَأَنْـتَ صَحيحٌ شَحيحٌ، تَخْشَـى الْفَقْرَ وَتَـأمَلَ الْبَقاء».(١)

٢. وروى مسلم أيضاً:

«جـاءَ رَجُـلٌ إلى رَسُـولِ الله ــ مِـنْ نَجْـدِ ـــ يَسْأَلُ عَـنِ الإسـلام، فَقـالَ رَسُولُ اللهﷺ: خَمسُ صَلَوات فِي الْيَوم وَاللَّيلِ.

---

١. صحيح مسلم:٣/ ٩٤، كتاب الزكاة، باب أفضل الصدقة.

فقال: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟

قال: لا...إلاّ أن تطوَّعَ، وصيامُ شَهْرِ رَمَضان.

فَقالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟

قالَ: لا... إلاّ أنْ تَطَوَّعَ، وذكَرَ له رَسُول الله الزَّكاة.

فقال الرَجُلُ: هَلْ عليَّ غيره؟

قال: لا... إلاّ أنْ تَطوَّع.

فَأدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَالله لا أزيدُ عَلىٰ هذا ولا أَنْقُصُ مِنْهُ.

فَقالَ رَسُولُ الله: أفْلَحَ ـ وأبيه ـ [1] إن صدَقَ.[2]

ـ أو قال ـ: دَخَلَ الجَنَّةَ ـ وأبيه ـ إنْ صَدَقَ.[3]

٣. وجاء هذا الحديث في مسند أحمد بن حنبل، وفي نهايته أنّ النبيّ قال له: «...فَلَعَمْري لَئنْ تَكَلَّم[4] بمعرُوفٍ وَتنهىٰ عن مُنكر، خيرٌ من أنْ تَسكُتَ».[5]

وهناك أحاديث أُخرى، لا يسع هذا الكتاب ذكرها.[6]

وقد أقسم الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الّذي يُعتبر النموذج البارز للتربية الإسلامية والقِيَم العالية أقسم بنفسه الشريفة أكثر من مرّة في

١. أي: قَسَماً بأبيه: فالواو واو القَسم.

٢. صحيح مسلم:١/ ٣٢، باب ما هو الإسلام.

٣. صحيح مسلم:١/ ٣٢، باب ما هو السلام.

٤. أي تتكلّم ـ للمخاطب ـ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصدّىٰ﴾ أي تتصدّىٰ.

٥. مسند أحمد:٥/ ٢٢٥.

٦. للتفصيل راجع مسند أحمد:٥/ ٢١٢؛ سنن ابن ماجة:٤/ ٩٩٥ و١/ ٢٥٥.

خُطبه ورسائله وكلماته[١] وكذلك أقسم أبو بكر بن أبي قحافة بأبي الشخص الذي كان يتكلّم معه.[٢]

المذاهب الأربعة والحلف بغير الله

قبل أن نتناول أدلّة الوهّابيّة على حرمة الحلف بغير الله، من الأفضل أن نسجّل فتاوى أئمّة المذاهب الأربعة حول هذه المسألة.[٣]

أمّا الحنفيّة فيقولون بأنّ الحلف ـ بالأب والحياة ـ كقول الرجل ـ وأبيك، أو: وحياتك ـ و ما شابه مكروه.

وأمّا الشافعيّة فيقولون بأنّ الحلف بغير الله ـ لو لم يكن باعتقاد الشرك ـ فهو مكروه.

وأمّا المالكيّة فيقولون: إنّ في القَسم بالعظماء والمقدّسات ـ كالنبيّ والكعبة ـ فيه قولان: الحرمة والكراهة، والمشهور بينهم هو الحرمة.

وأمّا الحنابلة فيقولون بأنّ الحلف بغير الله وبصفاته سبحانه حرام، حتّى لو كان حلفاً بالنبيّ أو بأحد أولياء الله تعالى.

هذه فتاوى أئمّة المذاهب الأربعة، ولسنا الآن في مقام المناقشة مع القائلين منهم بالحرمة، وأنّ فتاواهم من الاجتهاد في مقابل النصوص القرآنية وسنّة النبيّ ﷺ وسيرة أولياء الله سبحانه، وأنّ علماء هذه المذاهب سدُّوا باب الاجتهاد على أنفسهم، فصاروا مجبورين على الأخذ بآراء أئمّة المذاهب الأربعة فقط.

---

١. راجع نهج البلاغة ـ تعليق محمّد عبده ـ: خطبة رقم ٢٣، ٢٥، ٥٦، ٨٥، ١٦١، ١٦٨، ١٨٢، ١٨٧، والرسالة رقم ٦، ٩، ٥٤.

٢. كتاب الموطّأ: لمالك بن أنس ـ إمام المالكيّة ـ المطبوع مع شرح الزرقاني، ج ٤، ص ١٥٩.

٣. للتفصيل راجع كتاب الفقه على المذاهب الأربعة: ١/ ٧٥، طبعة مصر.

ولسنا واثقين ممّـا نُسب إليهم في هـذه المسألة، لأنّ القسطـلاني ذكر [١] عن مالك بن أنس أنّه كان يقول بكراهة الحلف بغير الله.

ونسبة الحرمة إلى الحنابلـة غير ثابت أيضاً، لأنّ ابن قدامة يـذكر ـ في كتاب المغني الّذي كتبه في فقه الحنابلة ـ أنّ أحمد بن حنبل أفتى بجواز الحلف بالنبيّ ﷺ وأنّه ينعقد، لأنّه أحد رُكني الشهادة، فإن حنث لزمته الكفّارة.[٢]

مع كلّ ما سبق من الأقوال... لا يمكن التأكّد ـ إطلاقاً ـ من أنّ أحد أئمّة المذاهب الأربعة قد أفتى بحرمة الحلف بغير الله تعالى.

أيّها القارئ الكريم: بعد الاطّلاع على فتـاوى أئمّة المذاهب الأربعة، ننتقل إلى ذكر حديثين تمسّك بهما الـوهّابيّون في حرمة الحلف بغير الله، وأراقـوا من أجل ذلك دماء الأبرياء[٣] واستهدفوا ملايين المسلمين بسهام التكفير السامّة:

الحديث الأوّل

«إنّ رسول الله ﷺ سمع عُمَـر وَهُو يَقُول، وأبي، فقـال: إنّ الله يَنْهاكُمْ أنْ تَحْلِفُوا بآبائِكُمْ، وَمَنْ كانَ حالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أوْ يَسْكُتْ».[٤]

عام ١٢٥٩هـ ولم يرحموا صغيراً ولا كبيراً، حتّى أنّهم قتلوا ستة آلاف مسلم خلال ثلاثة أيّام فقط، ونهبوا كـلّ ما كان في الحرم الحسينـيّ الشريف من نفـائس قيّمة، اقتداء بما فعلـه جيش يزيـد بن معاوية عند الهجوم على مدينة رسول الله ﷺ ولكن لماذا؟! لماذا هذه الحمـلات الحاقدة؟! السبب هو أنّ هؤلاء المسلمين كانوا يُقسمون على الله بأبناء رسول الله ويحملون المحبّة والمودّة تجاههم.

٤. سنن ابن ماجة: ١/ ٢٧٧؛ سنن الترمذي: ٤/ ١٠٩ وغيرهما.

١. سنن النسائي: ٧/ ٧؛ سنن ابن ماجة: ١/ ٢٧٨، والطواغيت: هي الأصنام.

٢. سنن النسائي: ٧/ ٩.

١. سنن النسائي: ٧/ ٨.

الجواب

أوّلاً: لعلّ النهـي عن الحلـف بالآبـاء قد جاء لأنّهم ـ في الغالـب ـ كـانوا مشركين وعَبَدة للأصنام، ولهذا فلا حُرمة ولا كرامة لهم حتّى يحلف أحدٌ بهم.

وقد جاء في الحديث عن النبيّ ﷺ:

«لا تَحْلِفُوا بآبائِكُمْ وَلا بِالطَّواغيت» .(١)

وروي أيضاً:

«لا تَحْلِفُوا بِآبائِكُمْ وَلا بأُمّهاتِكُمْ وَلا بالأَنْدادِ» .(٢)

فاقتران الطواغيـت، و «الأنداد» بالآباء لـدليل واضح على أنّ الآباء كـانوا عبدتها.

ثانياً: إنّ المقصـود من النهـي عن الحلـف بـالأب هو ذلـك الحلف الّـذي يُفصل به في القضاء والخُصومات وحسم الخلافات، لأنّ علماء الإسلام اتّفقوا على أنّ اليمين الّتي تحسم الخلاف والنزاع هو الحلف بالله سبحـانه وبصفاته فقط، أمّا سوى ذلك فلا.

مع وجود هذه القرائن الواضحة... كيف يمكن أن يقال بأنّ النبيّ ﷺ نهى عن الحلف بالمقـدّسات ـ كالكعبة والقرآن وأولياء الله تعالى ـ مع العلم أنّ النهيّ خاصّ بمورد معيّن، وأنّ النبيّ بنفسه كان يحلف بغير الله؟

الحديث الثاني

«جاءَ ابن عُمَر رَجلٌ فقال: أحلِف بالكعبة؟ قال له: لا، ولكن إحلف بربّ

١. سنن النسائي:٧/ ٨.

١. مسند أحمد:٢/ ٣٤.



الكَعبـة ، فإنّ عمر كـان يَحلف بـأبيه فقـال رسول الله: لا تَحلِـف بأبيك فـإنّ من حَلف بغير الله فقد أشرك». (١)

الجواب الأوّل

إنّ هذا الحديث يتألّف من ثلاثة أُمور:

١ . إنّ رجلاً جـاء إلى ابن عمر فقال: أحلف بـالكعبة؟ فأجابه بقـوله: لا، ولكن إحلف بربّ الكعبة.

٢ . إنّ عمر بن الخطّاب كان يحلف بأبيه، فنهاه النبيّ ﷺ عن ذلك.

٣ . إنّ رسول الله ﷺ علّل ذلك بقوله: «مَن حلف بغير الله فقد أشرك».

والقدر المتيقّن من كـلام الرسول ما إذا كان المحلوف بـه شيئاً غير مقدّس كالكافـر والصنم بشهادة انّ النبي ذكر ذلـك عندما حلف عمر بـأبيه الخطاب الكافر، ولا يمكـن انتزاع ضابطة كلية تعمّ الحلف بالكافـر والمؤمن. ولكن ابن عمر اجتهـد بأنّ قول النبيّ «مَن حلف بغير الله فقـد أشرك» الّذي ورد في الحلف بـالمشرك ـ و هـو الخطّـاب الذي هـو والد عمـر ـ اجتهد بـأنّه يشمـل الحلف بالمقـدّسات أيضـاً كالكعبـة، مع العلم بأنّ كـلام النبي ﷺ قـد ورد في الحلف بالمشرك.

وحصيلة الكلام: أنّ النبيّ إنّما أعطى هـذه القاعدة عندما أعطاهـا خاصّاً بما إذا كان المحلـوف به أمراً غير مقدّس ولكـن ابن عمر اجتهد وجعلـه أعمّ منه ومن غيره، واجتهاده حجّة على نفسه لا على غيره.

وقد أوضحنا سابقاً بأنّ النبيّ ﷺ كان يحلف بغير الله سبحانه كثيراً فيجب

١ . سنن النسائي: ٧/ ٨.

أن نُفَسِّر قوله: «مَنْ حَلف بغير الله فقد أشركَ» على الحلف با لمشرك وأمثاله، لا على الحلف با لمقدّسات كالقرآن والكعبة والنبيّ، بدليل أنّ النبيّ إنّما أعطى هذه القاعدة عند حلف عمر بأبيه المشرك.

فتطبيق هذا الحديث على الأعمّ من المشرك وغيره اجتهادٌ من ابن عمر، واجتهاده حجّة لنفسه فقط لا لغيره.

وتسأل: لماذا اعتبر رسول الله ﷺ الحلف با لمشرك شركاً؟

والجواب: لأنّ الحلف به نوع من الإشادة بشخصيّته والتعظيم له والتصديق لدينه الباطل وعقيدته المنحرفة.

والخلاصة: أنّنا نصدّق أصل الحديث، ولا نصدّق اجتهاد ابن عمر، نظراً لمخالفته لسُنّة رسول الله ﷺ وسيرة الصحابة، فالقاعدة المذكورة في حديث النبيّ الكريم مختصّة بما حلف به عمر، ولا تعمّ المقدّسات الإسلامية أبداً.

وأمّا الحلف بالكعبة والقرآن والأنبياء والأولياء ـــ في غير القضاء والخصومات فهو خارج عن تلك القاعدة العامّة، وليس شركاً ولا حراماً.

الجواب الثاني

وهنا جواب آخر أوضح من الجواب الأوّل، وهو أنّ قول النبيّ ﷺ: «من حلفَ بغير الله فقد أشرَكَ» يشير إلى حلفٍ خاصّ وهو الحلف بالأصنام ـ كاللّات والعُزّىٰ ـ فقط ولا يعمّ الإنسان المشرك فضلاً عن المقدّسات.

ويؤيّد هذا الجواب ما رواه النسائي في سُنَنه: إنّ النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ حَلَفَ فَقالَ في حلفِهِ: باللاّت والعُزّى فليَقُل: لاإلهَ إلاّ الله».[1]

---

١. سنن النسائي: ٧/ ٨.

وما رواه ـ في نفس المصدر ـ إنّ النبيّ ﷺ قال:

«لا تَحْلِفُوا بآبائِكُمْ ولا بِأُمّهاتِكُمْ وَلا بالأنْدادِ».

إنّ الحديث الأوّل يدلّ على أنّ رواسب الجاهلية كانت باقية في بعض النفوس، فكانوا يحلفون بأصنامهم المعبودة من دون الله، فأمرهم النبيّ ﷺ بقول: «لاإلهَ إلاّالله» من أجل القضاء على تلك الرواسب الجاهلية.

ويُستفاد ممّا رواه إمام الحنابلة أنّ قوله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ» كان حديثاً مستقلاً، فجاء ابن عمر وأدخل اجتهاده الشخصي ـ في عموم الحلف بالأب وبالمقدّسات ـ في سياق الحديث، ولم يكن الحلف بالآباء ولا المقدّسات داخلاً فيه، وإن أدخلهما فيه ابن عمر.

الحديث الّذي رواه إمام الحنابلة هو هذا:

«عن ابن عمر: كان يحلف أبي، فنهاه النبيّ، قال: من حلفَ بشيء دون الله فقد أشرك».(١)

فإنّك ترى حديث النبيّ ﷺ مستقلاً عن مقالة ابن عمر، ولم يأت بـ«واو» العاطفة أو «فاء» التفريع، بل قال «فنهاه النبيّ، قال:...» ممّا يدلّ على أنّ الحديث صدر في وقت آخر، بصورة مستقلّة.

أيّها القارئ الكريم: لقد تلخّص من كلّ ما سبق:

١. إنّ الحلف بغير الله لا مانع منه شرعاً، وقد صدر ذلك من الله تعالى في القرآن الكريم ومن رسول الله ﷺ والإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام والمسلمين.

٢. إنّ الحلف بغير الله لا يصحّ ـ و لا نقول: لا يجوز ـ في القضاء والخصومات، بل لابدّ من الحلف بالله جلّ جلاله أو بإحدى صفاته، وقد ثبت

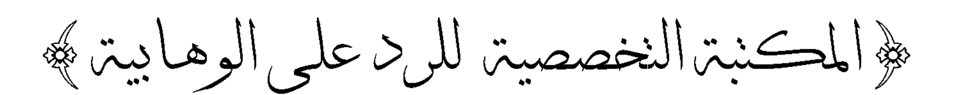
---

١. مسند أحمد:٢/ ٣٤.

هذا بالدليل الخاصّ ولا علاقة له بهذا البحث.

٣. إنّ الحديثين اللّذين استدلّ بهما الوهّابيّون ـ على حرمة الحلف بغير الله ـ لا علاقة لهما بما نحن فيه من الحلف بالمقدّسات الإسلامية ـ كالقرآن والكعبة والأنبياء والأئمّة والأولياء ـ بل هي خاصّة بالحلف بالأُمور غير المقدّسة كالآباء المشركين والأصنام المعبودة في الجاهلية.

وهكذا يتعرّى الوهّابيّون من الأقنعة «الإسلامية!!» المزيَّفة الّتي يُلبسون بها آراءهم الشاذّة وأفكارهم الباطلة، والحمد لله ربّ العالمين.


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الفصل التاسع عشر

الاستغاثة بأولياء الله تعالى

هل يجوز نداء أولياء الله والاستغاثة بهم في الشدائد والمكاره؟

هذه المسألة من المسائل التي وقع الاختلاف فيها بين الوهّابيّين وغيرهم. فالسُنَّة الإسلامية قائمة بين المسلمين على الاستغاثة بالأنبياء وأولياء الله، وندائهم بأسمائهم عند الشدائد والمصاعب والأخطار المحتملة، سواء كانت الاستغاثة عند قبورهم الشريفة أو في مكان آخر. ولا يرى المسلمون بأساً في هذه الاستغاثة، ولا شركاً ولا مخالفة للدين، في حين يتعصّب الوهّابيّون ضدّ هذه الظاهرة الإسلامية تعصُّباً شديداً، ويتذرّعون ببعض الآيات القرآنية ـ التي لا علاقة لها بالمسألة أبداً ـ لتلبيس باطلهم بالحق، كقوله تعالى:

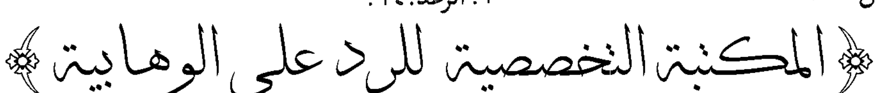
﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾.(١)

ولكي تطّلع ـ أيّها القارئ الكريم ـ على الآيات القرآنية التي يستدلّ بها الوهّابيّون على رأيهم الشاذ، نتناول تلك الآيات بالبحث والتشريح ـ إن شاء الله تعالى ـ كي تعرف تفسيرها الصحيح، وبذلك نردّ عليهم من نفس القرآن الكريم الذي زعموا أنّهم يستدلّون به، قبل كلّ شيء، نذكر بعض تلك الآيات:

﴿لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ...﴾.(٢)

---

١. الجن:١٨. ٢. الرعد:١٤.



﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ .(١)

﴿... وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مٰا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ .(٢)

﴿إِنَّ الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ ...﴾ .(٣)

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ .(٤)

﴿أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلىٰ رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ ...﴾ .(٥)

﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مٰا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ...﴾ .(٦)

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ ...﴾ .(٧)

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ ...﴾ .(٨)

بهذه الآيات يستدلّ الوهّابيّون على حرمة الاستغاثة بأولياء الله ودعائهم وندائهم بعد وفاتهم، وأنّ ذلك عبادة لهم وشرك بالله، فإذا قال رجل ــ عند قبر رسول الله ﷺ أو في مكان آخر ـ : «يا محمّد» فقد عبده بهذا النداء والدعاء!!!

يقول الصنعاني ـ الوهّابيّ ـ :

«وقد سمّى الله الدعاء عبادة بقوله: ﴿ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتي﴾ ومن هتف باسم نبي أو صالح بشيء، أو قال «إشفع لي إلى الله في حاجتي» أو «أستشفع بك إلى الله في حاجتي» أو نحو ذلك، أو قال:

١. الأعراف:١٩٧.
٢. فاطر:١٣.
٣. الأعراف:١٩٤.
٤. الإسراء:٥٦.
٥. الإسراء:٥٧.
٦. يونس:١٠٦.
٧. فاطر:١٤.
٨. الأحقاف:٥.

«إقض دَيني» أو «إشف مريضي» أو نحو ذلك فقد دعا النبيّ والصالح، والدعاء عبادة بل مخُها، فيكون قد عبد غير الله وصار مشركاً، إذ لا يتمّ التوحيد إلاّ بتوحيده تعالى في الإلهيّة[١] باعتقاد أن لا خالق ولا رازق غيره، وفي العبادة بعدم عبادة غيره ولو ببعض العبادات، وعُبّاد الأصنام إنّما أشركوا لعدم توحيد الله في العبادة».[٢]

الجواب

ممّا لا شكّ فيه أنّ لفظ «الدعاء» ـ في اللغة العربية ـ معناه: النداء، وقد يُستعمل في معنى العبادة، إلاّ أنّه لايمكن ـ بأيّ وجه ـ أن نعتبر الدعاء والعبادة لفظين مترادفين في المعنىٰ، فلا يمكن أن نقول: كلّ دعاء عبادة، وذلك للأُمور التالية:

الأوّل: لقد استعمل القرآن المجيد لفظ «الدعاء» في مواضع عديدة، ولا يمكن القول بأنّ مقصوده منه: العبادة، فمثلاً... يقول تعالى:

﴿قالَ رَبِّ إِنّي دَعَوْتُ قَوْمي لَيْلاً وَنَهاراً﴾.[٣]

فهل يصحّ أن يُقال: إنّ النبيّ نوحاً عليه السلام قصد من كلامه هذا أنّه عبد قومه ليلاً ونهاراً؟!

واقرأ قوله تعالى ـ عن لسان إبليس في خطابه للمذنبين يوم القيامة ـ:

﴿... وَما كانَ لي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لي﴾.[٤]

هل هناك من يحتمل أنّ معنى دعاء الشيطان للمذنبين هو عبادته لهم؟! مع العلم أنّ العبادة ـ إذا تحقّقت ـ تكون من المذنبين للشيطان لا من الشيطان لهم.

---

١. لقد استعمل الصنعاني كلمة «الإلهيّة» بدل «الربوبيّة» على خلاف عادة الوهّابيّين.

٢. كشف الارتياب: ٢٧٣ـ ٢٧٤ نقلاً عن تنزيه الاعتقاد للصنعاني.

٣. نوح: ٥.

٤. إبراهيم: ٢٢.

في هاتين الآيتين ــ وآيات أُخرى مماثلـة نغضّ النظر عن ذكرهاــ جاء لفظ «الدعوة» في غير معنى العبادة، ولهذا لا يمكن القـول بأنّ الدعاء والعبادة لفظان مُترادفان، وأنّ مـن دعا أحد الأنبيـاء أو الأولياء فقـد عبَده وأشرك بـالله، كلاّ، لأنّ الدعوة ـ و الدعاء ـ أعمّ من العبادة وغيرها.(١)

الثاني: إنّ معنى «الـدعاء» ـ في الآيـات التي استـدلّ بها الوهّابيّـون ، ليس مطلق النـداء، بل معنـاه النداء على وجـه يكون مـرادفـاً للعبادة، لأنّ جميع هـذه الآيات إنّما نزلت في شأن عَبَدة الأصنام الـذين كانوا يعتقدون بأنّها آلهة صغيرة قد فُوِّض إليها بعض شؤون الكون، ولها الاستقلال في التصرُّف، فمن الواضح أنّ كلّ دعـاء ونداء لهذه الأصنـام ـ سـواء كانت آلهة كبيرة أو صغيرة ــ مع الاعتقـاد بأنّها مالكة الشفاعة والمغفرة، يُعتبر شركاً وعبادة لها.

وأوضح دليل على أنّ عبدة الأصنام كانوا يدعون أصنامهم باعتقاد إلوهيّتها هو قوله تعالى:

﴿ ... فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيءٍ ... ﴾.(٢)

إذن: لا علاقة بين الآيات المذكورة وهذه المسألة إطلاقاً، لأنّ البحث حول استغاثة إنسان بـإنسان آخر من دون الاعتقاد بربوبيّتـه وإلوهيته ولا بمالكيّته ولا باستقلاله في التصرّف في أُمور الكون والدنيا والآخـرة، بل باعتبار أنّه عبدٌ صالح ووجيهٌ عند الله، قد اصطفـاه الله للنبوّة أو للإمامة، ووعد باستجـابة دعائه في حقّ

١. وعلى اصطلاح أهل المنطق، بين الدعاء والعبادة عموم وخصوص من وجه، فالاستغاثة بأولياء الله ـ مع الاعتقاد بقدرتهم المستمدَّة من قدرة الله ـ دعاء لا عبادة، وبعض الفرائض الدينية كالركوع والسجود ـ المقـرونين بإلوهيّة من تـركع وتسجد له ـ عبـادة لا دعاء، والصلاة ـ مثـلاً ـ دعاء و عبادة.

٢. هود:١٠١.

من يدعو له، كما قال تعالى:

﴿... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحِيماً﴾ .(١)

الثالث: إنّ في الآيات ـ التي استدلّ بها الوهّابيّون ـ دليلاً على أنّ المقصود من «الدعاء» هو العبادة لا مطلقاً.

تأمّل قوله تعالى:

﴿وَقالَ رَبُّكُمْ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّم داخِرينَ﴾ .(٢)

لقد ذكر سبحانه لفظ «ادْعُوني» ثمّ أتبعها بلفظ «عبادَتي» ممّا يدلّ ـ دلالة واضحة ـ على أنّ المقصود من «ادْعُوني» ـ هنا ـ: عبادة الله وترك عبادة غيره. ولهذا كان المشركون «يَسْتَكبِرُونَ» عن دعائه وعبادته سبحانه.

يقول حفيد رسول الله الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء له:

«...فَسَمَّيتَ دُعاءَكَ عِبادةً، وتَرْكَهُ استِكْباراً، وتوعَّدتَ عَلىٰ تَركِهِ دُخُول جَهَنَّمَ داخِرينَ».(٣)

وقد جاءت في القرآن الكريم آيتان بمعنى واحد، استعمل في إحداها لفظ «العبادة» و في الثانية لفظ «الدعوة».

فالأُولى قوله سبحانه:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً ...﴾ .(٤)

والثانية هي قوله سبحانه:

---

١. النساء:٦٤.

٢. غافر:٦٠.

٣. الصحيفة السجّادية: دعاء رقم ٤٥.

٤. المائدة:٧٦.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مٰا لا يَنْفَعُنا وَلاٰ يَضُرُّنا ... ﴾.(١)

ويقول سبحانه:

﴿... وَالَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مٰا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْميرٍ﴾.(٢)

في هذه الآيةجاء بلفظ «تَدْعُونَ» وفيها دلالة واضحة على أنّ هذه الدعوة هي دعوة الأصنام، وكان المشركون يعتقدون بأنّها آلهة «مِنْ دُونِهِ» تضرُّ وتنفع، ولهذا ردّ الله عليهم بقوله: ﴿مٰا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمير﴾.

وجاء هذا المعنى في آية مماثلة بلفظ «تَعْبُدونَ» وهي قوله سبحانه:

﴿... إِنَّ الَّذينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاٰ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ... ﴾.(٣)

وفي آية أُخرىٰ جاءت الكلمتان مُتقارنتين بمعنى واحد، وهي قوله عزّوجلّ:

﴿قُلْ إِنّي نُهيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ... ﴾.(٤)

أيّها القارئ الكريم: أرجو منك أن تقوم بمراجعة «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» مادّة: «عَبَدَ» و«دعا» كي ترى بعينك كيف جاء لفظ «العبادة» ـ في آية ـ و «الدعوة والدعاء» ـ في آية أُخرى ـ بمعنى واحد و مضمون واحد، ممّا يدلّ ـ أوضح دلالة ـ على أنّ المقصود من الدعوة والدعاء ـ في هذه الآيات ـ هي العبادة، لا مطلق النداء والدعاء.

فإذا تأمّلتَ الآيات الّتي تضمّنت لفظ «الدعاء والدعوة» بمعنى العبادة، لرأيت أنّ تلك الآيات تتحدّث عن الصراع بين الإيمان والكفر، بين عبادة الله

١. الأنعام:٧١. ٢. فاطر:١٣.
٣. العنكبوت:١٧.
٤. الأنعام:٥٦،وبهذا المضمون في سورة غافر:آية ٦٦.

وتوحيده والإيمان بإلوهيّته وربوبيّته وبين عبادة الطاغوت والأنداد و الأصنام والاعتقاد بمالكيّتها للرزق والمغفرة والشفاعة والنفع والضرّ.

فاستدلال الوهّابيّين بهذه الآيات ـ على حرمة نداء الأنبياء والأولياء والاستغاثة بهم ـ يدعو إلى الاستغراب والتعجّب، نظراً لعدم علاقتها بهذه المسألة إطلاقاً.

وخلاصة ما ثبت ــ من خلال هذا البحث ــ: إنّ قولك «ياعلي» مخاطباً خليفة رسول الله ــ أو «يا حسين» أو «يا زهراء» أو غير ذلك من أسماء أولياء الله الطاهرين لا إشكال فيه أبداً، بل هو نوع من الاستغاثة بهم ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ فلو جازت الاستغاثة في حياتهم لجازت بعد رحيلهم ولا يتصور، أن يكون عمل واحد نفس التوحيد في حال الحياة وعين الشرك بعد الممات، وقد تقدّم منّا انّ الحياة والموت رمز الحدوث وعدمه، لا التوحيد والشرك، وعلى كلّ تقدير فالاستغاثة بعباد الله المخلَصين بغية دعائهم لرفع المحن والكرب محبوب مرغوبٌ فيه، ويعود على الإنسان بالخلاص من الأزمات والفَرَج من الشدائد والنجاة من المهالك.

الفصل العشرون

في البكاء على الميت قبل الدفن وبعده

لا عتب على العين والقلب عندما يقف المرء على قبر نبيّه والأئمّة من أهل بيته ــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ــ وخيار صحابته ــ رضوان الله تعالى عليهم ــ أن تذرف الدموع ويحزن، تعبيراً عمّا يكنّ في النفس من المودّة والولاء والمحبّة والتعاطف والشوق والحنين، فإنّ هذا أمر تقتضيه الفطرة الإنسانية ولا يأباه التشريع الإلهي.

أمّا الفطرة: فالحزن والتأثّر مقتضى العاطفة الإنسانية إذا ابتلي المرء بمصاب عزيز من أعزّائه أو فلذة من أفلاذ كبده وأرحامه، ومن عُدِم هذا الشعور عنده عُدَّ شاذّاً عن الفطرة الإنسانية، ولا أرى أحداً فوق أديم الأرض ينكر هذه الحقيقة إنكار جدٍّ وموضوعية.

وأمّا التشريع: فيكفي في ذلك بكاء النبيّ الأقدس ﷺ والصحابة والتابعين لهم بإحسان على موتاهم.

فهذا رسول الله ﷺ يبكي على ولده العزيز «إبراهيم» و يقول: «العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلاّ ما يرضي ربّنا، و إنّا بك يا إبراهيم لمحزونون».[1]

---

١. سنن أبي داود: ٣/ ٥٨؛ سنن ابن ماجة: ١/ ٤٨٢.

روى أصحاب السِّير والتاريخ أنّه لمّا احتضر إبراهيم ابن النبيّ جاء ﷺ فوجده في حجر أُمّه،فأخذه ووضعه في حجره وقال: «يا إبراهيم إنّا لن نغني عنك من الله شيئاً ــ ثمّ ذرفت عيناه وقال:ــ إنّا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الربّ،ولولا أنّه أمرٌ حقٌّ ووعدٌ صدقٌ وأنّها سبيل مأتية لحزنا عليك حزناً شديداً أشدّ من هذا».

ولمّا قال له عبد الرحمن بن عوف: أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ أجاب بقوله: «لا، ولكن نهيتُ عن صوتين أحمقين وآخرين....: صوت عند مصيبة وخمش وجوه و شقّ جيوب ورنّة شيطان، وصوت عن نغمة لهو؛ وهذه رحمة، ومن لا يَرحم لا يُرحَم».(١)

وليس هذا أوّل وآخر بكاء منه ﷺ عند ابتلائه بمصاب أعزّائه، بل كان ﷺ يبكي على ابنه «طاهر» و يقول:«إنّ العين تذرف و إنّ الدمع يغلب والقلب يحزن ولا نعصي الله عزّ وجلّ».(٢)

وقد قام العلاّمة الأميني في موسوعته الكبيرة «الغدير» بجمع موارد كثيرة بكى فيها النبيّ ﷺ والصحابة والتابعون على موتاهم وأعزائهم عند افتقادهم،و إليك نصّ ما جاء به ذلك المتتبع الخبير:

وهذا هو ﷺ لمّا أُصيب حمزة ـ رضي الله عنه ـ و جاءت صفيّة بنت عبد المطلّب ـ رضي الله عنها ــ تطلبه فحال بينها و بينه الأنصار فقال ﷺ : دعوها ، فجلست عنده فجعلت إذا بكت بكى رسول الله ﷺ و إذا نشجت نَشَجَ وكانت فاطمة عليها السلام تبكي ورسول الله ﷺ كلّما بكت يبكي وقال : لن أُصاب

١. السيرة الحلبية:٣/ ٣٤٨.

٢. مجمع الزوائد للهيثمي:٣/ ٨.

بمثلك أبداً.(١)

ولمّا رجع رسول الله ﷺ من أُحد بكت نساء الأنصار على شهدائهم فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال: «لكن حمزة لا بواكي له» فرجع الأنصار فقالوا لنسائهم: لا تبكين أحداً حتّى تبدأن بحمزة، قال: فذاك فيهم إلى اليوم لا يبكين ميّتاً إلاّ بدأن بحمزة.(٢)

وهذا هو ﷺ ينعى جعفراً وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وعيناه تذرفان.(٣)

وهذا هو ﷺ زار قبر أُمّه وبكى عليها وأبكى من حوله.(٤)

وهذا هو ﷺ يقبّل عثمان بن مظعون وهو ميّت و دموعه تسيل على خدّه.(٥)

وهذا هو ﷺ يبكي على ابن لبعض بناته فقال له عبادة بن الصامت: ما هذا يا رسول الله؟ قال: الرحمة التي جعلها الله في بني آدم وإنّما يرحم الله من عباده الرحماء.(٦)

وهذه الصدّيقة الطاهرة تبكي على رسول الله ﷺ وتقول: يا أبتاه من ربّه ما أدناه، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه إلى جبرئيل ننعاه، يا أبتاه جنّة الفردوس مأواه.(٧)

١. إمتاع المقريزي: ١٥٤.
٢. مجمع الزوائد: ٦/ ١٢٠.
٣. صحيح البخاري: ٤/ ٣٤، كتاب المناقب، باب في علامات النبوّة في الإسلام؛ سنن البيهقي: ٤/ ٧٠.
٤. سنن البيهقي: ٤/ ٧٠؛ تاريخ الخطيب البغدادي: ٧/ ٢٨٩.
٥. سنن أبي داود: ٢/ ٦٣؛ سنن ابن ماجة: ١/ ٤٤٥.
٦. سنن أبي داود: ٢/ ٥٨؛ سنن ابن ماجة: ١/ ٤٨١.
٧. صحيح البخاري: باب مرض النبي ووفاته؛ سنن أبي داود: ٢/ ١٩٧؛ سنن النسائي: ٤/ ١٣؛ مستدرك الحاكم: ٣/ ١٦٣؛ تاريخ الخطيب: ٦/ ٢٦٢.

وهذه هي ـ سلام الله عليها ـ و قفت على قبر أبيهـا الطاهر وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت تقول:

مـاذا على مَـن شـمّ تـربـة أحمد أن لا يشمَّ مـدى الـزمـان غـواليـا
صُبّـت عليَّ مصـائب لـو أنّها صُبّـت على الأيّـام صِرن ليـاليـا[1]

وهذا أبو بكر بن أبي قحافة يبكي على رسول الله ﷺ ويرثيه بقوله:

يا عين فابكي ولا تسأمي وحُـقَّ البكـاء على السيّد

وهذا حسّان بن ثابت يبكيه ﷺ ويقول:

ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت عيونٌ ومثلاها مـن الجفـن أسعـد

ويقول:

يُبكّـون مـن تبكي السّماوات يومـه ومن قد بكته الأرض فالناس أكمدُ

ويقول:

يا عين جودي بدمع منك إسبال ولا تملَّـنَّ مـن سـحّ وإعـوالِ

وهذه أروى بنت عبد المطلّب تبكي عليه ﷺ وترثيه بقولها:

ألا يـا عين! ويحكِ أسعـدينـي بـدمعـك مـا بقيـت وطـاوعينـي
ألا يـا عين! ويحك واستهلّي على نـور البـلاد وأسعـدينـي

وهذه عاتكة بنت عبد المطّلب ترثيه وتقول:

---

١. الغدير:٥/ ١٤٧.

عينيَّ جـودا طـوال الـدّهـر وانهمِـرا
سكبـاً وسحّـاً بـدمـع غير تعـذيـر
يـا عين فـاسحنفـري بـالـدّمـع واحتفلي
حتّـى المهات بسجـل غير منـذور
يـا عين فـانهملي بـالـدّمـع واجتهـدي
للمصطفـى دون خلـق الله بـالنـور

وهذه صفيّة بنت عبد المطّلب تبكي عليه وترثيه ﷺ تقول:

أفـاطـم بكّـي ولا تسـأمـي بصحبـك مـا طلـع الكـوكـبُ
هـو المرء يُبكـىٰ وحـقّ البكـاء هـو الماجـد السيّـد الطيّـبُ

وتقول:

أعينـيّ! جـودا بـدمـع سجـمْ يبـادر غـربـاً بما مُنهـدمْ
أعينـيّ! فـاسحنفـرا وأسكبـا بـوجـدٍ وحـزنٍ شـديـد الألمْ

وهذه هند بنت الحارث بن عبد المطّلب تبكي عليه وترثيه وتقول:

يا عين جودي بدمع منك وابتدري
كمـا تنـزّل مـاء الغيـث فانثعبـا

وهذه هند بنت أثاثة ترثيه وتقول:

ألا يـا عـين! بـكّي لا تمـلّي فقد بكر النعيُّ بمن هويتُ

وهذه عاتكة بنت زيد ترثيه وتقول:

وأمسـت مـراكبـه أوحشـت | وقـد كـان يـركبهـا زينهـا
وأمسـت تُبكـي على سيّـد | تـردّد عبرتها عينهـا

وهذه أمّ أيمن ترثيه ﷺ وتقول:

عين جـودي فـإنّ بـذلـك للـدمـ | ـع شفـاء فـاكثـري مِ البكـاء
بـدمـوع غـزيـرة منـك حتّـى | يقضي الله فيـك خير القضـاء[1]

وهذه عمّة جابر بن عبد الله جاءت يوم أُحد تبكي على أخيها عبد الله بن عمرو قال جابر: فجعلتُ أبكي وجعل القوم ينهوني ورسول الله ﷺ لا ينهاني، فقال رسول الله ﷺ: أبكوه ولا تبكوه فوالله ما زالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتّى دفنتموه.[2].[3]

نعم روي عن عمر بن الخطّاب وعبد الله بن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الميّت يعذَّب ببكاء أهله».

أقول: إنّ ظاهر هذا الحديث يخالف فعل الخليفة في مواطن كثيرة أثبتها التاريخ.

منها: أنّه بكىٰ على النعمان بن مقرن المزني لمّا جاءه نعيه، فخرج ونعاه إلى الناس على المنبر، ووضع يده على رأسه يبكي.[4]

ومنها: بكاؤه مع أبي بكر على سعد بن معاذ حتّى قالت عائشة: فوالذي نفس محمّدٍ بيده إنّي لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وإنّي لفي حجرتي.[5]

---

١. راجع طبقات ابن سعد: ٢/ ٣١٩ـ٣٣٢؛ سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٤٦.
٢. الاستيعاب: في ترجمة عبد الله: ١/ ٣٦٨.
٣. الغدير: ٣/ ١٦٥ـ ١٦٧.
٤. الاستيعاب: في ترجمة النعمان: ١/ ٢٩٧؛ العقد الفريد لابن عبد ربّه الأندلسي: ٣/ ٢٣٥.
٥. تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٣.

ومنها: بكاؤه على أخيه زيد بن الخطّاب، وكان صحبه رجل من بين عدي ابن كعب فرجع إلى المدينة فلمّا رآه عمر دمعت عيناه وقال: وخلّفت زيداً قاضياً وأتيتني.[١]

فالبكاء المتكرّر من الخليفة يهدينا إلى أنّ المراد من الحديث ـ لو صحّ سنده ـ معنى آخر، كيف و أنّ ظاهر الحديث لو قلنا به فإنّه يخالف الذكر الحكيم، أعني قوله سبحانه: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ﴾[٢]. فأيّ معنى لتعذيب الميّت ببكاء غيره عليه!!

قال الشافعي: «وما روت عائشة عن رسول الله ﷺ أشبه أن يكون محفوظاً عنه ﷺ بدلالة الكتاب والسنّة، فإن قيل: فأين دلالة الكتاب؟ قيل: في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ ...﴾ و ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسانِ إلاّ ما سَعىٰ﴾.[٣]

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَل مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[٤] وقوله:

﴿... لِتُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسعىٰ﴾[٥]. فإن قيل: أين دلالة السنّة؟ قيل: قال رسول الله لرجل: ابنك هذا؟ قال: نعم، قال: أما أنّه لا يجني عليك ولا تجني عليه. فأعلم رسول الله مثلما أعلم الله من أنّ جناية كلّ امرئ عليه، كما أنّ عمله لا لغيره ولا عليه».[٦]

فقه الحديث

كلّ هذه النقول توقفنا على أنّ المراد من الحديث «إنّ الميّت يعذّب...» ـ إن

١. العقد الفريد:٣/ ٢٣٥.
٢. فاطر:١٨.
٣. النجم:٣٩.
٤. الزلزلة:٧ـ٨.
٥. طه:١٥.
٦. اختلاف الحديث بهامش كتاب الأُمّ للشافعي:٧/ ٢٦٧.

صحّ سنده ـ غير مـا يفهم من ظاهره، وقد كان محتفّـاً بقرائن سقطت عند النقل، ولأجل ذلـك توهّم البعـض حرمـة البكاء على الميّـت استناداً على هـذا الحديث، غافلاً عن مرمىٰ الحديث ومغزاه.

روت عمرة: أنّها سمعت عـائشة ـ رض ـ وذكرت لها أنّ عبد الله بـن عمر يقول: إنّ الميّت ليعـذَّب ببكاء الحي، فقالت عائشـة ـ رض ـ : أما إنّـه لم يكذب، ولكنّه أخطأ أو نسىٰ إنّما مـرّ رسول الله ﷺ على يهودية يبكي عليهـا أهلها، فقال: إنّهم ليبكون عليها وأنّهاالتعذَّب في قبرها.[1]

وعن عروة عن عبد الله بن عمـر قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ الميّت ليعذَّب ببكاء أهله عليه، فذكر ذلك لعائشة فقالت ـ وهي تعني ابن عمر ـ : إنّما مرّ النبيّ ﷺ على قبر يهودي فقال: إنّ صاحب هذا ليُعذَّب وأهلـه يبكون عليه، ثمّ قرأت: ﴿وَلاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ﴾ .[2]

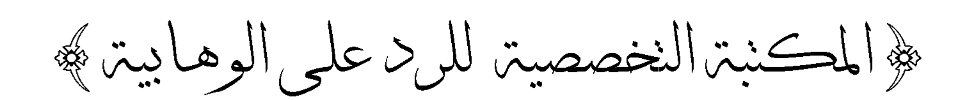
هذا فقه الحديث ومعناه، ولا يشكّ في صحّة هذا المعنى مَن له إلمام ومعرفة بالكتاب والسنّة.

وهناك روايات أُخر تدلّ على أنّ رسول الله ﷺ نهى عمر عن منعه الباكيات لبكائهنّ على الميّت.

عن ابن عبّاس قال: لمّا ماتت زينب بنت رسول الله قال رسول الله: ألحقوها بسلفنا الخير عثمان بن مظعون، فبكت النساء، فجعل عمر يضربهنّ بسوطه، فأخذ رسول الله ﷺ يده وقال: مهلاً يا عمر، دعهنّ يبكين، وإيّاكنّ ونعيق الشيطان ـ إلى

---

١. صحيح البخـاري:٢/ ٨٠، الباب ٣٢ من أبواب الجنـائز؛ اختلاف الحديث للشـافعي: ٧/ ٢٦٦؛ الموطّأ: ١/ ٩٦، صحيح مسلم:١/ ٣٤٤، سنن النسائي: ٤/ ١٧، سنن البيهقي:٤/ ٧٢.
٢. سنن أبي داود:٢/ ٥٩، سنن النسائي:٢/ ١٧.


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

خاتمة المطاف

إضافة لفظ «العبد» إلى المخلوق

قد تعارف لدى محبّي أهل البيت عليهم السلام تسمية أولادهم بـ«عبد الرسول» و«عبد علي» و «عبد الحسين»... ونحوها، أي إضافة كلمة العبد إلى أسمائهم عليهم السلام.

وأثارت هذه التسمية قلقاً في بعض الأوساط خصوصاً الوهّابيّة، زاعمين أنّ تلك التسمية رمز الشرك، ولا توافق أُصول التوحيد، وقد جمعني والشيخ ناصر الدين الألباني ـ و هو مصحّح ومحقّق بعض كتب الأحاديث ـ مجلس في سوريا فرأيت فيه كراهة شديدة أن يتكلّم باسم عبد الحسين، وكان ذلك عندما جاء الحديث عن العلاّمة الحجّة السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي ـ قدّس الله سرّه ـ صاحب المراجعات ويأتي فيما يلي تفصيل ما دار بيني و بينه، ولأجل رفع الستر عن وجه الحقيقة نقوم بتحليل المسألة من وجهة نظر القرآن والسنّة فنقول:

العبودية تطلق ويراد منها:

أوّلاً: ما يقابل الإلوهية، والعبودية بهذا المعنى ناشئة من المملوكية التكوينية الّتي تعمّ جميع العباد، ويكون المالك هو الله سبحانه وتعالى، ومن المعلوم أنّ منشأ كون الإنسان عبداً والله سبحانه هو المولى، كونه خالقاً له من العدم، والمفيض والمعطي له كلّ ما يتعلّق به.

فالعبودية بهذا المعنى ذاتية كلّ موجود، وجوهرة كلّ شيء لا تنفكّ عنه

أبداً، وإلى ذلك ينظر قوله سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ إِلاّ آتي الرَّحْمٰنِ عَبداً﴾.[1]

كما يشير إليه قول المسيح عليه السلام: ﴿قالَ إِنّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الكِتابَ وَجَعَلَني نَبِيّاً﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات، والعبودية بهذا المعنى تستدعي حصر إضافتها بالله سبحانه وتعالى.

ثانياً: تطلق ويراد منها الطاعة أو ما يقاربها، وقد صرّح بهذا المعنى أصحاب المعاجم اللغوية.

قال في لسان العرب: التعبّد: التنسّك، العبادة: الطاعة.

وقال في القاموس المحيط: والعبدية والعبودية والعبودة والعبادة: الطاعة.

وعلى هذا الأساس فالمراد من «عبد الرسول وعبد علي و...» هو مطيع الرسول ومطيع عليّ ولا غبار على ذلك، كيف لا و أنّ الله سبحانه وتعالى أمرنا بطاعتهما ﴿... أَطيعُوا اللهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ...﴾.[3] فعرّف القرآن النبيّ مطاعاً والمسلمين مطيعين، ولا عتب على الإنسان أن يظهر هذا المعنى في تسمية أولاده ومحبيه.

نعم في حديث أبي هريرة «لا يقل أحدكم لمملوكه عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي» وعلّله ابن الأثير في كتابه «النهاية» بقوله: هذا على نفي الاستكبار عليهم وأن ينسب عبوديتهم إليه، فإنّ المستحقّ لذلك الله تعالى هو ربّ العباد كلّهم.

والحديث بظاهره يخالف الذكر الحكيم، كيف لا وهو الذي نسب العبودية إلى الناس الذين يملكونهم، قال سبحانه: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيامى مِنْكُمْ وَالصّالِحينَ

---

١. مريم:٩٣. ٢. مريم:٣٠. ٣. النساء:٥٩.

﴿مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمـائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِـنْ فَضْلِهِ وَاللهُ واسِعٌ عَليمٌ﴾[١].

ترى أنّـه سبحانـه ينسب العبـودية والإمائيـة إلى الذيـن يمتلكونهم، ولـو كان في التعبير شيء من التكبّر للمولى لما استعمل سبحانه هذا التعبير.

ثمّ إنّ أسـاس الشبهـة أنّ المستشكلين لا يفرّقـون بين العبـوديـة التكوينيـة الحقيقية ـ التـي لا تنفكّ عن الإنسان منذ بـدء وجوده إلى أُخريات أيـامه ـ و بين المملوكية العارضة على الإنسان حسب الأحوال والشرائط، فيصير السيّد عبداً رقّاً، والعبد الرقّ سيّداً وحاكماً.

هذا هـو الفقه الإسـلامي يحكم في أسرىٰ الحرب بجـواز استرقاقهـم رجالاً ونسـاءً، قال ابـن قدامـة في كتابـه «المغني»: وإذا أسبـىٰ الإمام فهـو مخيّرٌ إن رأى قتلهم، وإن رأى مـنّ عليهم وأطلقهـم بـلا عـوض، وإن رأى أطلقهم على مـالٍ يأخذه منهم، وإن رأى فادىٰ بهم، وإن رأىٰ استرقّهم.

هذا وفي الكتـب الفقهية باب واسع لأحكـام العبيد والإماء، فلهـم أحكام خاصّـة يقف عليهـا العارف بالفقـه الإسلامـي، فيطلقون كلمـة المولى على السيّد الّذي ملكهم بالأسر أو بالشراء، كما يطلقون كلمة العبد والأمة على الأسرى الذين رأى الحاكم استرقاقهم، ولم يرَ أحدٌ من الفقهاء في هذه التسمية حرجاً.

وممّا يُقضىٰ منه العجب قـول محمّد بن عبـد الوهّـاب: «إنّ من قـال لأحد مولانا أو سيّدنا فهو كافر»[٢] مع أنّ القرآن يطلق كلمة السيّـد على غيره ـ سبحانه و تعالى ـ قال: ﴿... مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ...﴾[٣] وقال عزّ وجلّ: ﴿... وَقَدَّتْ قَميصَـهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيـا سَيِّدَها لَـدَى البابِ ...﴾[٤] وقـال تعـالى :

---

١. النور:٣٢.
٢. كشف الارتياب للسيد محسن الأمين: نقله عن خلاصة الكلام.
٣. آل عمران:٣٩.
٤. يوسف:٢٥.

﴿وَقالُوا رَبَّنا إِنّا أَطَعْنا سادَتَنا وكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبيلا﴾.[١]

أضف إلى ذلك ما تواتر في الروايات من إطلاق السيّد على النبيّ والحسنين[٢] حيث لا يشكّ في صحّتها أحد.

وقد رثىٰ أبو بكر النبيّ الأعظم بأبيات أوّلها:

يا عين فابكي ولا تسأمي　　　وحقّ البكاءُ على السيّد
على خير خندق عند البلا　　　ءأمسىٰ يغيب في الملحد[٣]

نعم أورد السيوطي في الجامع الصغير عن الديلمي في مسند الفردوسي عن عليّ «السيّد الله».

كما أورد العزيزي في شرح الجامع الصغير عن مسند أبي داود أنّه جاء وفد بني عامر إلى النبيّ فقالوا: أنت سيّدنا، فقال: السيّد الله.

فلو صحّ الحديثان فيجب أن يحملا على المعنى الحقيقي للسيادة ـ أعني: المالك والخالق ـ فإنّ السيادة بهذا المعنى تختصّ بالله سبحانه.

كيف و قد أطلق رسول الله كلمة السيّد على سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ روى الطبري: لمّا طلع سعد قال رسول الله: قوموا إلى سيّدكم.[٤]

فهذه المناهي الواردة حول كلمة السيّد محمولة على إرادة المعنى الذي ينافي إخلاص العبادة وتوحيد الله.

---

١. الأحزاب:٦٧.

٢. المقصود«الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة».

٣. الطبقات الكبرى لابن سعد:٢/ ٣١٩، والهمزة الأُولى في البيت الثاني جزء من كلمة البلاء، وإنّما يتلفّظ بها في المصرع الثاني، ويسمى هذا القسم في علم العروض بالشعر المدوّر، باعتبار امتزاج الصدر بالعجز.

٤. تاريخ الطبري:٢/ ٢٤٩.

ولعمري أنّ الحقيقـة واضحة لا تحتـاج إلى التطويل، كيـف وكلمات العرب والـرسول والصحـابة والتـابعين والأئمّة مـن آل الرسـول وفقهاء الأُمّـة مشحونـة باستعمال هـذه الكلمات في غيره سبحانه . ولم ير أحـدٌ في إطلاقها على غيره ــ عزّ اسمه ــ حرجـاً، وقد نظروا إلى هـذه المسائل بصدر رحـب وعين بعيدة المدى، ولم يضيّقوا الأمـر على المسلمين ووجدوا الإسلام شريعـة سهلة سمحة تتبع المقـاصد والأغراض لا الظواهر والألفاظ.

فالوهّابيّة ـ كالخوارج ـ ضيّقوا الأمر على أنفسهم وعلى المسلمين بما لم يضيّق به سبحانه، والطائفتان تسيران في عدّة من المسائل جنباً إلى جنب.

الآن حصحص الحقّ

حان الآن أيّها القارئ الكريم أن نختم هذا البحث الضافي حول عقائد الوهّابيّة وأُصولها وأهدافها بكلمة قصيرة نافعة للمجتمع الإسلامي عامّة وللشباب المسلم الغيور خاصّة.

إنّ الإسلام بُني على كلمتين: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، فيجب على الأُمّة الإسلامية أن تحفظ وحدة الكلمة وعُرىٰ الاخوّة، كما يجب عليها أن تحتفظ بكلمة التوحيد، فإنّهما صنوان نابتان من أصل واحد.

فكما أنّ القرآن والسنّة حثّا على توحيده ـ سبحانه ـ ذاتاً و فعلاً و عبادةً، فقد حثّا أيضاً على الاعتصام بحبل الله ونهيا عن التفرّق **﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾** [1] وقال عزّ شأنه: **﴿وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الهُدىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبيلِ الْمُؤْمِنينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلّىٰ وَنصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصيراً﴾**.[2]

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «وألزموا السواد الأعظم، فإنّ يد الله مع الجماعة، وإيّاكم والفرقة، فإنّ الشاذّ من الناس للشيطان كما أنّ الشاذّ من الغنم للذئب، ألا ومن دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه».[3]

فإذا كان توحيد الكلمة بهذا المكانة العالية، فما حال من شقّ عصا

---

١. آل عمران:١٠٣.

٢. النساء:١١٥.

٣. نهج البلاغة:الخطبة ١٢٣.



المسلمين وبثّ فيهم الفرقة ومزّق صفوفهم وشتّت شملهم بغرس شكوك في أُمور طالما اتّفقت عليها الأُمّة الإسلامية قبل أن يتولّد باذر الشكوك ـ أعني : ابن تيميّة ـ و ساقيها ـ أعني: محمّد بن عبد الوهّاب ـ.

أيّها القارئ العزيز: إنّ ما تلوناه عليك في هذه الصحائف هو مقتضى نصوص الكتاب الحكيم وسنّة النبيّ الأكرم ﷺ ونتيجة ما أجمعت عليه الأُمّة الإسلامية طوال القرون، فأيّ قيمة لكلمة أو كلمات تضادّ كتاب الله وسنّة نبيّه ـ عليه وعلى آله الصلاة والسلام ـ وما اتّفقت عليه الأُمّة.

يعزّ على الأُمّة الإسلامية وفي مقدّمتها علماؤها ومفكّروها أن يوجد أُناس في «أُمّ القرىٰ» و مهبط الوحي يكفّرون الأُمّة جمعاء من سنّة وشيعة ولا يستثنون منهم إلّا شذّاذ الآفاق من بلاد نجد.

وقد وقف الأعاظم من أبناء الأُمّة الإسلامية على خطورة الموقف وأضرار هذه الهواجس الشيطانية التي زرعها ابن تيمية حتّى قال الحافظ ابن حجر في كتابه «الفتاوى الحديثية» في حقّه ما هذا نصّه:

«ابن تيميّة عبدٌ خذله الله وأضلّه وأعماه وأصمّه، وبذلك صرّح الأئمة الذين بيّنوا فساد أحواله وكذب أقواله، ومن أراد فعليه بمطالعة كلام الإمام المجتهد المتّفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهاد أبو الحسن السبكي وولده التاج والشيخ الإمام العزّ بن جماعة وأهل عصرهم من الشافعية والمالكية والحنفية، ولم يقصر اعتراضه ـ ابن تيميّة ـ على متأخّري الصوفية بل اعترض على مثل عمر بن الخطّاب وعليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ.

والحاصل: أنّه لا يقام لكلامه وزن يرمىٰ في كلّ وعر وحَزَن، ويعتقد فيه أنّه

مبتدع ضالّ مضلّ غال عامَله الله بعدله وأجارنا من مثل طريقته وعقيدته وفعله ـ آمين ـ». [١]

وأسأل الله أن يجعلنا من ﴿الَّذينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَول فَيَتَّبِعُونَ أَحسنَه﴾ .

وصلىّ الله على سيّدنا محمّد خاتم النّبيّين

وآله الطّيبين الطاهرين وصحبه الأخيار المنتجبين

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

جعفر السبحاني

قم المشرّفة

عيد الغدير ـ ١٨ ذي الحجّة ـ ١٤٠٦ هـ.

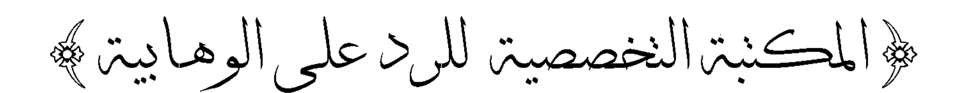
١. الفتاوى الحديثية: ص ٨٦.

إلقاء الأضواء

على زيارة النساء

بحث موجز، يستعرض بصورة موضوعية موقف الإسلام

من زيارة النساء للقبور


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

زيارة النساء للقبور
في الشريعة الإسلامية

لقد أسعفني الحظ هذا العام (١٤٢١هـ) بزيارة بيت الله الحرام لأداء العمرة المفردة، والتشرّف بزيارة النبيّ ﷺ وأئمّة البقيع عليهم السلام وبقية المشاهد المباركة، وقد استرعىٰ انتباهي عند زيارتي البقيع منع النساء من دخولها من قبل السلطات السعودية، و ذلك بفتوىٰ بعض فقهاء الحنابلة مع أنّ الأدلة الشرعية على خلافها، وهي تدلّ على كون الرجال والنساء في ذلك سواسية، ومن حسن الحظ فقد التقيت بأحد الآمرين بالمعروف في البقيع ودار حوار بيني وبينه حول زيارة النساء للقبور، وقد تبادلنا فيه بعض الرسائل، ولذلك عزمت علىٰ كتابة رسالة مفصلة في هذا الموضوع استعرض فيها أدلّة الموافق والمخالف على وجه لا يبقىٰ لمشكّك شك، ولا لمرتاب ريب.

هذه هي الرسالة التي أُقدّمها لطلاّب الفقه في الجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة عسى أن تنال رضاهم.

المؤلف




المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

زيارة القبور في الشريعة الإسلامية

اتّفق المسلمون على استحباب زيارة القبور تأسّياً بالنّبي الأكرمﷺ في قوله وفعله.

«قال النووي تبعاً للعبدري والحازمي وغيرهما: اتّفقوا على أنّ زيارة القبور للرجال جائزة.

نعم حكي عن ابن أبي شيبة وابن سيرين وإبراهيم النخعي والشَّعبي،الكراهة، حتّى قال الشعبي: لولا نهي النبيﷺ لزرت قبر ابنتي... وكأنّ هؤلاء لم يبلغهم الناسخ».(١)

وسيوافيك تضافر الأدلّة على استحبابها لما فيها من الأمر والبعث والأثر البنّاء، أعني تذكّر الآخرة، والزهد في الدنيا. وما أبعد هذا القول عما حكي عن ابن حزم أنّ زيارة القبور واجبة ولو مرّة واحدة، لورود الأمر بها، وبما أنّ استحبابها للرجال أمر متّفق عليه إلاّ من شذّ من الذين لم يبلغهم قول النبيﷺ وفعله، فلا نطيل الكلام فيها.

إنّما الكلام في استحبابها أو جوازها للنساء، فأكثر أهل السنّة على الاستحباب.

قال ابن حجر: واختلف في النساء، فقيل دُخلن في عموم الإذن، وهو قول

---

١. ابن حجر، فتح الباري: ٣/ ١٤٨.

الأكثر، وقيل الإذن خاص بالرجال، ولا يجوز للنساء زيارة القبور، وبه قال الشيخ أبو إسحاق في المهذب.[١]

وقال السندي في شرحه على سنن النسائي عند شرح قوله ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها». فيه جمع بين الناسخ والمنسوخ، والإذن بقوله «فزوروها»، قيل: يعمّ الرجال والنساء، وقيل: مخصوص بالرجال، كما هو ظاهر الخطاب، لكن عموم علّة التذكير الواردة في الأحاديث قد يؤيد عموم الحكم، إلاّ أن يمنع شمول قوله «وتذكر الآخرة» للنساء لكثرة غفلتهن.[٢]

ونقل النووي في شرحه على «صحيح مسلم» أقوالاً ثلاثة:

أ. الحرمة ، ب. الكراهة،ج. الجواز.[٣]

هذه الكلمات تعرب عن اختلاف الآراء وإن كان الأكثر على الجواز، وهو الحقّ المتعيّن للأدلة التالية:

١ . حديث عائشة

أخرج النسائي في سننه عن عائشة، انها قالت: ألا أُحدِّثكم عنّي و عن النبي ﷺ؟ قلنا: بلى، قالت: لما كانت ليلتي التي هو عندي ــ تعني النبيﷺ ـ انقلب فوضع نعليه عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه، فلم يلبث إلاّ ريثما ظن قد رقدتُ، ثمّ انتعل رويداً، وأخذ رداءه رويداً، ثمّ فتح الباب رويداً، وخرج رويداً، وجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت إزاري، وانطلقت في أثره،

١. ابن حجر، فتح الباري: ٣/ ١٤٨.
٢. النسائي، السنن، بشرح السيوطي والسندي: ٤/ ٨٩.
٣. النووي، شرح صحيح مسلم: ٧/ ٤٩.

حتّى جاء البقيع، فـرفع يديه ثلاث مـرات فأطال، ثمّ انحرف فـانحرفت، فأسرع فأسرعـت، فهرولَ فهـرولتُ، فـأحضرَ فأحضرتُ، وسبقتـه فدخلـتُ فليس إلاّ أن اضطجعتُ، فدخل فقال :ما لك يا عائشة حشيا رابية؟.

قالت: لا، قال: لِتُخْبِرَنِّي أو لِيُخْبِرَنِّي اللطيف الخبير، قلت يا رسول الله: بأبي أنت وأُمّي فـأخبرته الخبر، قال: فـأنتِ السواد الذي رأيـت إمامي، قـالت: نعم. فلهـزني في صدري لهزة أوجعتني، ثـمّ قال: أظننت أن يحيـف الله عليك ورسولـه، قلت: مهما يكتم الناس فقد علمه الله.

قـال : فانّ جبرئيل أتـاني حين رأيت ولم يـدخل عليَّ، وقـد وضعت ثيـابك فناداني فـأخفى منك، فأجبتـه فأخفيتـه منك، فظننت ان قـد رقدتِ وكـرهتُ أن أُوقظك وخشيتُ أن تستـوحشي، فأمـرني أن آتي البقيع فأستغفـر لهم، قلت: كيف أقول يا رسول الله؟

قـال: قـولي: السّـلام على أهل الـدّيـار مـن المؤمنين والمسلمين، يـرحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون.(١)

وجه الدلالة: انّ تعليم الزيارة آية جوازالعمل بها.

مضافـاً إلىٰ أنّ قوله: «وكرهـت أن أُوقظك» مشيراً إلى أنّه ﷺ كره إيقاظها لتشاركه في زيارة البقيع.

نعم ليـس في الروايـة ما يـدلّ على دخولها البقيع، وإنّما خـرجت من بيتهـا للاطلاع على حال الرسول، وانّه إلى أين ذهـب، لكن الاستدلال ليس منصبّاً على دخـولها البقيع وزيـارتها مع النبـي، بل هـو منصبّ على أنّـه ﷺ علّمها الزيارة،

١. سنن النسـائي: ٤/ ٩١، الأمر بالاستغفـار للمؤمنين؛ صحيح مسلم: ٣/ ٦٤، بـاب ما يقـال عند دخول القبـور والدعـاء لأهلها. واللفـظ في المتن للنسائي، وبين النقلين اختـلاف طفيف. قـوله «حَشْيا»: مرتفعة النفس.

وعندئذٍ لا يخلو الحال من صورتين:

الصورة الأُولى: علّمها وكانت الزيارة للنساء مستحبة أو جائزة.

الصورة الثانية: علّمها وكانت الزيارة لهنّ محرمة.

فعلى الأُولى يثبت المطلوب، وعلى الثانية يلزم اللغوية كما هو واضح، لأنّه ﷺ كيف يعلمها الزيارة المحرمة، وهذا أشبه بتعليم الحرام؟!

وربما يتصور: انّها تعلّمت لتزور البقيع من بعيد، ولكن هذا التصوّر من السخافة بمكان، لأنّ الزيارة عبارة عن حضور الزائر لدى المزور، فما معنى الزيارة من بعيد؟! ولو كانت الغاية من التعليم هو ذاك النوع من الزيارة كان عليه ﷺ أن ينبهها ويأمرها بذلك.

على أنّ معنى قولها: «كيف أقول؟» أي: كيف أقول عند زيارتي البقيع كزيارتك إيّاه؟ فعلّمها الرسول نفس ما كان يقوله عند زيارته.

٢. حديث بريدة

أخرج مسلم في صحيحه، عن بريدة، قال: قال رسول الله ﷺ: نهيتُكم عن زيارة القبور فزوروها.[١]

وأخرجه النسائي في سننه عنه مثل ذلك، وزاد: فمن أراد فليزر ولا تقولوا هجراً.[٢]

٣. حديث أبي هريرة

وأخرج ابن ماجة في سننه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «زوروا

---

١. صحيح مسلم: ٣/ ٦٥، باب استئذان النبي ربّه في زيارة قبر أُمّه.

٢. سنن النسائي: ٤/ ٨٩، باب زيارة القبور.

القبور فانّها تذكّركُم الآخرة».

وفي نقل آخر: فزوروا القبور فإنّها تذكّركم الموت.[١]

٤ . حديث ابن مسعود

أخرج ابن ماجة في سننه، عن ابن مسعود، انّ رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانّها تُزهّد في الدّنيا وتذكّر الآخرة».[٢]

قال ابن حجر: وقد أخرج مسلم حديث بريدة، وفيه نسخ النهي عن ذلك، ولفظة :«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» وزاد أبو داود والنسائي في حديث أنس: «فانّها تذكر الآخرة»، وللحاكم من حديث فيه: «وترقُّ القلب وتدمع العين، فلا تقولوا هجراً» أي كلاماً فاحشاً.

وله من حديث ابن مسعود: «فانّها تزهد في الدّنيا»، ولمسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «زوروا القبور فانّها تذكّر الموت».[٣]

وجه الاستدلال هو عموم الخطاب للرجال والنساء ولا يضرّ تذكير الضمير، لما ثبت في محلّه من أنّ خطابات القرآن والسنّة تعمّ الصنفين إلاّ ما خرج بالدليل، وقوله سبحانه: **﴿وَ أَقيمُوا الصَّلاة وآتُوا الزَّكاة﴾**[٤]؛ **﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوّي وَعَدُوّكُمْ أَولياء﴾**[٥]؛ **﴿أَنْ لا تشركُوا بِهِ شَيئاً﴾**[٦] إلى عشرات الأمثال، يعم الصنفين بلا ريب ومنه هذا الحديث.

---

١. سنن ابن ماجة: ١/ ٥٠١، حديث ١٥٧٢.

٢. سنن ابن ماجة: ١/ ٥٠١، حديث ١٥٧١.

٣. فتح الباري: ٣/ ١٤٨.

٤. البقرة: ١١٠.

٥. المتحنة: ١.

٦. الأنعام: ١٥١.

أضف إلى ذلك انّ التعليل في الحديث آية الشمول، لأنّ قوله: «فإنّها تذكّركم الآخرة» لا يقبل التخصيص، وقد قرر في علم الأُصول انّ العلّة تعمم وتخصّص، وهل يصحّ في منطق العقل الصريح، اختصاص ما يذكّر الآخرة بالرجال وحرمان النساء منه؟!

٥. حديث أنس بن مالك

أخرج البخاري في صحيحه، عن أنس بن مالك، قال: امرَّ النبي بامرأة تبكي عند قبر، فقال: اتقي الله واصبري، قالت: إليك عنّي فانّك لم تُصب بمصيبتي ولم تعرفه.

فقيل لها: إنّه النبيّ ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنّما الصبر عند الصدمة الأُولى.(١)

قال ابن حجر في تفسيره: قوله :الصدمة الأُولى:«وفي رواية الأحكام عند أوّل صدمة» ونحوه لمسلم، والمعنى إذا وقع الثبات أوّل شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع، فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر، وأصل الصدم ضرب الشيء الصلب بمثله، فاستعير للمصيبة الواردة على القلب.(٢)

وجه الدلالة: انّ النبي ﷺ أوصاها بالتقوى والصبر، وكأنّها قالت في كلامها شيئاً يخالف التقوى.

قال القرطبي: الظاهر انّه كان في بكائها قدر زائد من نوح أو غيره، ولهذا

---

١. صحيح البخاري: ٢/ ٧٩، باب زيارة القبور

٢. فتح الباري: ٣/ ١٤٩، باب زيارة القبور.

أمرها بالتقوى.

قال ابن حجر: ويؤيده انّ في مرسل يحيى بن كثير: «سمع منها ما يكره فوقف عليها» فلو كان وقوفها على القبر وزيارتها له أمراً محرماً كان عليه أن يردعها عنه، مع أنّه ﷺ أمرها في كلا اللقاءين بالصبر.

٦. زيارة عائشة قبر أخيها

أخرج الترمذي في سننه، عن عبد الله بن أبي مليكة، قال: توفّي عبد الرحمن بن أبي بكر بـ«حبشىٰ»، قال: فحمل إلى مكة فدفن فيها، فلمّا قدمتْ عائشة، أتت قبر عبدالرحمن بن أبي بكر، فقالت:

وكنّا كندماني جذيمة حِقْبةً	من الدهر حتى قيل: لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني و مالكا	لطول اجتماع لم نَبِتْ ليلة معا

ثمّ قالت: والله لوحضرتك ما دفنت إلاّ حيث متَ، ولو شهدتك ما زرتك.[1]

والمتبادر من العبارة انّها لما قدمت مكة ذهبت إلى زيارة قبر أخيها لا انّها مرّت عليه عفواً في طريقها إلى مكة.

وأمّا قولها: «ولو شهدتك لما زرتك» فهو بمعنىٰ انيّ بما ان لم أؤدّي حقّك في حال حياتك، فلذلك أزورك بعد مماتك ولو كنت مؤدية لحقّك لما تحملت عبء زيارتك.

١. سنن الترمذي: ٣/ ٣٧١، باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، حديث ١٠٥٥.

٧. زيارة السيدة فاطمة عليها السلام قبر حمزة

أخرج الحاكم في مستدركه، عن علي بن الحسين، عن أبيه: انّ فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت تزور قبر عمّها حمزة كلّ جمعة وتبكي عنده.

قال الحاكم بعد نقل هذا الحديث: «رواته عن آخرهم ثقات».[١]

هذه الروايات العديدة الصحيحة تدل بوضوح على جواز الزيارة للنساء، ومن أمعن النظر فيها يقف على أنّ المسألة من الوضوح بمكان غير انّه إكمالاً للبحث نذكر دليل المخالف، وهي ليست إلاّ شبهاً طارئة.

دليل من لم يجوّز زيارة القبور للنساء

احتجّ المخالف بوجوه:

الأوّل: بما أخرجه الترمذي، عن أبي هريرة انّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن زوّارات القبور.[٢]

وأخرجه ابن ماجة عن حسّان بن ثابت،وعن ابن عباس واللفظ في الجميع واحد.

قال الترمذي صاحب السنن: وقد رأى بعض أهل العلم انّ هذا كان قبل أن يرخّص النبي في زيارة القبور، فلمّا رخّص دخل في رخصته الرجال والنساء.

وقال بعضهم: إنّما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهنّ وكثرة جزعهنّ.[٣]

١. الحاكم: المستدرك:١/ ٣٧٧، كتاب الجنائز.

٢. سنن الترمذي: ٣/ ٣٧١، باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء من كتاب الجنائز، حديث ١٠٥٦.

٣. المصدر نفسه.

وقال القرطبـي: لم يلعن النبي كلّ امرأة تزور القبور بـل لعن المرأة التي تزور القبور دوماً، والدليل على ذلك قوله ﷺ: زوّارات القبور، وكلمة «زوار» هي صيغة المبالغة وتدلّ على الكثرة والتكرار.

أقول: إنّ أمر هذا الحديث دائر بين كونـه منسوخاً أو مخصصاً، فلو ورد قبل الترخيص كان عمـوم الترخيص «فزوروا» ناسخاً والحديث منسـوخاً و إن ورد بعد الترخيص يكون مخصصاً، فإذا دار أمره بين كونه متروكاً أو معمولاً به فلا يحتج به.

الثاني: مـا أخـرجـه ابـن مـاجـة عـن ابن الحنفيـة عـن علي، قـال: خـرج رسول الله ﷺ فإذا نسوة جلوس، فقال: ما يجلسكنَّ؟ قلنَ: ننتظر الجنازة.

قال: هل تغسلن؟ قلن: لا، قال: هل تحملن؟ قلن: لا.

قال: هل تدلين فيمن يدلي؟ قلن: لا.

قال: فأرجعنَ مأزورات غير مأجورات.[1]

انّ الحديث قاصر سنداً ودلالة.

أمّا السند ففيه دينار بن عمر (أبوعمر).

قال أبـو حاتـم في حقّه : إنّـه ليس بالمشهـور، وقال الأزدي: متروك، وقـال الخليل في الإرشاد: كذّاب، وقال ابن حبان: يخطئ.

فهل يمكن أن يستدل بحديث كهذا.

وأمّا الدلالة ففيها **أوّلاً**: أنّ النبـيّ ﷺ يـذم النسوة اللـواتي لم يكن لهنّ أيّـة مسؤولية في تجهيز الميّت، وإنّما جلسنَ للنظر والمشـاهدة، وإلاّ فلو كان لهنّ مهمة

١. سنن ابن ماجة: ١/ ٥٠٢، باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز، الحديث ١٥٧٨.

معينة فتنعكس القضية، ويكنّ مأجورات لا مأزورات، ولذلك سألهن النبي ﷺ عن وجه جلوسهن فلمّاعلم حالهنّ ندد بهنّ.

وثانياً: أنّ غاية ما يمكن حمل الرواية عليها هو النهي عن اتّباع النساء الجنائز، وقد نقله الترمذي أيضاً تحت هذا العنوان وهو أمر مكروه بالاتّفاق، ويدلّ عليه حديث أُمّ عطية حيث قالت: «نهينا عن اتّباع الجنائز، ولم يعزم علينا».[1]

قوله: «ولم يُعزم علينا» أي ولم يوجب علينا، والمراد انّه لم يقطع علينا بالنهي ليكون حراماً فهو مكروه تنزيهاً.[2]

وأين هذا ممّا نحن فيه من زيارة القبور للنساء حيناً بعد حين؟!

وختاماً نلفت نظر القارئ إلى نكتة، وهي: انّ الإسلام دين الفطرة، والشريعة السهلة السمحة.

قال ﷺ: «إنّ هذا الدين لمتين فأوغلوا فيه برفق».

فمنع المرأة المؤمنة الصالحة التي دفنت فلذة كبدها تحت ركام من التراب عن زيارة قبر ولدها على طرف النقيض من الشريعة السهلة السمحة، التي لا تجبر أحداً على كبت أحاسيسه وعواطفه في قلبه دون إظهارها.

الآن حصحص الحقّ وبان بأجلى مظاهره وتبين انّ القول بالجواز هو القول الحقّ المتعيّن.

أرجو من الله سبحانه أن يحقّ الحقّ ويبطل الباطل ويجمع شمل المسلمين، ويرزقهم توحيد الكلمة كما رزقهم كلمة التوحيد، والمسلمون ــ مع تفرّقهم في الفروع والأحكام ــ تجمعهم مشتركات عديدة.

---

١ و ٢. سنن ابن ماجة: ١/ ٥٠٢، باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز، الحديث ١٥٧٨.

ولنعم ما قال شاعر الأهرام:

إنّـا لتجمعنـا العقيـدة أُمّـة ... ويضمّنا ديـن الهدى اتباعـا

ويـؤلّف الإسـلام بين قلـوبنـا ... مهما ذهبنـا في الهوى أشيـاعـا

وفي الختام نعكس رأي الإمامية في مسألة زيارة القبور للنساء ونكتفي بكلمة العلاّمة الحلي في كتاب «منتهى المطلب» الذي ألّفه في الفقه المقارن، قال:

الرابع: يجوز للنساء زيارة القبور، وعن أحمد روايتان: إحداهما: الكراهة.

لنا: ما رواه الجمهور عن النبي ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» وهو بعمومه يتناول النساء.

وعن ابن أبي مليكة انّه قال لعائشة: يا أُمّ المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن، فقلت لها: قد نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، قد نهى ثمّ أمر بزيارتها.[١]

ومن طريق الخاصة: ما رواه الشيخ عن يونس، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إنّ فاطمة عليها السلام كانت تأتي قبور الشهداء في كلّ غداة سبت، فتأتي قبر حمزة و تترحم عليه وتستغفر له[٢].[٣]

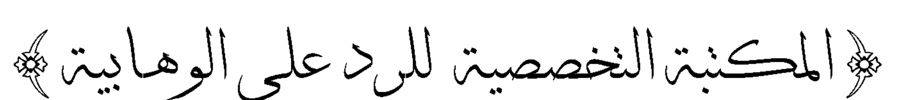
١. المستدرك: للحاكم: ١/ ٣٧٦؛ سنن البيهقي: ٤/ ٧٨.

٢. مرّ مصدر الرواية ولاحظ التهذيب للشيخ الطوسي: ١/ ٤٦٥ برقم ١٥٢٣.

٣. منتهى المطلب: ٧/ ٤٣٠.

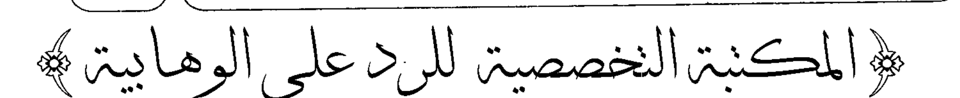

المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

فهرس المحتويات


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس	
النتائج البنّاءة لزيارة قبور الشخصيات الدينيّة	

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن	
النذر لأهل القبور	


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

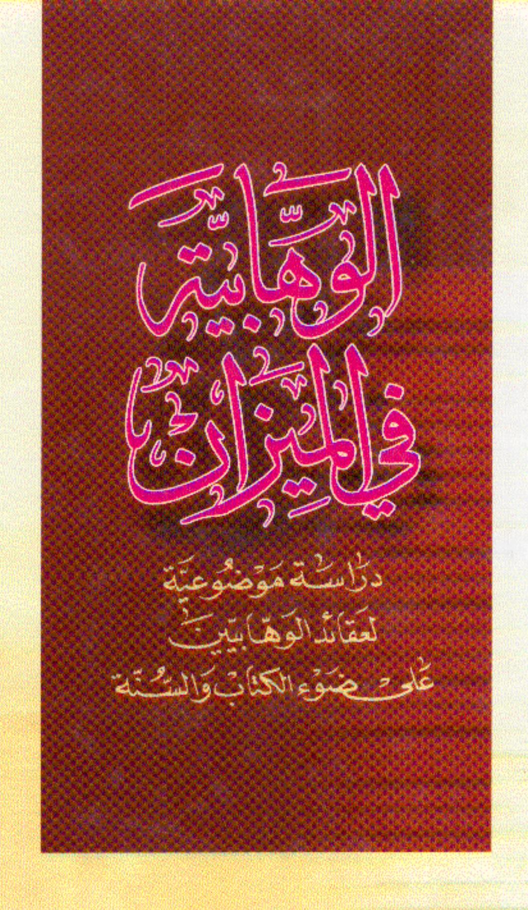
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

إلقاء الأضواء

على زيارة النساء

والحمدلله ربّ العالمين



دار الصديق الأكبر
المكتبة التخصصية للرد على الوهابية